جامعة الأزهر

كلية اللغة العربية بالقاهرة

قسم البلاغة والنقد

دراسات

في علم البيان

إعداد

أ.د. فتحي فريد

أ.د. تزيه عبد الحميد السيد

أ.د. بسيوني فيود

أ.د. إبراهيم عبد الحميد السيد

تمهيد

مفهوم البيان :

قال الله عز وجل : بسم الله الرحمن الرحيم (الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)[1] . فالبيان نعمة من نعم الله تعالى ، أنعم بها على بنى آدم ، حيث كرمهم وحملهم فى البر والبحر ورزقهم من الطيبات وفضلهم على كثير من خلقـــه .. وامتن عليهم بنعمة التعليم والبيان : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ)[2] . بهـذا التعليم تميز الإنسان عن كثير من خلقه ، وصار ناطقا مبينا ، يستطيع أن يعبر عما يخطر بخاطره ويجول فى نفسه من المعانى ، فيوصلها إلى غيره من البشر ، ويتلقاها الغير عنه ، فيتم التفاهم ، وبهذا التفاهم تتحقق السعادة بين البشرية .

والبيان فى اللغة ، معناه : الظهور والوضوح والإفصاح ، وما بين به الشىء من الدلالة وغيرها ، يقال : بان الشىء بيانا : اتضح فهو بين ... وأبنته : أوضحته ، واستبان الشىء : ظهر ، قال ابن ذريح :

ولله آيات تبين للفتى شحوبا وتعرى من يديه الأشاحم

أى : تظهر له شحوبا .. وبان الصبح لذى عينين : ظهر ووضح ، والبيان : الفصاحة والإفصاح مع ذكاء ، والبين من الرجال : السمح اللسان ،

---

(١) أول سورة « الرحمن » .

(٢) أول سورة « العلق » .

الفصيح الظريف ، العالى الكلام ، وفلان أبين من فلان أى : أفصح منه وأوضح كلاما .

وروى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن من البيان لسحرا ، وإن من الشعر لحكما » ، قال : البيان إظهار المقصود بأبلغ لفظ ، وهو من الفهم ، وذكاء القلب مع اللسن ، وأصله الكشف والظهور[1] .

وقد تحدث كثير من العلماء عن مفهوم البيان وآلاته ؛ وأنواع الدلالة على المعانى ، وعما يحتاج البيانى إلى تحصيله من أنواع المعرفة وصنوف الثقافة ...

من ذلك قول الجاحظ : « البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى ، وهتك الحجاب دون الضمير ، حتى يفضى السامع إلى حقيقته ، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان ، ومن أى جنس كان الدليل ؛ لأن مدار الأمر والغاية التى إليها يجرى القائل والسامع ، إنما هو الفهم ، والإفهام ، فبأى شيء بلغت الافهام ، وأوضحت عن المعنى ، فذلك هو البيان فى ذلك الموضع »[2] . ومفهوم البيان عند الرمانى ، أنه الإحضار لما يظهر به تميز الشيء من غيره فى الإدراك[3] ، ويجعل عبد القاهر البيان من مقتضيات النظم ، فهو به يكون وعنه يحدث[4] ، وذكروا أن أنواع الدلالة على المعانى والإفصاح عنها من لفظ أو غيره خمسة أمور : اللفظ والإشارة والعقد والخط والحال التى تسمى نصبة .

---

(١) انظر لسان العرب ص ٤٠٦ ، ٤٠٧

(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ٧٥

(٣) انظر النكت ضمن ثلاث رسائل ص ٩٨

(٤) انظر دلائل الإعجاز ص ٢٦٤

فدلالة اللفظ : أن ينطق اللسان مفصحا عما يجول بخاطر الإنسان ومبينا عما يتردد بداخله .

ودلالة العقد : هي دلالة الحساب ، لأن العقد ضرب من الحساب يكون بأصابع اليد ، ويقال له حساب اليد ، فهو نوع من أنواع الإفصاح عن المعاني .

ودلالة الإشارة : تكون باليد والرأس والعين والحاجب والمنكب ، وإذا تباعد الشخصان تكون بالثوب ونحوه ، وإذا صدد الشخص وتوعد تكون بالسيف والسوط ونحوهما .

ودلالة الخط : هي دلالة الكتابة التي تبلغ من بعد أو غاب ، ولذا فهي تفضل دلالة اللفظ المقصورة على الشاهد دون الغائب .

أما دلالة الحال : فهي دلالة التأمل والتدبر والنظر في الكون والاعتبار بما فيه ، فالسموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وغيرها مما خلقه الله في الكون أحوال ودلائل تدل على وجوده تعالى وقدرته وعظيم سلطانه(١) .

وآلات علم البيان وأدواته التي ينبغي على البياني أن يتسلح بها ، لافتقاره واحتياجه إليها ، يحصرها ابن الأثير في الأمور الآتية :

١ — حفظ القرآن الكريم وتفهم معانيه ، والتدرب على استعمال أساليبه وتراكيبه في مطاوي الكلام .

٢ — حفظ ما يحتاج إليه من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وأخباره والسلوك بها مسلك القرآن الكريم في الاستعمال .

---

(١) انظر البيان والتبيين ج ١ ص ٧٦ والبرهان في وجوه البيان ص ٧ ، والنكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل ص ٩٨ .

٣ — معرفة ما يحتاج إليه من اللغة ، والتمييز بين الفصيح المستعمل من مفرداتها وبين الوحشي الغريب والمستكره المعيب .

٤ — معرفة علم العربية من نحو وصرف .

٥ — معرفة أمثال العرب وأيامهم ووقائعهم وعاداتهم .

٦ — الاطلاع على تأليفات من تقدمه من أرباب صناعة البيان .

٧ — معرفة الأحكام السلطانية فى الإمامة والإمارة والقضاء والحسبة ونحو ذلك .

٨ — ما يختص بالناظم دون الناثر ، وذلك علم العروض والقوافى الذى يقام به ميزان الشعر[1] .

ويتضح مما تقدم أن البيان هو التعبير عما يدور فى الذهن وتحس به النفس بأسلوب فنى رائع ، أو هو المميزات البلاغية التى يتفاضل بها الأدباء والشعراء ، ويظهر بها فضل الكلام على الكلام ، وهو بهذا المعنى يشمل علوم البلاغة الثلاثة : المعانى والبيان والبديع .

البيان فى اصطلاح البيانيين :

أما البيان فى اصطلاح البيانيين فهو : العلم الذى يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة عليه ،

وهو بهذا المفهوم الذى حده به علماء البيان يختلف عن علم المعانى الذى يبحث فى بناء الجمل وتنسيق أجزائها تنسيقا يطابق مقتضى حال الكلام . كما يختلف عن علم البديع الذى يبحث فى وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة .

---

(١) انظر المثل السائر ص ٤٠ — ٤٤ .

شرح هذا التعريف :

المراد بالعلم : مجموعة القواعد والضوابط والقوانين التى يعرف بها إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة . كقواعد التشبيه ، وضوابط الاستعارة والمجاز المرسل ، وقوانين الكناية . والمهم هو الملكة التى تتربى لدى الدارس من دراسة هذه الضوابط وتطبيقها على العديد من النصوص ، لا مجرد حفظها والإحاطة بها .

والمراد بالمعنى الواحد : المعنى الذى يعبر عنه المتكلم بكلام تام مطابق لمقتضى الحال كمعنى الشجاعة والكرم والعفة ، فليس من البيان ، الاقتدار على تأدية المعنى المفرد بألفاظ مترادفة نحو : الأسد والليث والغضنفر والسبع والضرغام ، لأن معرفة ذلك يرجع إلى علم اللغة وليس إلى علم البيان والمراد باختلاف الطرق التى يؤدى بها المعنى الواحد فى وضوح الدلالة عليه . أن يكون بعضها واضحاً ، وبعضها أوضح ، وبعضها أشد وضوحا . وليس المراد أن يكون بعضها واضحاً وبعضها خفيا ، لأن الخفاء المشكل الذى لا يفهم معه المعنى المراد معيب عند علماء البيان . إلا إذا أريد بالخفاء ، الدقة فى أداء المعنى ، بعيدا عن اللبس والإشكال ، فلا غبار على إرادة ذلك .

ويرجع التفاوت فى وضوح الدلالة إلى الأمور الآتية :

١ — اختلاف طرق التعبير عن المعنى الواحد ، فمثلا إذا أراد المتكلم أن يصف زيدا بالكرم ، فله أن يسلك طريق الحقيقة فيقول : زيد كريم ، أو طريق التشبيه فيقول : زيد كالبحر عطاء وزيد كالبحر ، وكأنه البحر ، وزيد بحر فى العطاء ، وزيد بحر . ، وللاحظ اختلاف درجة المبالغة باختلاف نوع التشبيه ، كما سيأتى فى مباحث التشبيه ، وله أن يسلك طريق الاستعارة التصريحية ، فيقول : رأيت بحرا يفيض على الناس ، أو المكنية

فيقول : أمطرنا زيد بعطائه . أو يسلك طريق الكناية فيقول : زيد جبان الكلب ، وكثير رماد القدر ، والكرم بين برديه .

٢ — قرب المعنى المجازى أو الكنائى من المعنى الحقيقى وبعده عنه ، فمثال القرب بينهما : استعارة الطيران للعدو نحو : فلان يطير إلى حاجته ، أى : يعدو إليها مسرعا ، والكناية عن الرجل بحمل السلاح وعن المرأة بخضاب البنان كقول المتنبى :

ومن فى كفه منهم قناة كمن فى كفه منهم خضاب

ومثال البعد بينهما : استعارة الانسلاخ لزوال ضوء النهار شيئاً فشيئاً حتى يظهر الليل كما فى قوله تعالى : « وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ »(١) . والكناية عن الكرم بجبن الكلب وهزال الفصيل وكثرة الرماد .

٣ — درجة وضوح القرينة الدالة على المعنى المراد ، فقد تكون بحيث يدركها السامع لأول وهلة . كقولنا : رأيت أسدا يخطب الناس ، وعندئذ يكون التعبير عن المعنى فى غاية الوضوح ، وقد لا يدركها السامع إلا بعد فكر وإطالة نظر كقول الغنوى :

وجعلت كورى فوق ناجية يقتات شحم سنامها الرحل(٢)

وكقول الآخر :

فإن تعافوا العدل والإيمانا فإن فى أيماننا نيرانا

وعندئذ يكون التعبير دقيقاً وأقل وضوحا .

---

(١) سورة يس ٣٧ .

(٢) الكور : رحل البعير والناجية : الناقة السريعة .

أوجه الدلالة البيانية :

والدلالة التى ذكرها البيانيون فى تعريف علم البيان هى دلالة الألفاظ على معانيها ، أما غيرها من أنواع الدلالات غير اللفظية والتى خاض فى دراستها بعض البلاغيين(١) ، فهى لا تفيد الدراسة البلاغية شيئاً ، بل عند التأمل والنظر ، نرى أنها ترجع إلى الدلالة اللفظية - كما سيأتى - ولذا لا ينبغى أن تعد دلالات مستقلة أو مغايرة للدلالة اللفظية .

وللألفاظ فى دلالتها على معانيها ثلاثة أوجه :

١ — دلالة المطابقة : وهى دلالة اللفظ على تمام ماوضع له فى اللغة ، كدلالة لفظ « أسد » على الحيوان المفترس ، ولفظ « إنسان » على الحيوان الناطق ، وسميت دلالة اللفظ على معناه الوضعى : دلالة مطابقة ، لتطابق اللفظ والمعنى بحيث إذا أطلق اللفظ فهم السامع معناه ولا يفتقر العقل فى إدراك المعنى من اللفظ إلى شىء آخر غير الوضع . وهذا الوجه من أوجه الدلالة لا يتأتى فيه التفاوت فى درجة الوضوح ، ولذا لا يلتفت إليه البيانيون التفاتا أصيلا .

٢ — دلالة التضمن : وهى دلالة اللفظ على جزء معناه الوضعى كدلالة لفظ « الدار » على السقف ، فالدار موضوعة للحيطان التى يظلها السقف ، وكدلالة الأصابع على الأنامل ، فالعالم بوضع اللغة يفهم من اللفظ أولا معناه الوضعى ويستتبع ذلك فهم جزء معناه ، وعلى ذلك لا تكون هذه الدلالة وضعية فيتأتى فيها التفاوت فى درجة الوضوح .

---

(١) كالدلالة العقلية مثل دلالة الدخان على النار ودلالة تغير العالم على حدوثه ، وكالدلالة الطبيعية مثل دلالة حمرة الوجه على الخجل وصفرته على الوجل .

٣ - دلالة الالتزام : وهى دلاله اللفظ على معنى خارج عن المعنى الذى وضعه له واضع اللغة ، لازم له فى الذهن ، وهذا اللزوم الذهنى ، قد يكون مبنيا على مجرد النظر العقلى دون تدخل عرف أو اصطلاح ، كدلالة قولنا : العالم متغير ، على حدوث العالم ، فقد ثبت فى حكم العقل التلازم بين تغير العالم وحدوثه ، وقد يكون مبنيا على عرف عام مشهور كدلالة لفظ « أسد » على الشجاعة ، فالذهن يدرك التلازم بين الأسد والشجاعة ، اعتمادا على ما اشتهر فى عرف الناس من التلازم بينهما ... وقد يكون مبنيا على طبيعة مستقرة فى إنسان أو حيوان ، كدلالة حمرة الوجه على الخجل وتقطيبه على الغضب ، وجبن الكلب على الكرم ... أو على عادة مشهورة ، كدلالة : إيقاد النيران فى مكان مرتفع على الكرم ... فمن طبيعة الإنسان أن يحمر وجهه عند الخجل وأن يقطب وجهه عند الغضب ، ومن طبيعة الكلب أن يجبن أمام من اعتاد رؤيته . . ومن عادات العرب إشعال النيران فى الأماكن العالية ليسترشد بها القادم إليهم ...

والبيانيون يعتمدون على دلالتى « التضمين والالتزام » فى تحقيق الغاية المقصودة من علم البيان وهى الاقتدار على إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة عليه ...

هذا ويجب على البيانى أن يراعى بالإضافة إلى وضوح الدلالة على المعنى الذى يريد أداءه ، مطابقته لمقتضى الحال ، فيجمع بذلك بين وظيفتى « علم البيان وعلم المعانى » ، فإذا خاطب السوقى الجاهل بخفى التشبيهات أو غريب الاستعارات أو باللوازم البعيده الدقيقة فى المجازات والكنايات ، فقد بعد عن الجادة ... كما أنه إذا خاطب الأديب المتمكن فى صناعة الكلام ، المتمرس فى ضروب البيان ، بأسلوب الحقيقة المجردة ، أو التشبيهات

القريبة ، أو الاستعارات العامية المبتذلة ، أو الكنايات الواضحة ، فقد حاد عن الطريق السوى ، لأنه بهذا الصنيع يكون قد تغافل عن وظيفة علم المعانى وهى : مراعاة المطابقة لمقتضى الحال .

موقع التشبيه من المباحث البيانية :

لايختلف علماء البيان فى أن التشبيه له من الاعتبارات الدقيقة واللطائف العجيبة والمحاسن العديدة والمقاصد الغفيرة ، مايجعله موضع اهتمام البيانى ... ولكنهم اختلفوا فى موقعه من مباحث علم البيان ، هل يعد من مباحثه الرئيسية ؟ أم أنه مبحث تمهيدى لمباحث الاستعارة ؟ لأن الاستعارة كما نعلم مبنية على التشبيه ..

فبعضهم يرى أنه مبحث تمهيدى لدراسة الاستعارة ، ويحتج بأن كلا من المشبه والمشبه به والأداة ووجه الشبه : مستعمل فى معناه الوضعى ، والمعانى المعبر عنها بألفاظ وضعية ، تكون واضحة الدلالة ، وعلم البيان إنما يبحث فى الدلالات التى تختلف فى درجات الوضوح ، وهى الدلالات غير الوضعية ...

وبعضهم يرى أن التشبيه من مباحث علم البيان الرئيسية ، ومقاصده الأساسية ، ودليلهم أن التشبيه ليس فى درجة واحدة من الوضوح ، بل تتفاوت درجاته ، وتتعدد مراتبه . وتختلف أقسامه ، وتتنوع ضروبه ، فبينما نجد التشبيه الواضح الظاهر الدلالة ، نجد التشبيه الدقيق الخفى ، وعندما نرى التشبيه المفرد نرى الآخر المقيد أو المركب ، وعندما نرى التشبيه الحسى ، أو الصريح نرى العقلى أو الضمنى ، وهذا التفاوت والاختلاف بين التشبيهات ظهورا وخفاء ، ووضوحا ودقة ، يجعله من المباحث الرئيسية لعلم البيان . ونحن نميل إلى هذا الرأى ونراه أولى بالقبول ..

الفصل الأول

« التشبيه »

تعريفه :

هو الدلالة على مشاركة أمر لآخر فى معنى بإحدى أدوات التشبيه . كما نقول : محمد كالأسد شجاعة فالأمر الأول فى هذا المثال هو « محمد » وهو المشبه والأمر الثانى هو « الأسد » وهو المشبه به وأداة التشبيه هنا هى الكاف والمعنى المرتبط بالأمرين المشبه والمشبه به هو الشجاعة وتعرف بوجه الشبه.

وقد عرف بعض البلاغيين التشبيه بأنه هو الدلالة على مشاركة أمر لآخر فى معنى بإحدى أدوات التشبيه لا على وجه الاستعارة التحقيقية ولا المكنية ولا التجريد[1] ... فقيد التعريف بكون الدلالة ليست على وجه الاستعارة التحقيقية ولا المكنية ولا التجريد .. ولا عبرة بهذا القيد لأن الاستعارتين التحقيقية نحو : رأيت بحرا فى المسجد والمكنية نحو : لعبت بنايد الزمان ، مبنيتان على تناسى التشبيه والمبالغة فى تجاهله حتى كأنه لم يكن . فقولنا فى التعريف : « بإحدى أدوات التشبيه » يخرج لهاتين الاستعارتين ويخرج أيضاً نحو قولنا : جاءنى محمد وعلى ، وقاتل زيد عمراً وغير ذلك من الصيغ الدالة على مشاركة أمر لآخر فى معنى ولكن بطريق أخرى وليس عن طريق أدوات التشبيه .

وأما التجريد وهو أن ينتزع من أمر ذى صفة أمر آخر مثله فى تلك

---

(١) انظر الإيضاح ص ٧ ج ٣ والمطول ص ٣١٠

الصفة مبالغة فى كمالها فيه نحو : لى من فلان صديق حميم وقولنا : لئن سألت فلانا لتسألن به البحر . لقيت من زيد أسداً[١] فخروجه من التشبيه ليس على الإطلاق بل إذا لم يكن على وجه ينبىء بالتشبيه خرج منه كما فى المثال الأول. وإذا كان على وجه ينبىء بالتشبيه كما فى المثالين الثانى والثالث فهو داخل فيه ولا يمكن إخراجه منه[٢] . هذا وقد تكون هذه الأمور وهى : المشبه والمشبه به ووجه الشبه والأداة بينة ظاهرة مصرحاً بها أو ببعضها كقولنا : على كحاتم فى الكرم . وليلى كالبدر ضياء وشعرها كالليل سواداً . وكما فى قول الحق جل وعلا : (وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلاَمِ)[٣] وقوله تعالى : (وَحُورٌ عِينٌ . كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ)[٤] . . . وقوله تعالى : (خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ)[٥] وكقول بشار :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وقول امرىء القيس :

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وقد تكون تلك الأمور خفية مستترة ينبىء بها الأسلوب وتفهم من سياق الكلام كما فى بعض صور التجريد التى مرت بنا نحو : لئن لقيت فلانا لتلقين به الأسد . وكما فى التشبيهات الضمنية نحو قولنا : نور الصباح يخفى فى ضوء جبينه ، ونور الشمس مسروق من نور وجهه ، وكقول أبى تمام :

لاتنكرى عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالى

---

(١) انظر الإيضاح ص ٤٤ — ٤

(٢) انظر مفتاح العلوم ص ١٦٨

(٣) سورة الرحمن الآية ٢٤

(٤) سورة الواقعة الآيتين ٢٢ ، ٢٣

(٥) سورة القمر الآية ٧

وقول أبى الطيب :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

وقوله :

لم تلق هذا الوجه شمس نهارنا إلا بوجه ليس فيه حياء

وقول أبى نواس :

إن السحاب لتستحيى إذا نظرت إلى ندالك فقاسته بما فيها

وقول البحترى :

فى طلعة البدر شىء من محاسنها وللقضيب نصيب من تثنيها

إلى غير ذلك من التشبيهات الضمنية التى تكون مستترة فى الأساليب مختفية وراء الجمل والعبارات فتفهم ضمنا من سياق الكلام ولا يصرح فيه بأركان التشبيه ولا تأتى جملته مبنية على هذا الأساس ، وسيتضح لنا هذا فيما يأتى إن شاء الله .

« أركان التشبيه »

وأركان التشبيه خمسة :

١ — المشبه : وهو الأمر الذى يراد إلحاقه بغيره .

٢ المشبه به : وهو الأمر الذى يراد إلحاق غيره به ، ويسمى كل من المشبه والمشبه به بطرفى التشبيه .

٣ — وجه الشبه : وهو المعنى الجامع الذى يشترك فيه الطرفان ويكون فى المشبه به أعرف وأشهر منه فى المشبه ، وغالبا ما يكون فى المشبه به أقوى وأكمل أيضا منه فى المشبه ، وتقول ، غالبا ، لأننا نرى بعض التشبيهات وقد صار بها المشبه أقوى وأكمل فى وجه الشبه من المشبه به فالمدار فى ذلك يرجع إلى الغرض الذى من أجله يساق التشبيه وسيتضح هذا الأمر عند حديثنا عن أغراض التشبيه .

٤ — أداة التشبيه : وهى اللفظ الذى يربط بين الطرفين ويدل على التشبيه .

٥ . الغرض من التشبيه : وهو الهدف أو الفائدة التى من أجلها يسوق المتكلم التشبيه والغاية التى يشدها من وراته .

ما يتحتم ذكره من هذه الأركان وما يجوز حذفه :

والأركان الأربعة الأولى قد تذكر جميعها فى جملة التشبيه نحو قولنا : محمد كالبحر عطاء وكرما وعمرو كالأسد شجاعة ، وقد يذكر بعضها دون بعض . فقد تحذف الأداة نحو : محمد بحر فى العطاء وذلك إذا كان المقام يقتضى المبالغة فى المشابهة ومنه قول الشاعر :

هم البحور عطاء حين تسألهم ... وفى اللقاء إذا لاقى بهم بهم

وقد يحذف الوجه إذا كان مشهورا واضحا نحو : محمد كالأسد وأنت كحاتم وهو مثل أحنف ... وقد تحذف الأداة والوجه معا نحو : أنت أسد. محمد بحر ويعرف هذا بالتشبيه البليغ .

وقد اختلف فيه العلماء فبعضهم يلحقه بالتشبيه ويعده منه وبعضهم يلحقه بالإستعارة ويجعله منها وآخرون يفصلون القول فيجعلون بعضا منه تشبيها والبعض الآخر استعارة على نحو ما سنرى فى الفصل الثانى عند حديثنا عن الاستعارة ... وقد يلحق المشبه بالوجه والأداة فيحذف معهما ويبقى المشبه به فقط ومن ذلك قوله تعالى : « صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ .. »[1] ا .. وقول عمران ابن حطان يذم الحجاج بالجبن :

أسد علي وفى الحروب نعامة فتخاء تنفر من صفير الصافر

فقد حذف فى الآية والبيت المشبه بالإضافة إلى حذف الأداة ووجه الشبه والتقدير : هم صم ... وهو أسد على .

وحذف المشبه هنا فى الآية الكريمة وفى البيت لايخرج الكلام عن دائرة التشبيه للقاعدة المشهورة : أن المقدر كالمذكور .. ولا يقال فى نحو : رأيت أسداً وحدثته .. وشاهدت بحراً فى المسجد إن هذا مبنى على التشبيه ولم يبق منه سوى المشبه به فلم خرج عن دائرة التشبيه وعد استعارة ؟ ولم لم يظل تشبيها كالآية الكريمة والبيت ؟ لأنا نقول: المرجع فى ذلك إلى بناء الجملة وقد بنيت الجملة فى المثالين بناء تقوى فيه التشبيه ويبلغ فى طيه وتجاهله ، أما فى الآية والبيت فقد بنيت الجملة على إرادة المشبه المحذوف وعلى تقديره والمقدر كما قلنا - كالمذكور .. فالمدار إذاً على بناء الجملة .

وأما المشبه ، فيتحتم ذكره ولا يتأتى حذفه بحال من الأحوال لأن فى حذفه تفويتا للغرض المقصود من التشبيه .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨ .

وربما سأل سائل : فماذا عن الركن الخامس من أركان التشبيه ؟ أيجوز حذفه أم يتحتم ذكره ؟ والجواب : ليس هنالك من لفظ للغرض ولكن الغرض من التشبيه إنما هو غاية يهدف المتكلم إلى تحقيقها وإفادتها بعقد هذا التشبيه ، فالغرض إذاً يفاد بأسلوب التشبيه وبجملته التي تبنى من أركانه الأربعة الأخرى ، فإذا أفادت هذه الجملة الغرض كان التعبير جيداً ومحققاً للغرض من التشبيه ، وإذا لم تفده كان التعبير معيباً ومخلاً بالغرض من التشبيه على نحو ما سنرى عند حديثنا عن أغراض التشبيه .

هذا والتشبيه من فوائده أنه يوسع آفاق التعبير أمام المتكلم فيستطيع عن طريق الصورة أن ينقل ما رسم في ذهنه من معان إلى السامع أو القارىء وذا لأنه يجمع بين الإيجاز وحسن البيان والمبالغة في تأكيد المعاني وتقريرها . وسنفصل القول فيما يلي في العناصر التي تسهم في بناء التشبيه وتكوين الصورة وتصوير الخيال ونبدأها بالحديث عن طرفي التشبيه .

مباحث الطرفين

الطرفان وهما المشبه به لهما صفات يتصفان بها أو أحوال يكونان عليها وقد نظر البلاغيون إلى هذه الصفات أو إلى تلك الأحوال ونوعوا التشبيه أو قسموه تبعاً للحال التي يوجد عليها كل من المشبه والمشبه به . نظروا إليهما من جهات مختلفة وحيثيات متعددة وزوايا متنوعة ، فالطرف قد يكون حسياً وقد يكون عقلياً وهذه جهة نظر منها البلاغيون إلى التشبيه ونوعوه أنواعاً والطرف إما أن يكون مفرداً مجرداً أو مقيداً بقيد له أثر في التشبيه أو يكون هيئة مركبة من عدة أمور قد امتزجت وهذه جهة ثانية من خلالها نظر البلاغيون إلى التشبيه فقسموه أقساماً . والمتكلم قد يشبه أمراً واحداً بأمر واحد أو بأمرين أو بأمور عدة وقد يشبه أمرين بأمرين أو أمور بأمور وقد يشبه أمرين أو أموراً عدة بأمر واحد . أو بمعنى آخر الطرف قد يكون

واحدا وقد يتعدد وهذه زاوية أخرى على أساسها قسم البلاغيون التشبيه أقساما وقبل أن نخوض فى هذه الأقسام أو فى تلك الأنواع نريد أن نقف على هذه الأحوال التى يوجد عليها الطرف أو الصفات التى يتصف بها والتى على أساسها كانت هذه الأنواع .

ما معنى حسية الطرف ؟ وما معنى عقليته ؟ :

معنى حسية الطرف أن يكون مدركا هو أو مادته التى يتركب منها بإحدى الحواس الخمس الظاهرة وهى : البصر والسمع والشم والذوق واللمس ، فمثال المدرك بإحدى هذه الحواس: ضوء الشمس فإنه مدرك بحاسة البصر وتغريد الطائر فهو مدرك بالسمع وطعم الفاكهة يدرك بالذوق ورائحة المسك تدرك بالشم ونعومة الحرير تدرك بحاسة اللمس . ونستطيع أن نجعل هذا حسيا حقيقيا لأن الطرف ذاته قد أدركناه وقفنا عليه بإحدى الحواس . ومثال ما أدركت مادته التى يتكون منها بإحدى الحواس : تخيل قصر من ذهب أعمدته من فضة أو تخيل بحر من مسك موجه الذهب أو تخيل أعلام من ياقوت قائمة على أعمدة من زبرجد . فتلك أمور خيالية اخترعها الخيال وألفها من أشياء محسوسة موجودة ، وهذه الهيئات المركبة لا وجود لها فى الواقع ولكن أجزاءها ومادتها التى ركبت منهـــا وهى : الذهب والفضة والمسك والياقوت والزبرجد موجودة ومدركة بالحس . ونستطيع أن نجعل هذا حسيا غير حقيقى أو حسيا خياليا لأن الطرف نفسه غير مدرك بالحواس ولكن الذى وقفنا عليه وأدركناه بإحدى الحواس هو مادته أو أجزاؤه التى ركب منها .

ومعنى عقلية الطرف : ألا يكون هو ولا مادته مدركا بالحواس بأن يكون من المعانى التى يدركها المرء بعقله مثل : العـــلم والحياة والذكاء والمروءة

والكرامة والإباء والنجدة . أو يكون من المعانى التى يحسها بوجدانه نحو الجوع والعطش والشبع والفرح والحزن والطمأنينة والخوف . فلا مدخل للحواس الخمس فى إدراك هذه الأمور وإنما مجال إدراكها هو العقل أو الشعور الوجدانى والحس الباطنى . ويلحق بالطرف العقلى الأمور الوهمية التى لا وجود لها ولا لمادتها فى الخارج ولكنها استقرت فى وهم الإنسان نتيجة أسطورة أو عقيدة موروثة مثل : أنياب الغول ورءوس الشياطين . وفرق بين الطرف العقلى والطرف الوهمى ، فالعقلى له ثبوت وتحقق فى الذهن ولكن لا مدخل للحواس فى إدراكه بأى وجه من الوجوه كما رأينا . أما الوهمى فلا ثبوت ولا تحقق له عقلا ولا حساً لعدم وجوده ولكن لو فرض وقدر وجوده لأدرك بالحواس لأننا عندئذ سنرى الغول ونبصر أنيابه ونشاهد صورة الشيطان وصورة الغول وقد جسدتا فى عالم المرئيات . كما أن هنالك فرق بين الطرف الوهمى والطرف الخيالى ، فالخيالى هيئته التركيبية لا وجود لها ولا تحقق ولكن أجزاء هذه الهيئة ومادتها موجودة ومدركة بالحواس والوهمى لا وجود له ولا لأجزائه حتى تدرك وتشاهد ولكن لو قدر وفرض وجوده وتحققه كان مدركا بالحواس كما قلت .

ما معنى إفراد الطرف وتقييده وتركيبه ؟

وإفراد الطرف معناه : أن يكون شيئا واحدا متميزا بذاته ليس مقيدا بقيد يؤثر فى صورة التشبيه وليس هيئة مركبة من عدة أمور ومثاله الزهر والروض والنجوم والقمر والشجاعة والبحر والوجه .

ومعنى تقييده : أن يرتبط الطرف ويقيد بوصف أو بإضافة أو بحال أو بجار ومجرور تقييدا لا يبلغ حد التركيب شريطة أن يكون لهذا القيد أثر فى تحقيق وجه الشبه ومثاله : الراقم على الماء والمرآة فى كشف الأشل وذلك

بأن يشبه الرجل يجهد نفسه فى عمل لا يثمر بالراقم على الماء وأن تشبه الشمس بالمرآة فى كف الأشل فقد قيد المشبه به بالجار والمجرور وهذا القيد له تأثير فى تحقيق الوجه كما لا يخفى إذ الوجه فى المثال الأول هو التسوية بين الفعل وعدمه فى عدم الفائدة وفى الثانى الهيئة المركبة من الإشراق والاستدارة والتموجات المستمرة . فالقيد إذاً له أثر فى تحقيق وجه الشبه . فإذا قلنا هذه الفتاة الطويلة كالبدر إشراقا وهذا الرجل الأسود كالأسد شجاعة ، فلا يعتد بصفتى الطول والسواد ولا تكونان قيدين فى المشبه لأن وجه الشبه وهو الإشراق والشجاعة لا علاقة له بالصفة المذكورة ولا أثر لهذه الصفة فى تحقيقه .

ومعنى تركيب الطرف : أن يكون هيئة مؤلفة من أمرين أو من عدة أمور قد امتزجت امتزاجا يجعلها فى حكم الشىء الواحد ومثاله : الهيئة المركبة من الغبار المثار فوق رءوس المقاتلين والسيوف اللامعة المتحركة حركة مستمرة وسط هذا الغبار . والهيئة المركبة من ليل مظلم ونجوم تتهاوى وسط هذا الظلام .

ما معنى وحدة الطرف وتعدده؟

ووحدة الطرف : أن يكون أمرا واحدا مثل محمد كالأسد : فقد شبه شىء واحد وهو محمد بشىء واحد وهو الأسد فالطرفان هنا يتصفان بالوحدة .

ومعنى تعدد الطرف : أن يكون أمرين أو عدة أمور ولكن لا يمزج بينها بل يظل كل أمر منها على حدة وإلا لصار طرفاً مركبا .

ومثال التعدد قول امرىء القيس :

كأن قلوب الطـــير رطبا ويابساً
لدى وكرها العناب والحشف البالى

فالمشبه فى البيت وهو قلوب الطير الرطبة وقلوبها اليابسة والمشبه به متعدد أيضا وهو العناب المقابل للقلوب الرطبة والحشف البالى المقابل للقلوب اليابسة ولكن لا امتزاج بين الأمرين المشبهين ولا بين الأمرين المشبه بهما . ومنه أيضا قول أبى الطيب :

بدت قمرا ومالت خوط بان وفاحت عنبرا ورنت غزالا

أى : بدت هذه المرأة بوجه كالقمر ومالت بقوام كغصن البان وفاحت برائحة كرائحة العنبر ونظرت بعين كعين الغزال . فقد شبه أمورا متعددة بأخرى كذلك .

وبعد أن وقفنا على هذه الأحوال للطرفين وأدركنا حقيقة كل حال منها وكيفية اتصاف الطرف بها فلنتقل الآن إلى أقسام التشبيه باعتبار كل حال من تلك الأحوال .

أولا : أقسام التشبيه باعتبار حسية الطرفين أو عقليتهما :

انقسم التشبيه من هذه الجهة إلى أربعة أقسام :

الأول : تشبيه محسوس بمحسوس كقوله تعالى : « وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ . كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ »(١) . وقوله عز وجل : « وَحُورٌ عِينٌ . كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ »(٢) . وقوله : « كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ »(٣) .

فالمشبه فى الآيات الكريمة هو نساء أهل الجنة والمشبه به هو بيض النعام

(١) سورة الصافات الآية ٤٨ ، ٤٩

(٢) سورة الواقعة الآية ٢٢ ، ٢٣

(٣) سورة الرحمن الآية ٥٨

واللؤلؤ المكنون والياقوت والمرجان(١) وكلها من المبصرات فهى مدركة بحاسة البصر . وبتأمل الآيات الكريمة نرى مدى الدقة فى إبراز جمال الحور والإبداع فى تصوير حسنهن . فهن حور وقاصرات الطرف وعين . وحور شديدات سواد العيون وبياضها . وقاصرات الطرف حابساته على أزواجهن . وعين : ضخام الأعين حسانها . وكل هذه الألفاظ كما نرى تبرز معانى الجمال والحسن ثم كان التشبيه مصورا هذا الجمال ومبدعا فى إظهاره ؛ فهن بيض النعام فى اللون الأبيض المشوب بصفرة وذلك أجمل وأحسن ألوان النساء والبيض قد كن وستر فلا يصل إليه غبار . وهن لؤلؤ مكنون . وهن كأنهن ياقوت ومرجان . والنفس شديدة الرغبة فى هذه الأنواع الكريمة وتلك الأحجار النفيسة محبة لها شديدة الحرص عليها وذلك عامل نفسى قوى يحبب هؤلاء النساء ويعلى شأنهن فى نفس المؤمن

ومن ذلك قول أبى طالب الرقى :

وكأن أجرام النجوم لوامعا درر نثرن على بساط أزرق

فقد شبه أديم السماء فى صفاء زرقته وبياض النجوم بدرر منثورة على بساط أزرق وهما من المبصرات . وقول بشار :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

حيث شبه الغبار المثار فوق الرءوس والسيوف تتحرك وسطه مضيئة لامعة بليل مظلم تتساقط كواكبه المشرقة هاوية إلى الأرض وهما مما يدرك بالبصر . ومن ذلك تشبيههم الخد بالورد فى البياض المشوب بالحمرة والقد

---

(١) الياقوت : حجر نفيس كريم تختلف ألوانه وأشهر ألوانه اللون الأحمر والمرجان : صغار الدر وإنما خص بها دون كبار الدر لأن الصفاء فى صغار الدر أشد من الصفاء فى كباره ووجه الشبه هو صفاء اللون وحمرته المشوبة بشدة البياض .

بالرمح فى استقامته والشعر بالليل فى سواده والوجه بالبدر فى إشراقه وضيائه فالطرفان فى كل هذه التشبيهات من المرئيات .

ومن المسموعات : تشبيهنا الصوت الضعيف بالهمس ، وأزيز القدر بصوت الطائرة ، ووقع الأسلحة فى الحرب بالصواعق ، وكتشبيه ذى الرمة أواخر الميس بأصوات الفراريج فى قوله :

كأن أصوات من إيغالهن بنا ... أواخر الميس انقاض الفراريج[1]

تقدير البيت : كأن أصوات أواخر الميس إنقاض الفراريج من إيغالهن بنا ، ففصل بين المضاف والمضاف إليه بقوله من إيغالهن بنا وهو عيب من ناحية التركيب . والذى يعنينا هنا هو تشبيه الصوت المنبعث من احتكاك الرحل بعضه ببعض نتيجة شدة السير واضطراب الرحال بصوت الفراريج وهى صغار الدجاج . فوجه الشبه هو الإشتراك فى هذه النغمة الخاصة . وطرفا التشبيه من المسموعات كما لا يخفى .

ومن المذوقات : تشبيه بعض الفاكهة بالعسل فى الحلاوة ، وتشبيه ريق الحبيب بالخمر فى الطعم الجميل المذاق . ومنه قول امرىء القيس :

كأن المدام وصوب الغمام ... وريح الخزامى ونشر القطر
يسل به برد أنيابها ... إذا غرد الطائر المستحر[2]

---

(١) الإيغال من أوغل فى السير إذا أبعد فيه وأسرع والضمير للابل ، والأواخر جمع آخرة ، وآخرة الرحل هى العود الذى يستند إليه الراكب ، والميس : شجر صلب تتخذ منه الرحال والمراد الرحال نفسها عن طريق المجاز المرسل ، والإنقاض من أنقضت الدجاجة أى : صوتت ، والفراريج : صغار الدجاج جمع فروج .

(٢) المدام : الخمر ، وصوب الغمام : مطره ، والخزامى : بنت زهره من أطيب الزهر ، والقطر : عود يتبخر به ، يسل به : يسقى جرعة بعد جرعة والمستحر : الصوت وقت السحر ، يعنى أنها طيبة الفم فى هذا الوقت الذى تتغير فيه الأفواه بعد النوم =

ومن المشمومات : تشبيه النكهة بالعنبر ووجه الشبه هو الرائحة الطيبة، وتشبيه بعض الأشياء ذات الرائحة الطيبة بالريحان أو الكافور ، وكتشبيه الرائحة الطيبة المنبعثة من فم الحبيبة فى وقت السحر بريح الخزامى ونشر القطر فى البيتين السابقين .

ومن الملموسات : تشبيه الجسم بالحرير كما فى قول الشاعر :

لمسها بشر مثل الحرير ومنطق رخيم الحواشى لا هراء ولا نزر

فالمشبه بشر والمشبه به الحرير ومما من الملموسات ووجه الشبه هو نعومة الملمس .

فطرفا التشبيه فى كل ما مر بنا من شواهد حسيان حقيقيان لأننا قد وقفنا عليهما وأدركناهما بحاسة من الحواس الخمس . هذا وكثيراً ما يلجأ الأديب إلى تأليف واختراع صور خيالية مبدياً براعته الفنية ومظهراً المشبه فى صورة رائعة بديعة طريفة وهذا الطرف الذى يخترعه الأديب ويتخيله يعد حسياً غير حقيقى أو خياليا أو داخلا فى الطرف الحسى كما يذكر بعض البلاغيين(١) لأن مادته أو أجزاء صورته مدركة بالحس موجودة تحت مواقعه وإن كان هو بهيئته التركيبية لا وجود له . ومن ذلك قول الصنوبرى يصف شقائق النعمان :

وكأن محمـــر الشقيق إذا تصوب أو تصعد

أعلام ياقوت نشرن على رماح من زبرجد(٢)

= والمراد تشبيه برد أنيابها بالمدام وما عطف عليه فقلب التشبيه ، والضمير فى « به » يعود للمدام وما بعده ، وخبر كأن : برد ويجوز جعل « برد » نائب فاعل « يعل » وجملة يعل به برد أنيابها هى الخبر والمعنى أنه يظن أن برد أنيابها مزج بالمدام وماعطف عليه وعندئذ يكون التشبيه ضمنياً ...

(١) انظر الإيضاح ج ٣ ص ١٦ .

(٢) الشقيق : نبات أحمر الزهر يسمى شقائق النعمان وقد أفرد لضرورة الشعر =

وقوله يصف النيلوفر وهو نبات له زهر أحمر مشوب بصفرة :

كأنـــا باسط اليد نحـــو نيلوفر ند
كدبابيس عسجد قطبها من زبرجد(١)

وقول الآخر يصف نجم الثريا وقت طلوع الفجر :

إذا الثريا اعترضت عند طلوع الفجر جسيتها لامعة سنيلة من در

فالمشبه فى هذه الأبيات وهو شقائق النعمان ونبات النيلوفر ونجم الثريا من الحسيات الحقيقية لأنها من المرئيات والمشبه به وهو الأعلام المركبة من ياقوت منشور على رماح من زبرجد ، والعصا المكونة أو المصنوعة من زبرجد ورأسها من ذهب ، والسنابل الدرية ، من الأمور الخيالية التى صنعها خيال الشاعر ولا وجود لها فى الواقع ولا تدرك بالحواس الظاهرة ولكن المواد والأجزاء التى صنعت منها هذه الأمور وركبت منها تلك المتخيلات موجودة ومدركة بالحس وواقعة تحت دائرته .

الثانى : تشبيه معقول بمعقول : كتشبيه الجهل بالموت والعلم بالحياة وتشبيه العشق بالموت كما فى قول الشاعر :

العشق كالموت يأتى لا مرد له ما فيه للعاشق المسكين تدبير

ووجة الشبه بين العشق والموت : عدم القدرة على دفعه ورده . ومن ذلك تشبيه السفر بالعذاب وتشبيه الضلال عن الحق بالعمى والاهتداء إلى

= تنصوب أو تصعد : مال إلى أسفل وإلى أعلى فأو بمعنى الواو ، والياقوت حجر نفيس تختلف ألوانه والمراد هنـــا الأحمر . نشرن : رفعن والزبرجد حجر نفيس أشهره الأخضر وهو المراد هنا .

(١) النيلوفر : هو نبات البشنين وهو نبات ذو رائحة طيبة ينبت فى الماء وساقه أملس أخضر فإذا سارى سطح الماء أورق وأزهر وزهره أجمله أحمر مشوب بصفرة .. والدبابيس جمع دبوس وهـــو عصا فى رأسها كالكرة .. والمسجد : مذهب أو جوهر كالدر والياقوت .. وند : رطب .

الحق بالإبصار وكتشبيه الرضا بالخضوع للعدو لعدم القدرة على مقاومته بالرضا بالشيب كما فى قول المتنبي :

رضوا بك كالرضا بالشيب قسرا وقد وخط النواصى والفروعا(١)

فالعلماء فى مثل هذه التشبيهات من المعقولات .

الثالث . تشبيه معقول بمحسوس : كتشبيه أخلاق الكرام بالأرض الواسعة الممتدة وبالعطر ذى الرائحة الطيبة ، وتشبيه المنية بالسبع فالمشبه وهو أخلاق الكرام والمنية من المعقولات والمشبه به وهو الأرض الواسعة والعطر والسبع من المحسوسات .

ومن ذلك تشبيه الرأى بالليل كقول الشاعر :

الرأى كالليل مسود جوانبه والليل لا ينجلى إلا بإصباح

وتشبيه الغيظ بالنار كقول المتنبي :

وغيظ على الأيام كالنار فى الحشا ولكنه غيظ الأسير فى القيد

وتشبيه الصبر على مضض الحسود بالنار تأكل بعضها لعدم إمدادها بما يسبب بقاءها واشتعالها كقول ابن المعتز :

اصبر على مضض الحسود فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

هذا وتشبيه المعقول بالمحسوس قد ورد كثيرا فى كلام البشر كما كثر فى أساليب القرآن الكريم ومن ذلك تصوير أعمال الكفار برماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف . وبسراب يقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم

---

(١) قسرا : قهرا ،، وخط : الوخط . نشو الشيب فى الرأس وقيل هو اختلاط البياض والسواد ،، النواصى الرءوس ،، والفروع : جمع فرع ، وفرع كل شىء أعلاه ،،

يجده شيئا . وتمثيل اعتقادات المنافقين واضطراباتهم وتخبطهم بالذى استوقد نارا فلما أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم . وتمثيل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله بحبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة . وبجنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التى تصور لنا الأمور المعنوية المعقولة بأمور محسوسة مشاهدة فهى كثيرة وليس هنا موطن دراستها وإشباع القول فيها ، ومرجع هذه الكثرة إلى أن الأصل فى باب التشبيه إخراج الأمور المعنوية المعقولة إلى مشاهدة محسوسة وإبراز الأمور الخفية المستترة إلى أمور جلية واضحة .

الرابع : تشبيه محسوس بمعقول : وهذا القسم على خلاف الأصل فى باب التشبيه كما قلنا لأن المشبه به شأنه أن يكون أظهر وأوضح من المشبه فأولى به أن يكون حسيا ولا يكون عقليا إلا بعد أن ينزل منزلة المحسوس ويدعى أنه فاق المحسوس فى الوضوح والظهور من ذلك تشبيه الأرض الواسعة بخلق الكريم كما فى قول ابن بابك :

وأرض كأخلاق الكرام قطعتها
وقد كحل الليل السماك فأبصرا(١)

وتشبيه الظلام بيوم الفراق وبفؤاد من لم يعشق فى قول أبى طالب الرقى :

ولقد ذكرتك والظلام كأنه يوم النوى وفؤاد من لم يعشق

وتشبيه الليل بالأمل المظلم فى قول الشاعر :

رب ليل كأنه أملى فيك وقد رحت عنه بالحرمان

وتشبيه النجوم بين الدجى بالسنن بين الابتداع كقول المتنبى :

---

(١) السماك : الأعزل والرامح وهما نجمان نيران وأبصر : فتح وظهر

وكأن النجوم بين دجاها سنن لاح بينهن ابتداع

وتشبيه نسيم الصباح بفرصة الآيس والسراب بخجلة الوامق فى قول بديع الزمان :

كأن نسيم الصبح فرصة آيس
كأن سراب القيظ خجلة وامق(١)

فالمشبهات فى هذه الأبيات وهى : الأرض والظلام والليل والنجوم المضيئة بين الدجى ونسيم الصباح والسراب . من الأمور المدركة بالحواس. والمشبهات بها وهى. أخلاق الكرام ويوم النوى وفؤاد من لم يعشق والأمل العظيم والسنن بين البدع وفرصة الآيس وخجلة الوامق . من المعقولات التى نزلت منزلة المحسوسات وادعى أنها فاقتها فى الوضوح والظهور فجعلت أخلاق الكرام أشد سعة وأكثر امتدادا من الأرض الواسعة الممتدة . ويوم الفراق وفؤاد من لم يعشق والأمل المؤيس أشد ظلاما من الليل . والبدعة أكثر إشراقا من النجوم والبدعة أشد ظلاما من الليل . وفرصة الآيس أقوى فى إنعاش النفس من نسيم الصباح .

هذا وكما يلجأ الأديب إلى تخيل الأطراف واختراع المركبات الخيالية إظهاراً لبراعته وإبرازاً للمشبه فى صورة طريقة عجيبة . فقد يلجأ إلى استغلال المعانى الوهمية إبرازاً لفظاعة المشبه وتهويلا من شأنه كما نرى فى قول امرىء القيس :

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

فالمشبه به فى البيت وهو أنياب الأغوال من المعانى الوهمية التى لادخل للحس فى إدراكها وقد استغلها الشاعر لتهويل شأن الأسنة ، وإبرازها فى

---

(١) القيظ : شدة الحر ، الوامق المحب من ومقه : أحبه .

صورة مرعبة مفزعة . ومن ذلك قوله عز وجل « طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ »[1] فرءوس الشياطين من المعانى الوهمية وقد أبرزت قبح هذا الطلع وفظاعته ونفرت منه وبعثت فى النفوس كراهته وبغضه وفى الآية نوع من السخرية والتهكم بهؤلاء الكفرة أولياء الشيطان فهم يطعمون من جهنم من شجرة طلعها كأنه رءوس أوليائهم . كما أنه فى جمع الرءوس مزيد من التهويل والتفظيع والتنفير فالطلع ليس رأس شيطان وإنما هو رءوس جميع الشياطين المتمثلين فى الأرض جادين فى الفساد وغرس الشر واقتلاع الخير

والأطراف الوهمية داخلة فى الأطراف العقلية لأنها ليس لها وجود فى الواقع ولكن لو فرض وجودها وقدر لوقعت فى دائرة المحسوسات ولأدركناها بإحدى الحواس الظاهرة .

ثانيا : أقسام التشبيه باعتبار إفراد الطرفين وتقييدهما وتركيبهما :

ينقسم التشبيه باعتبار هذه الحال إلى مايلى :

١ — تشبيه مفرد مجرد بمفرد مجرد : كقوله تعالى : « وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا »[2] ، شبه الليل باللباس ووجه الشبه : الستر فالليل يستر الناس بعضهم عن بعض واللباس يستر صاحبه ، والطرفان كما ترى مفردان غير مقيدين . ومنه قوله تعالى ، « هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ »[3] ، فشبه المرأة باللباس للرجل والرجل باللباس للمرأة ، فالطرفان مفردان مجردان . ووجه الشبه جعله بعضهم حسيا فقال : لما كان الرجل والمرأة يعتنقان ويشتمل كل واحد منهما على صاحبه فى عناقه شبه باللباس المشتمل عليه فالوجه إذا هو الإحاطة والاشتمال . واستدل لهذا بقول النابغة الجعدى :

---

(١) سورة الصافات آية ٦٥ (٢) سورة النبأ آية ١٠
(٢) سورة البقرة آية ١٨٧

إذا ما الضجيع ثنى عطفها تثنت فكانت عليه لباسا

وجعله بعضهم عقليا فقال : المراد تشبيه كل واحد منهما باللباس الآخر لأنه يصونه من الوقوع فى فضيحة الفاحشة كاللباس الساتر للعورة[1] ومن ذلك قوله تعالى : « ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً »[2] ، شبه قلوبهم بالحجارة بجامع القسوة والصلابة وأنه لا ينفذ إليها شيء من الخير والحق .. وطرفا التشبيه مفردان مجردان .. ومن هذا النوع قولنا : وجه كالبدر .. شعر كالليل .. رجل كالأسد .. خد كالورد إلى غير ذلك من التشبيهات التى يكون طرفا التشبيه فيها من المفردات المجردة .

٢ - تشبيه مفرد مقيد بمفرد مقيد . كقولنا : التعليم فى الصغر كالنقش فى الحجر ، فالمشبه هو التعليم مقيدا بكونه فى الصغر ، والمشبه به النقش مقيدا بالجار والمجرور أى بكونه فى الحجر ، ووجه الشبه هو الثبات ودوام الأثر . فطرفا التشبيه مفردان مقيدان . ومن ذلك تشبيهنا من لا يحصل من سعيه على شيء بالقابض على الماء . فالمشبه مقيد بالصفة والمشبه به مقيد بالجار والمجرور والوجه وهو التسوية بين الفعل وعدمه فى عدم الفائدة وخيبة مسعاه لا يتحقق إلا بمراعاة القيدين . وكذا تشبيهنا من يحاول أن يجمع بين أمرين متباعدين أو يطلب محالا بمن يجمع السيفين فى غمد فالطرفان مقيدان ووجه الشبه هو أن كلا منهما يحاول محالا .

ومثله قولهم لمن يخاطر بنفسه فى طلب الأمر اليسير : هو كمبتغى الصيد فى عرينة الأسد ووجه الشبه : طلب الشيء من غير موضعه وقولهم : هو كالحادى وليس له بعير .. يضرب مثلا لمن يتفيخ ويفخر بما لا يملك .. فالطرفان مقيدان ومنه قول ابن الرومى :

---

(١) انظر الكشاف جـ ١ ص ١٧٤ (٢) سورة البقرة الآية ٧٤

إنى وتزيينى بمدحى معشراً كمعلق درا على خنزير

فالمشبه هو المتكلم مقيدا باتصافه بتزيينه بمدحه معشراً والمشبه به من يعلق درا مقيدا بكون تعليقه على خنزير ، فالطرفان مقيدان ووجه الشبه أن كلا منهما يضع الزينة فى موضع لا يظهر لها فيه أثر .

٣ — تشبيه مفرد مجرد بمفرد مقيد : كقوله تعالى : (خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ)(١) فالمشبه هو الخلائق فى هذا اليوم والمشبه به الجراد مقيدا بهذه الصفة أى بكونه منتشراً ووجه الشبه : الكثرة والتدافع وجولان بعضهم فى بعض ومثله قوله تعالى : (يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ . وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ)(٢) فالمشبه مفرد مجرد وهو الناس والجبال ، والمشبه به : الفراش مقيدا بكونه مبثوثا ، والعهن مقيدا بكونه منفوشا .. ووجه الشبه فى الأول : الضعف وزوال التماسك ، وفى الثانى : زوال القوة وتفرق الأجزاء .. ولا يخفى علينا أثر هذا القيد فى تحقيق وجه الشبه .. ومدى دقة التعبير القرآنى بإيثار هذه الألفاظ التى أبرزت وجلت حال الناس فى هذا اليوم .. فالفراش مثل للخفة والخفاقة والتهافت ومن كلام العرب (أطيش من فراشة) .. فإذا ما كان مبثوثا فقد تم ضعفه واكتمل زوال تماسكه .. والعهن هو الصوف المصبغ ألوانا شتى . فإذا ما كان منفوشا فقد تفرقت أجزاؤه وزال كل ما به من قوة وتماسك .. ثم إيثار لفظ العهن دون الصوف ليعم كل الجبال التى هى جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود .. ومن ذلك قولنا : ثغر الحبيب كاللؤلؤ المنظوم .. والرشوة طعام مسموم فى سوء عاقبتها والغيبة لحم ميت تجتمع عليه الكلاب وقول عبد الله بن المعتز :

والشمس كالمرآة فى كف الأشل لما رأيتها بدت فرق الجبل

---

(١) سورة القمر الآية ٧ . (٢) سورة القارعة الآيتان ٤ ، ٥

فالمشبهات فى هذه الأمثلة ، مفردة مجردة وهى ثغر الحبيب والرشوة والغيبة والشمس والمشبهات بها مفردة مقيدة وهى اللؤلؤ المنظوم والطعام المسموم واللحم النتن والمرآة فى كف الأشل .

٤ — تشبيه مفرد مقيد بمفرد مجرد : كقولنا : العين الزرقاء كالسنان فالمشبه : العين مقيدة بكونها زرقاء والمشبه به : السنان وهو مفرد مجرد ووجه الشبه هو الزرقة الصافية .. وكذا قولنا : الأمل بلا عمل كالسراب فالمشبه الأمل مقيدا بكونه بدون عمل والمشبه به ، السراب وهو مفرد مجرد ووجه الشبه ، عدم الوصول إلى شىء .. وكذا تشبيه الحياة فى قيود المذلة بالجحيم .. وتشبيه المرآة فى يد الأشل بالشمس .. ولا يخفى علينا فى كل ما مر من شواهد وأمثلة أن القيد الذى قيد به الطرف له أثر فى تحقيق وجه الشبه .. وهـــذا شرط فى تقييد الطرف . فإذا لم يكن للقيد أثر فلا اعتداد به .

٥ — تشبيه مركب بمركب ، كقول بشار يصف معركة :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

شبه الهيئة المركبة من الغبار المثار والسيوف المتحركة حركات سريعة مضطربة وإلى جهات مختلفة بالهيئة المكونة من الظلام والكواكب تتهاوى وسطه وقد تداخلت واستطالت أشكالها .. فطرفا التشبيه مركبان من عدة أمور قد امتزجت بعضها ببعض وكونت هيئة مركبة ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من سقوط أجرام مشرقة مستطيلة متناسبة المقدار فى جوانب شىء مظلم ، ومنه قول البحترى يصف فرساً :

ترى أحجاله يصعدن فيه صعود البرق فى الغيم الجهام[1]

---

(١) الأحجال جمع حجل وهـــو البياض فى رجل الفرس : الغيم الجهام الذى لا ماء فيه .

فقد شبه الهيئة الحاصلة من ارتفاع لبياض فى قوائم الفرس وانتشاره ومخالطته السواد بالهيئة الحاصلة من انتشار شعاع البرق فى وسط الغيم . . فالطرفان مركبان ، ووجه الشبه : الهيئة الحاصلة من اختلاط البياض بالسواد ومنه قول المتنبي يمدح سيف الدولة :

يهز الجيش حولك جانبيه كما نفضت جناحيها العقاب[1]

فالمشبه الهيئة المركبة من تحرك الجيش واضطرابه واهتزاز جانبيه ميمنة وميسرة حول سيف الدولة ، والمشبه به الهيئة المكونة من صورة العقاب تنفض جناحيها وتحركهما حركات سريعة . . فالطرفان مركبان ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من شيء له جانبان فى حال حركة واضطراب وتموج .

وقول الفرزدق :

والشيب ينهض فى الشباب كأنه ليـل يصيح بجانبيه نهار

فالمشبه : الهيئة الحاصلة من نهوض الشيب فى الشباب وتمكنه منه وسيطرته عليه وكأنه يؤذن بهلاكه ورحيله . . والمشبه به : الهيئة الحاصلة من نهار يصيح بجانبي ليل وقد تمكن النهار وسيطر وصارت له الغلبة فهو الذى يصيح معلنا انتصاره وبروزه وتمكنه من خصمه وقد أحاط بجانبيه معلنا هلاكه وزواله . . فالطرفان مركبان ، ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من انتشار البياض فى السواد . .

وقول أبي طالب الرقى :

وكأن أجرام النجوم لوامعاً درر نثرن على بساط أزرق

---

(١) العقاب : طائر كاسر معروف بالعزة والمنعة حيث يضرب به المثل فى ذلك فيقال : أمنع من عقاب الجو ، وهو خفيف الجناح سريع الطيران .

وقول السرى الرفاء :

وكأن الهلال نون لجين غرقت فى صحيفة زرقاء

فالمشبهان فى البيتين : الهيئة المركبة من النجوم المضيئة اللامعة وقد انتشرت فى أديم السماء . . فى البيت الأول . . ومن الهلال وقد بدا أبيض لامعا مقوسا فى السماء الزرقاء . . فى البيت الثانى ، والمشبهان بهما على الترتيب المذكور : الهيئة الحاصلة من درر نثرت على بساط أزرق . . ومن فضة ظهرت مقوسة مثل حرف النون غارقة فى صحيفة زرقاء . . والوجه : الهيئة المكونة من أشياء لامعة مضيئة منتشرة فى شىء أزرق . ومن شىء أبيض لامع مقوس فى شىء أزرق .

هل يتأتى تحويل التشبيه المركب إلى متعدد ؟ :

عرفنا أن التشبيه المركب هو الذى ركبت أجزاؤه وامتزجت واتحدت وصارت كالشىء الواحد . . وأن المتعدد لا يحدث فيه هذا الامتزاج بل يبقى كل أمر مستقلا عن غيره ومشبها بنظيره فى الطرف الآخر . . وإذا نظرنا إلى التشبيهات المركبة وجدنا أن بعضها لا يمكن فصل أجزائه وجعلها تشبيهات متعددة وأن البعض الآخر يمكن فصل أجزائه وتحويله إلى متعدد ولكن هذا الفصل يمحو جمال الصورة التركيبية ويذهب بغرض الشاعر وما يهدف إليه من بناء التشبيه وتركيبه .

فمن الأول الذى لا يمكن فصل أجزائه قول ابن المعتز :

غدا والصبح تحت الليل باد كطرف أشهب ملقى الجلال(١)

يشبه ظهور الفجر وإضاءته فى بقايا الليل المدبر بفرس أشهب مال عنه

(١) باد : ظاهر ، الطرف الأشهب : الفرس الأبيض ، والجلال : جمع جل وهو غطاء الفرس ولعله كان يتخذ من قماش أسود .

غطاؤه الأسود فبدا بياض الفرس فى سواد الغطاء والوجه : اجتماع سواد قليل فى بياض كثير . . فطرفا التشبيه مركبان ، ولو حاولنا فصل الأجزاء فى الطرفين فربما استقام تشبيه الصبح بالفرس الأبيض ولكن حين نشبه الليل بالجلال لا يستقيم التشبيه لغثاثته وفقدان ثمرته .

وقول التنوخى :

كأنما المريخ والمشترى قدامه فى شامخ الرفعة
منصرف بالليل عن دعوة قد أسرجت قدامه شمعة

يشبه الصورة الحاصلة من وقوع المريخ فى السماء وهو كوكب مضىء شديد اللمعان وقد تقدمه المشترى بالصورة الحاصلة من شخص منصرف فى جنح الليل من دعوة وقد تقدمه تابعه بمصباح يضىء له الطريق . . ووجه الشبه : الصورة المكونة من وجود شىء مضىء يتقدمه شىء آخر مضىء وبينهما مسافة قصيرة . . ولو حاولنا فض أجزاء الصورة فشبهنا المريخ بالمنصرف قلنا ما ليس بقول لأنه لا وجه بين المريخ والشخص المنصرف وربما استقام تشبيه المشترى بالشمعة لوجود وجه بينهما وهو الإضاءة ولكنك ترى هذا التشبيه غثا لا ثمرة له ولا يستسيغه الذوق .

ومن الثانى قول بشار وقد مر بنا :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وقول الرقاء وقد مر بنا أيضاً :

وكأن الهلال فون لجين غرقت فى صحيفة زرقاء

وقول أبى طالب وقد سبق :

وكأن أجرام النجوم لوامعا درر نثون على بساط أزرق

فلو فضضنا أجزاء الصور فى هذه التشبيهات فشبهنا النقع بالليل والسيوف

بالكواكب والهلال بنون اللجين والنجوم بالدرر والسماء بالبساط الأزرق وبالصحيفة الزرقاء اصحت هذه التشبيهات من حيث تحقق وجة الشبه بين الأجزاء . . ولكن يضيع جمال التشبيه الذى أحدثه التركيب ويضيع غرض الشاعر الذى رمى إليه وقصده بهذه الصورة المركبة .

٦ — تشبيه مفرد بمركب : كقول ابن المعتز يصف بالهلال :

انظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر(١)

شبه الهلال وقد امتلأ قوسه المضىء بظلام الليل بزورق من فضة قد أثقل بحمولة من عنبر . . فالمشبه مفرد والمشبه به مركب ووجه الشبه : الهيئة الحاصلة من وجود جسم مضىء متقوس يملأ فراغ تقوسه أشياء سوداء قائمة .

وقول الخنساء تصف أخاها صخراً :

أغر أبلج تأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار(٢)

فالمشبه مفرد وهو صخر والمشبه به مركب وهو الهيئة الحاصلة من الجبل والنار المشتعلة فى قنه . . ومن ذلك تشبيه النيلوفر بدبابيس عسجد قطبها من زبرجد . . وتشبيه شقائق النعمان بأعلام ياقوت منشورة على رماح من زبرجد . . فالمشبه مفرد والمشبه به مركب وقد مر بنا هذان التشبيهان .

٧ — تشبيه مركب بمفرد وهو قليل ومنه قول أبى تمام :

يا صاحبى تقصيا نظريكما تريا وجوه الأرض كيف تصور

تريا نهارا مشمسا قد شابه زهر الربا فكأنما هو مقمر(٣)

---

(١) الضمير فى « إليه » يعود إلى الهلال . (٢) العلم : الجبل .

(٣) تقصيا : اجتهدا فى النظر وابلغا أقصى نظريكما من تقصيته : بالغت أقصاه ، والنهار الشمس الذى لا غيم فيه ، وشابه : خالطه ، والربا : جمع ربوة وهى الأرض المرتفعة .

يشبه الهيئة الحاصلة من الشمس الساطعة على الروابي المزهرة المخضرة وقد اختلطت الأشعة المشرقة بالخضرة القاتمة فانكسرت بهذا الاختلاط حدة الضوء حتى صار يضرب إلى السواد .. يشبه هذه الهيئة المركبة بليل مقمر .. فالمشبه به مفرد مقيد والمشبه مركب .

ثالثاً : أقسام التشبيه باعتبار وحدة الطرفين أو تعددهما :

ينقسم التشبيه باعتبار هذه الحال إلى خمسة أقسام :

الأول : أن يكون المشبه واحداً والمشبه به كذلك كقوله تعالى : (فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ)[1] المشبه : أصحاب الفيل والمشبه به : العصف المأكول وكلاهما واحد فلا تعدد . وكذا قوله تعالى فى وصف هلاك ثمود قوم صالح - عليه السلام - : (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ)[2] فقد شبه القوم بالهشيم وكلاهما واحد لا تعدد فيه . . وانظر إلى دقة التعبير القرآنى فى استخدام الألفاظ وإلى إيحاءات تلك الألفاظ فقد عبر عن هلاك ثمود بأنهم صاروا كالهشيم وهو الشجر اليابس وهذا يكفى فى إفادة هلاكهم ولكنه أضاف إلى المشبه به هذا القيد «المحتظر» أى : الذى يعمل الحظيرة لمواشيه من يابس الشجر فما سقط منها وداسته فهو الهشيم ولذا أفاد هذا القيد حقارتهم وازدراءهم فهم كالهشيم الذى تطؤه الدواب وتبول عليه وتروث ، ثم عبر عن هلاك أصحاب الفيل بأنهم جعلوا كالعصف وهو ورق الزرع وهذا كاف فى إفادة الهلاك ولكنه قيد العصف بهذا الوصف « مأكول » أى : أكلته الدواب وراثت عليه وبالت فهم قد صاروا إلى حال أخرى فى أجسادهم بخلاف الصورة الأولى التى تصور هلاك ثمود فثمود قد تهشموا وبقيت أوصاف أجسامهم كما هى . . التعبير القرآنى

(١) سورة الفيل الآية ٥ (٢) سورة القمر الآية ٣١

قد أبرز هلاك أصحاب الفيل فى صورة أشد وأفظع من هلاك ثمود ويرجع ذلك إلى الحال الذى اقتضى هلاك كل فثمود عقروا الناقة وأعرضوا عن آيات ربهم وأصحاب الفيل قد قصدوا الكعبة وأرادوا هدم البيت واقتلاع أسسه ، أرادوا إزالة أول بيت وضع للناس ولذا كان هلاكهم أشد .

ومن هذا القسم قولنا : خد كالورد . . فتاة كالبدر . . محمد كالأسد . . الأمير كحاتم فى الكرم . . فهذه التشبيهات لا تعدد فى طرفيها حيث شبه فى كل منها شىء واحد بشىء واحد .

الثانى : أن يشبه شىء واحد بشيئين أو بأكثر أو بمعنى آخر أن يتعدد المشبه به دون المشبه ويسميه البلاغيون تشبيه الجمع لأنه قد جمع للمشبه الواحد عدم أشياء جعل كل واحد منها مشبها به . . ومن ذلك قول عمران ابن حطان :

أسد على وفى الحروب نعامة فتخاء تنفر من صفير الصافر

فقد شبه مخاطبه بالأسد ثم بالنعامة فالمشبه واحد والمشبه به متعدد وقول البحترى :

كأنما يبسم عن لؤلؤ منضد أو برد أو أقاح[1]

يريد أنه يبسم عن ثغر كلؤلؤ منظوم وكحبات الثلج الخالص البياض وكزهر الأقحوان فى شدة بياضه . . فالمشبه واحد والمشبه به متعدد ، وقول امرىء القيس :

كأن المدام وصوب الغمام وريح الخزامى ونشر القطر
يعل به برد أنيابها إذا غرد الطائر المستجر

---

(١) المنضد : المنظم ، والبرد : حب الغمام ، والأقاح : جمع أقحوان وهو ورد له نور أوراقه فى شكلها أشبه شىء بالأسنان .

التشبيه فى البيتين من التشبيهات المقلوبة وقد يكون ضمنيا كما مر بنا . والمهم هنا أنه شبه برد أنياب حبيبته بالمدام وصوب الغمام وريح الخزامى ونشر القطر فى حسن المذاق والصفاء وطيب الرائحة ، فالمشبه واحد والمشبه به متعدد .

وقول الآخر يصف سيره ليلا متخلصا للهجاء :

قطعت دياجيـــه بنوم مشرد كعقل سليمان بن فهد ودينه

فالمشبه واحد وهو النوم المشرد والمشبه به متعدد وهو : عقل سليمان ودينه .

الثالث : أن يشبه شيئان أو أكثر بشىء واحد بمعنى أن يتعدد المشبه دون المشبه به ويسميه البلاغيون : تشبيه التسوية لأنه قد سوى بين عدة مشبهات فى مشبه به واحد .

كقول القائل :

آراؤكم ووجوهكم وسيوفكم فى الحادثات إذا دجون نجوم

فالمشبه متعدد وهو الآراء والوجوه والسيوف والمشبه به واحد وهو النجوم .

وقول الآخر :

صُدْغُ الحبيب وحالى كلاهما كالليالى

وثغره فى صفاء وأدمعى كاللآلى(١)

---

(١) الصدغ : ما بين الأذن والعين ويطلق على الشعر المتدلى من الرأس على هذا الموضع وهو المراد هنا ، والثغر : الفم أو مقدم الأسنان والثانى هو المراد هنا ، وتشبيه أدمعه باللآلىء يدل على كثرتها وغزارتها لأنه إذا كثر ماء المنبع صفا عما فيه من الكدر .

فقد شبه هذا المحب صدغ حبيبه وحاله وقد تعثر فى حبه بالليالى بجامع السواد فالمشبه متعدد والمشبه به واحد ثم شبه فى البيت الثانى ثغر الحبيب ودموع المحب باللآلىء الصافية ووجه الشبه : الصفاء فالمشبه متعدد أيضا والمشبه به واحد .

الرابع : أن يتعدد كل من المشبه والمشبه به ويقرن كل مشبه بالمشبه به فى الذكر ويسمى بالمفروق لأنه قد فرق بين المشبهات والأمور المشبهة بها ويسمى أيضا بغير الملفوف لأن المشبهات قد فرق بينها فلم تلف وكذلك الأمور المشبهة بها قد فرق بينها بالمشبهات فليست ملفوفة . ومن ذلك قول المرقش الأكبر :

النشر مسك والوجوه دنا نير وأطراف الأكف عنم[1]

فقد تعددت التشبيهات فى البيت وقرن كل مشبه بالمشبه به .

وقول الآخر :

فالأرض يا قوتة والجو لؤلؤة والنبت فيروزج والماء بلّور[2]

وقول أبى طالب :

بدت قمرا ومالت خوط بان وفاحت عنبرا ورنت غزالا[3]

فالتشبيهات فى البيتين متعددة وقد قرن كل مشبه بالمشبه به .

الخامس : أن يتعدد كل من المشبه والمشبه به وتكون المشبهات مجتمعة فى طرف والأمور المشبهة بها فى طرف آخر ويسمى بالملفوف أو المقرون

---

(١) النشر : الرائحة الطيبة ؛ والعنم : شجر له ثمر حمراء يشبه بها البنان المخضوب .
(٢) الفيروزج : ضرب من الأصباغ ، والبلور : حجر صاف .
(٣) الخوط : الغصن الناعم ، والبان : شجر معتدل القوام لين ، ورنت : نظرت .

لأن المشبهات قد اقترنت ولفت فى طرف وكذلك الأمور المشبهة بها . ومن ذلك قول امرىء القيس :

كأن قلوب الطير رطبا ويابساً
لدى وكرها العُنّابُ والحشف البالى

فالمشبه فى البيت متعدد وهو قلوب الطير الرطبة وقلوبها اليابسة والمشبه به كذلك وهو العناب المقابل للقلوب الرطبة والحشف البالى المقابل للقلوب اليابسة . وقد اجتمعت المشبهات فى طرف والمشبهات بها وجدت فى الطرف الآخر .

وقول الآخر :

ليل وبدر وغصن شعر ووجه وقد
خمر ودر وورد ريق وثغر وخد

فقد جمع فى البيت الأول ثلاثة تشبيهات وكذلك فى البيت الثانى ووجدت المشبهات فى طرف والأمور المشبهة بها فى الطرف الآخر فهو من التشبيه المتعدد الملفوف .

الفرق بين التشبيه المتعدد والتشبيه المركب

إذا تأملنا ما مر بنا من شواهد للتشبيهات المركبة والتشبيهات المتعددة وجدنا أن هناك اختلافا بينهما مرجعه إلى أن التشبيهات المركبة تختلط فيها الأمور أو الصفات التي يتكون منها الطرف وتمتزج وتتحد بحيث تصير هيئة مركبة لا يتأتى فيها الفصل بين أجزائها أما التشبيهات المتعددة فلا اتحاد بينها ولا امتزاج بل كل تشبيه منها يمكن أن يستقل بنفسه. ففي البيت :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا
لدى وكرها العنّاب والحشف البالي

يمكن أن يستقل تشبيه قلوب الطير الرطبة بالعناب دون أن يؤثر هذا الاستقلال في تشبيه القلوب اليابسة بالحشف البالي. ولا يتأتى ذلك في التشبيهات المركبة. وكذلك التشبيهات المتعددة يتأتى فيها التقديم والتأخير وتغيير موطن كل منها بنقله إلى مكان غيره دون أن يؤثر ذلك في دلالة كل تشبيه.

ففي بيت المرقش الأكبر :

النشر مسك والوجوه دنا نير وأطراف الأكف عنم

يتأتى أن تقول : الوجوه دنا نير والنشر مسك وأطراف الأكف عنم، وليس لهذا التغيير تأثير في دلالة التشبيهات. ولا يتأتى ذلك في التشبيهات المركبة لأنها بنيت على الاتحاد والامتزاج كما قلنا.

وبهذا يتضح لنا أن التشبيهات المتعددة تختلف عن التشبيه المركب من ثلاثة وجوه :

أولها : أن التشبيهات المتعددة لا يجب فيها ترتيب بل يتأتى فيها التقديم والتأخير دون أن يؤثر ذلك في دلالة التشبيه وهذا لا يتأتى في التشبيه المركب لبنائه على الامتزاج والاتحاد.

الثاني : أن التشبيهات المتعددة يجوز حذف بعضها دون أن يؤثر هذا الحذف على ما تبقى من تشبيهات ولا يتأتى هذا فى التشبيه المركب .

الثالث : أن التشبيهات المتعددة يعطف بعضها على بعض عطف المستقل على المستقل . أما التشبيه المركب فإنه فى الغالب يذكر فيه أحد أجزائه على وجه التبع للآخر كأن يكون فى صلته أو صفته أو حالا منه أو معطوفا عليه بالفاء أو ثم فإذا توسطته الواو كانت للمعية أو للحال أو عاطفة متضمنة المعية .

وهذا لا يعنى أن التشبيهات المتعددة ليس لها من قيمة فنية بل لها قيمتها الفنية ومزيتها التى ترجع إلى مافيها من إيجاز فى التعبير وحسن التنسيق والجمع بين التشبيهات المتجانسة فى تعبير واحد . ولكنها لا تصل إلى مرتبة التشبيهات المركبة التى تبرز سعة الخيال وقوة التصوير وإحكام البناء .

مباحث وجه الشبه

وجه الشبه هو المعنى الذى يشترك فيه طرفا التشبيه تحقيقاً أو تخييلا . فمعنى اشتراك الطرفين فى الوجه تحقيقاً أن يكون وجوده فى كل منهما على جهة التحقيق مثل تشبيه الشعر بالليل والرجل الشجاع بالأسد ، فوجه الشبه وهو السواد فى التشبيه الأول والشجاعة فى الثانى موجود فى كل من المشبه والمشبه به على جهة التحقيق . إلا أن وجود السواد فى الليل أقوى وأشهر من وجوده فى الشعر . وكذا الشجاعة وجودها فى الأسد أعرف وأقوى من وجودها فى الرجل الشجاع . فالوجه محقق فى الطرفين وموجود فى كل منهما وإنما يقع الفرق بين وصف كل منهما به من جهة الزيادة والنقصان والقوة والضعف . فغالباً ما يكون وجه الشبه فى المشبه به أبرز وأعرف وأقوى ، وقد يتساويا

فى اتصافهما به . وقد يكون الوجه أقوى وأكمل فى المشبه وأبرز وأشهر فى المشبه به . كما سنرى عند حديثنا عن أغراض التشبيه .

وأما وجه الشبه التخييلى فهو الذى يكون وجوده فى أحد الطرفين على جهة الحقيقة وفى الآخر على جهة التخييل والتأويل . . كما فى قول القاضى التنوخى :

وكأن النجوم بين دجاها سنن لاح بينهن ابتداع(١)

فقد شبه انتشار النجوم فى السماء وقد تخللتها قطع من سواد الليل بالسنن الواضحة وقد اندست بينها البدع ، ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من وجود أشياء مشرقة مضيئة فى جوانب شىء مظلم وهو مركب حسى ، وهذا الوجه موجود على جهة التحقيق فى المشبه . ولا يوجد فى المشبه به إلا عن طريق التخييل لأن السنن والبدع من المعقولات التى لاتتصف بصفة المحسوسات . والتخييل الذى نقصده أن نتأمل أجزاء الصورة فى الطرفين حتى نصل إلى إمكان الجمع بينهما فى الوجه المذكور وذلك بأن نقول : هناك وجه شبه بين أجزاء الطرفين خلاف ما هو لون أى : خلاف الإشراق والسواد فالسنة تشبه بالنجم بجامع الاهتداء بكل منهما والبدعة تشبه بالليل بجامع الإضلال وهذا الوجه الآخر جعل جزأى الصورة قد تماثرا وتآخيا عند النفس . ثم إن البدعة والكفر وكل ما هو جهل قد ذاع بين الناس واشتهر وصفه بالظلام والسواد وكذلك السنة والإيمان وكل ما هو علم قد اشتهر وصفه بالإشراق والبياض قال تعالى : (يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)(٢) ، وقال عليه

---

(١) الدجى : الظلام مفرده : دجية وهى الظلمة . ويجوز أن نجعل فى أحد الشطرين قلب ليتوافق الطرفان فى تحقيق الهيئة والمعنى بعد القلب وكأن الدجى بين النجوم أو سنن لاحت بين ابتداع .

(٢) سورة البقرة آية ٢٥٧ .

الصلاة والسلام : « أتيتكم بالحنيفية البيضاء » ، ويقال : شاهدت سواد الكفر في جبين فلان ، ونور الإيمان يشرق في وجه فلان .

فلما اشتهر ذلك وذاع وكثر توهمت النفس وتخيلت أن في البدعة ما في الليل من ظلام وسواد وأن في السنة ما في النجم من إشراق وبياض وصح لديها أن تشبه السنن أنضمت بينها البدع بالنجوم يتخللها الظلام بجامع الهيئة الحاصلة من وجود أشياء مشرقة مضيئة في جوانب شيء مظلم أسود كما استقام لديها إذا أرادت المغالبة أن تقلب التشبيه فتشبه النجوم بين الدجى بالسنن بين البدع بادعاء أن الوجه المذكور أقوى في السنن بين البدع منه في النجوم بين الدجى . وبهذا التخييل صار ما ليس بمتلون وهو السنة والبدعة متلونا وصارت السنة بيضاء مشرقة والبدعة سوداء مظلمة .

ومن ذلك قول التنوخي أيضاً .

فنهض بنار إلى خصم كأنهما في العين ظلم وإنصاف قد اجتمعا

فشبه الهيئة المكونة من صورة النار المشتعلة في الفحم بالصورة المكونة من الظلم يصاحب الإنصاف في مرأى العين بجامع الصورة الحاصلة من وجود شيء مشرق بجوار شيء مظلم .

وذلك بناء على ما اشتهر من وصف الظلم بالسواد في مثل قوله عليه الصلاة والسلام : « الظلم ظلمات ... » ووصف الإنصاف والعدل بالنور والإشراق في نحو قولهم : عدل واضح كنور الصبح ، فوجه الشبه موجود في المشبه على جهة التحقيق وملاحظ في المشبه به على طريق التخييل وجعل ما ليس بمتلون متلونا .

ولنا أن نجعل وجه الشبه في البيتين تحقيقيا وهو زيادة حسن الشيء لمجاورة ضده . ويكون هدف الشاعر أن يبرز الدلالة على زيادة حسن السنة في أعين

الناس بمجاورتها البدعة القبيحة ، وعلى زيادة حسن الإنصاف بمجاورته الظلم ثم قلب التشبيه فشبه المحسوس بالمعقول مبالغة وادعاه فالتشبيه قد خرج عن الأصل من هذه الجهة لأن الأصل أن يشبه المعقول بالمحسوس كما فى قول البحترى :

وقد زادها إفراط حسن جوارها
خلائق أصفار من المجد خيب
وحسن دراري الكواكب أن ترى
طوالع فى داج من الليل غيهب(١)

فقد شبه المعقول وهو الهيئة الحاصلة من وجود خلائق لها بجد بجوار خلائق خالية منه بالمحسوس وهو الهيئة الحاصلة من وجود دراري الكواكب فى ليل غيهب بجامع زيادة حسن الشيء لمجاورة ضده .

ومن التشبيه التخييلى قول أبى طالب الرقى :

ولقد ذكرتك والظلام كأنه يوم النوى وفؤاد من لم يعشق

فقد شبه الظلام بيوم النوى وبفؤاد من لم يعشق بجامع السواد فى كل فالوجه موجود فى المشبه على طريق التحقيق وفى المشبهين بهما على طريق التخييل بناء على ماذاع واشتهر من قولهم : أسود النهار فى عينيه وأظلمت الدنيا أمامه وقلبه أسود كالليل . فقد اشتهر وصف يوم الفراق بالسواد ووصف الذين لم يعشقوا بقسوة القلوب ووصف القلب القاسى بالسواد ولذا صح التشبيه واستقام على طريق التخييل وجعل ما ليس بمتلون وهو يوم النوى وفؤاد من لم يعشق متلونا مسودا ثم أكد الشاعر هذا التخييل بجعل

---

(١) أصفار : جمع صفر والمعنى : خالية ، ودراري : جمع درى وهو الكوكب الثاقب المضيء كالدر ، والداجى : المظلم ، والغيهب : شداد السواد .

السواد فى كليهما أشد وأقوى منه فى ظلام الليل وذلك بقلب التشبيه وجعل الظلام الذى سواده محسوس محقق مشبهاً ويوم النوى وفؤاد من لم يعشق اللذين سوادهما متخيل مشبهين بهما .

ومن ذلك قول ابن بابك :

وأرض كأخلاق الكرام قطعتها ... وقد كحل الليل السماك أبصرا

شبه الأرض بأخلاق الكرام بجامع السعة والانبساط فوجه الشبه موجود فى المشبه على طريق التحقيق وفى المشبه به على طريق التخييل وجعل ماليس موصوفا بالسعة متصفاً بها بناء على ما اشتهر من وصفهم اخلاق الكريم بالسعة فى قولهم : فلان رحب الأخلاق واسع الحلم فسيح المعرفة . ثم بالغ الشاعر فى تخيله فقلب التشبيه مدعيا أن أخلاق الكرام أحق بوصف السعة والانبساط من الأرض المبسوطة الممتدة .

ومنه قول الصاحب بن عباد مخاطباً أحد القضاة وقد أهدى الصاحب إليه عطراً وأرفقه بهذين البيتين :

يا أيها القاضى الذى نفسى له ... مع قرب عهد لقائه مشتاقة
أهديت عطراً مثل طيب ثنائه ... فكأنما أهدى له أخلاقه

فقد شبه العطر بالثناء وبالأخلاق بجامع استطابة النفس فى كل وذلك على طريق التخييل وجعل ماليس بمشموم وهو الثناء والأخلاق مشموما وذا رائحة طيبة زكية ثم بالغ فى التخييل والتوهم فجعل رائحتهما أطيب من رائحة العطر وذلك بقلب التشبيه ليؤكد تخيله .

وقول ابن طباطبا :

كأن انتضاء البدر من تحت غيمه ... نجاء من البأساء بعد وقوع[1]

(١) الانتضاء : الانكشاف ، نجاء : خلاص ، البأساء : الشدة .

يشبه خروج البدر المنير من تحت السحاب المعتم بخلوص الإنسان من الشدة بعد الوقوع فيها ووجه الشبه هو الانكشاف وزوال الظلام عن الشيء المشرق حتى يبرز ويتضح. وهذا الوجه محقق فى المشبه ومتخيل فى المشبه به بناء على ما شاع بين الناس من تشبيه الشدائد والمكاره بظلام الليل لمكابدة الإنسان منها ما يكابده السارى فى الظلام ؛ ومن تشبيه التخلص منها بالخروج من ظلام الليل إلى ضوء النهار . ولذا استقام التشبيه فى البيت على طريق التخييل وجعل ما ليس بمتلون متلونا ثم بالغ الشاعر فى تخيله فجعل ما فى الشدائد من سواد وما فى الخلاص منها من بياض أشد وأقوى من ضياء البدر وظلام السحاب وذلك بقلب التشبيه وتصوير المحسوس بالمعقول .

وبهذا يتضح لنا أن وجه الشبه لابد أن يكون مشتركا بين الطرفين موجودا وملاحظا فى كل منهما إما عند طريق التحقيق وإما عن طريق التخييل والتأول . فإذا لم يكن موجودا وملاحظا فى كلا الطرفين كان التشبيه فاسداً ومعيباً : فإن جعلنا وجه الشبه فى قولنا : النحو فى الكلام كالملح فى الطعام ؛ أن كثرة الاستعمال مفسدة وقلتها مصلحة فسد التشبيه لأن الوجه عندئذ يكون محققاً فى المشبه به ولا يتأتى تحقيقه فى المشبه إذ النحو لا يحتمل القلة والكثرة فالمراد رعاية قواعده واستعمال أحكامه من رفع الفاعل ونصب المفعول وجر المجرور فإن تحققت هذه الأحكام صلح الكلام وإلا فسد . أما استعمال الملح فى الطعام فكثيره مفسد وقليله مصلح . ولذا كان الوجه الجامع الموجود فى كلا الطرفين أن الاستعمال مصلح والإهمال مفسد بغض النظر عن القلة والكثرة . وبناء على ذلك عيب التشبيه فى قول ابن شرف :

غيرى جنى وأنَ المعاقب فيكم فكأننى سباية المتندم

لأن وجه الشبه وهو معاقبة البرىء وترك الجانى محقق فى المشبه دون المشبه به إذ السباية جزء من المتندم فعندما يعض عليها عند ندمه تقع العقوبة عليه لأن سبابته جزء منه وعندئذ لا يكون المعاقب غير الجانى . والصواب فى مثل هذا التشبيه قول النابغة يعتذر للنعمان بن المنذر :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وهل يأثمن ذو إمة وهو طائع
لحلفتني ذنب امرىء وتركته ... كذى العر يكوى غيره وهو راتع(١)

فقد شبه نفسه وقد أخذه النعمان بذنب لم يفعله وترك معاقبة الجانى بحال البعير الأجرب إذا أريد شفاؤه يقوم صاحبه بكى بعير سليم خال من الجرب كى يشفى البعير المصاب الأجرب وذلك بناء على قاعـــدة سائدة بين العرب فى الجاهلية .

فوجه الشبه وهو معاقبة البرىء وترك الجانى موجود فى كل من المشبه والمشبه به على وجه التحقيق ولذا كان تعبير النابغة جيدا وتشبيهه صوابا محققا وكان تعبير ابن شرف القيروانى رديئا وتشبيهه معيبا فاسداً .

أحوال وجه الشبه

أحوال وجه الشبه التى تعرض له أو صفاته التى يتصف بها والتى هى محط أنظار البلاغيين تنحصر فيما يلى :

١ — ما يتصف به وجه الشبه من حسية أو عقلية فالحسية . كالنعومة فى تشبيه الجسم بالحرير والإشراق فى تشبيه الوجه بالبدر والرائحة فى تشبيه الرائحة الطيبة بالمسك أو بالعنبر إلى غير ذلك من الصفات الحسية التى يدركها المرء بحاسة من الحواس الخمس الظاهرة . والعقلية كالشجاعة فى تشبيه الرجـــل بالأسد والكرم فى تشبيه رجل بحاتم والذكاء فى تشبيه الذكى بإياس والحلم فى تشبيه الرجل الحليم بأحنف وعدم القدرة على الحركة فى تشبيه المرض الشديد بالموت إلى غير ذلك من الصفات المدركة بالعقل أو الوجدان .

٢ — ما يتصف به وجه الشبه من إفراد أو تركيب أو تعدد . فالوجه المفرد يكون شيئا واحداً لا تركيب فيه ولا تعدد كالحمرة فى تشبيه الخد بالورد

(١) الريبة : الشك ، والإمة : الذنب أو النعمة أسديت إليه ، والعر : الجرب ، وراتع : اسم فاعل من رتع بالمكان إذا أقام فيه وأكل وشرب .

والجرأة فى تشبيه الرجل الجرىء بالأسد . والوجه المركب ما تألف من عدة أمور امتزجت واتحدت وكونت هيئة واحدة وذلك كالهيئة المكونة من سقوط أجرام بيض مستطيلة فى جوانب شىء مظلم إذا شبهنا السيوف تتحرك وسط الغبار فى المعركة بليل تهاوى كواكبه فهذا الوجه مركب حسى . وكالهيئة العقلية المكونة من حرمان الانتفاع بأبلغ نافع مع تحمل التعب فى استصحابه كما فى قوله تعالى : (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا)(١).

والوجه المتعدد : ما كان مكونا من شيئين أو عدة أشياء كل واحد منها مستقل بنفسه صالح لأن يكون وجه شبه على حدة . كالسعة والامتداد والطول والمذوبة فى تشبيه نور بآخر ، وكقوة الإيمان ومحبة الرسول صلى الله عليه وسلم والتفانى فى نصرته إذا شبهنا المهاجرين بالأنصار .

ويلاحظ فى الوجه المفرد والمركب والمتعدد أنه قد يكون حسياً وقد يكون عقلياً كما هو واضح فى الأمثلة .

٣ — ما يكون عليه وجه الشبه من ذكر كقوله تعالى : (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً)(٢) فوجه الشبه وهو القسوة فى تشبيه القلوب بالحجارة مذكور فى النظم الكريم . ومن ذلك قولنا : وجهه كاليدر ضياء . أو حذف كقوله تعالى : « هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ »(٣) فوجه الشبه وهو الإحاطة والاشتمال أو الصيانة والستر محذوف فى النظم الكريم . ومن ذلك قولنا : هذا الرجل كالأسد ، فالوجه محذوف تقديره : شجاعة .

---

(١) سورة الجمعة الآية ٥

(٢) سورة البقرة الآية ٧٤ ،

(٣) سورة البقرة الآية ١٨٧

٤ — ما يكون عليه وجه الشبه من ظهور ووضوح أو دقة تحوج إلى التأمل والتفكير فمن الأول : تشبيه الوجه بالبدر فى الإشراق والشعر بالليل فى السواد والخد بالورد فى الحمرة والرجل بالأسد فى الجرأة وغير ذلك من التشبيهات القريبة الواضحة . ومن الثانى تشبيه المرآة فى كف الأشل بالشمس فى الاستدارة والإشراق والحركة المضطربة . وتشبيه البرق بصحف الفارىء فى حركتى الانفتاح والانطباق حيث ينشأ عن الأولى ظهور وبروز وعن الثانية اختفاء وزوال . إلى غير ذلك من التشبيهات التى يكون الوجه فيها دقيقا بعيدا يحتاج فى الوقوف عليه وتجليته إلى كثير من التفكير والتأمل .

وقد نظر البلاغيون إلى هذه الصفات التى يتصف بها وجه الشبه والحال التى يوجد عليها وقسموا التشبيه بالنظر إلى كل حال منها إلى أقسام سنقف عليها إن شاء الله فيما يلى وسنقرن كل قسم من تلك الأقسام بالشواهد الحالة الموضحة وذلك حتى تتضح القاعدة من خلال الشاهد والله المستعان .

أقسام وجه الشبه

ينقسم وجه الشبه باعتبار حسيته وعقليته وإفراده وتركيبه وتعدده إلى سبعة أقسام :

أولها : أن يكون وجه الشبه واحداً حسياً كقوله تعالى : (وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ)[1] شبهت السفن الجارية فى البحر بالجبال ووجه الشبه : الضخامة . . فوجه الشبه واحد حسى . وكذلك طرفا التشبيه حسيان مفردان .

ومن ذلك الحمرة فى تشبيه الخد بالورد ، والإشراق فى تشبيه الوجه بالبدر ولين الملمس فى تشبيه البشرة بالحرير ولذة الطعم فى تشبيه الريق بالخمر وطيب الرائحة فى تشبيه النكهة بالعنبر . فوجه الشبه فى هذه الأمثلة - كما ترى - مفرد حسى . . وكذلك طرفا التشبيه .

مما ينتزع وجه الشبه الواحد الحسى ؟ :

ووجه الشبه المفرد الحسى لا ينتزع إلا من طرفين مفردين . كما فى الأمثلة المشار إليها ، وذلك لأن تركيب الطرفين يستدعى تركيب وجه الشبه . . فيتحتم أن يكون طرفاه مفردين ، وكذلك الغالب[2] فى هذا الوجه أن يكون طرفاه حسيين . كما فى الأمثلة ولا ينتزع من طرف عقلى إلا بتأويل وتخييل كما فى قول بن بابك :

---

(١) سورة الرحمن الآية ٢٤

(٢) أوجب بعض البلاغيين انتزاع هذا الوجه من طرفين حسيين ضرورة امتناع أن يدرك بالحس من غير الحسى شىء انظر الإيضاح حـ ٣ ص ٢٣ . وقد أوضحنا أن هذا الإدراك جائز عن طريق التخييل والتأويل .

وأرض كأخلاق الكرام قطعتها وقد كحل الليل السماك فأبصرا

فالمشبه فى البيت مفرد حسى وهو الأرض . . والمشبه به : مفرد عقلى وهو أخلاق الكرام . وقد جمع بينهما الشاعر فى ، وجه شبه حسى وهو : السعة أو الامتداد والانبساط ولكن هذا الوجه موجود فى المشبه الحسى على جهة التحقيق وموجود فى المشبه به العقلى على طريق التخييل والتأويل كما مر بنا . . وبهذا يتضح لك أن وجه الشبه المفرد الحسى ينتزع فى الغالب من طرفين حسيين وقد ينتزع من طرف عقلى على جهة التأويل والتخييل . ويتحتم أن يكون انتزاعه من طرفين مفردين .

القسم الثانى : أن يكون وجه الشبه واحداً عقليا . . وينتزع هذا الوجه من طرفين حسيين مفردين . كما فى قول النبى صلى الله عليه وسلم : « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » . فقد انتزع وجه الشبه وهو مطلق الاهتداء من طرفين مفردين حسيين وهما الصحابة رضى الله عنهم والنجوم ، ومن ذلك انتزاع الشجاعة من الرجل الشجاع والأسد فى قولنا : هذا الرجل كالأسد . . والوجه فى المثالين وهو : الاهتداء والشجاعة واحد عقلى . كما ينتزع من طرفين مفردين عقليين نحو قولنا : العلم كالحياة فوجه الشبه وهو جهة الإدراك مفرد عقلى وقد انتزع من طرفين مفردين عقليين . وكذا قولنا الجهل كالموت فى فقدان الإدراك ففقدان الإدراك مفرد عقلى وقد انتزع من مفردين عقليين ، وينتزع هذا الوجه أيضا من طرفين مفردين مختلفين كانتزاع الاغتيال من المنية والسبع عند تشبيهنا المنية بالأسد فالمشبه وهو المنية عقلى والمشبه به : الأسد حسى وقد انتزع منهما وجه الشبه المفرد العقلى وهو الاغتيال . وكذا تشبيه العدل بالقسطاس فى تحصيل ما بين الزيادة والنقصان ، فالمشبه مفرد عقلى « العدل » والمشبه به مفرد حسى « القسطاس » وقد انتزع منهما وجه الشبه المذكور وهو واحد عقلى . . وكانتزاع استطابة النفس من تشبيه المطر بالسخاء وبالخلق الكريم فى قول الصاحب :

أهديت عطراً مثل طيب ثنائه فكأنما أهـــدى له أخلاقه

فالمشبه مفرد حسى وهو العطر والمشبه به مفرد عقلي وهو الثناء بالأخلاق الكريمة . وقد انتزع منهما الوجه المفرد العقلي وهو استطابة النفس . . وبهذا يتبين لنا أن التشبيه بالوجه المفرد العقلي لا ينتزع إلا من الأطراف المفردة سبب المذكور في الوجه الواحد الحسى ، وهو لا ينتزع من الأطراف الخمسة وحدها ولا من الأطراف العقلية وحدها بل بضمها جميعاً . ولذا يقال إن التشبيه بالوجه العقلي أعم من التشبيه بالوجه الحسى لأن الوجه الحسى - كما بينا - ينتزع من الأطراف الحسية غالبا ولا ينتزع من الطرف العقلي إلا بتخييل وتأول .

القسم الثالث : أن يكون وجه الشبه مركبا حسيا ، والغالب في هذا الوجه أن ينتزع من طرفين حسيين ولا يمكن انتزاعه من الأطراف العقلية إلا بتخييل وتأول - كما مر في وجه الشبه الواحد الحسى - ومن ذلك قول التنوخي :

وكأن النجوم بين دجاها سنن لاح بينهن ابتداع

فوجه الشبه وهو الهيئة الحاصلة من وجود أشياء مشرقة مضيئة في جوانب شيء مظلم . مركب حسى وقد وجد في المشبه على وجه التحقيق وفي المشبه به من طريق التخييل والتأول .

ويتأتى انتزاع هذا الوجه من طرفين مفردين . كما في قول ذي الرمة :

وسقط كمين الديك عاورت صاحبي
أباها وهيأنا لموقعهـــا وكرا(١)

---

(١) السقط : النار الساقطة من الزند وهي تنزل منه ووسطها أسود وحافتها حمراء كمين الديك ، وعاورت : ناوبت وكان من عادتهم عند استخراج النار أن يأتوا بعودين يوضع أحدهما أسفل ويسمى أنثى فيعرض فيه فرضاً ويحز فيه عود آخر يسمى

فوجه الشبه وهو الهيئة المؤلفة من اجتماع الحمرة والشكل الكروى وصغر الحجم مركب حسى وقد انتزع من طرفين مفردين هما : السقط « وهو ذاك الشرر المنبعث من الزند » وعين الديك . ولا تنافى بين إفراد الطرفين وبين تركيب وجه الشبه لأننا نستطيع أن نلاحظ فى الطرفين المفردين عدة أوصاف مشتركة بينهما ومجتمعة على هيئة معينة بحيث تحقق وجه الشبه المركب .

ومن ذلك قول أبى قيس بن الأسلت :

وقد لاح فى الصبح الثريا - كما ترى -

كعنقود ملاحيـــة حين نـــورا[1]

فوجه الشبه وهو الهيئة الحاصلة من تجمع أجسام بيض مستديرة صغيرة الحجم - فى مرأى العين وإن كانت كبيرة فى الواقع - مجتمعة على كيفية مخصوصة وهى أنها ليست تامة الالتصاق ولا تامة الافتراق هذا الوجه مركب حسى وقد انتزع من طرفين مفردين مقيدين وهما : نجم الثريا مقيدا بكونه قد لاح فى الصباح وعنقود العنب مقيداً بكونه عنقود ملاحية فى حال إخراج النور والتقييد لا ينافى الإفراد كما مر بنا .

ومن طرفين مركبين كما فى قول بشار :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا

وأسيافنا ليـــل تهاوى كواكبه

= أبا فإذا طال الزمن ولم تخرج النار تناوبوه حتى تخرج ... والوكر : ماتودع فيه النار بعد خروجها ..

(١) الملاحية : عنب أبيض فى حبه طول .. ونور أى : تفتح نوره وأدرك نضجه والكاف فى قوله : « كما ترى » بمعنى على أى : على نحو ماترى أما كاف التشبيه فهى التى فى قوله : كعنقود ملاحية ...

فوجه الشبه وهو الهيئة الحاصلة من تهاوى أجرام مشرقة مستطيلة متناسبة المقدار متحركة فى جوانب شىء مظلم مركب حسى وقد انتزع من طرفين مركبين حسيين ، ومنه قول أبى طالب :

وكأن أجرام النجوم لوامعا درر نثرن على بساط أزرق

فوجه الشبه وهو الهيئة الحاصلة من تفرق أجسام متلألئة صغيرة المقدار مستديرة الشكل على سطح جسم أزرق اللون صافى الزرقة ، مركب حسى وقد انتزع من طرفين مركبين حسيين . .

ومن طرفين مختلفين فى الإفراد والتركيب كتشبيه محر الشقيق بأعلام ياقوت نشرن على رماح من زبرجد ... فوجه الشبه وهو الهيئة الحاصلة من اجتماع أشياء حمراء متحركة منصوبة على قائم أخضر ، مركب حسى وقد انتزع من طرفين مختلفين المشبه مفرد وهو محر الشقيق والمشبه به من المركبات الخيالية وهو الهيئة المكونة من أعلام ياقوت نشرت على رماح من زبرجد ، ومنه تشبيه النيلوفر بدابيس عسجد قطبها من زبرجد فالوجه وهو الهيئة الحاصلة من اجتماع شىء أحمر كروى منصوب على قائم أخضر مركب حسى وقد انتزع من مشبه مفرد ومشبه به مركب خيالى . .

ومن ذلك تشبيه ضوء النهار المشمس خالط نبات الأرض فقلت حدة ضوئه بالليل المقمر فوجه الشبه وهو الهيئة الحاصلة من اجتماع أشعة ضوئية منيرة اختلطت بأجسام خضراء وحمراء فانكسرت حدة ضوئها ... مركب حسى انتزع من مشبه مركب ومشبه به مفرد مقيـــد . . . وقد مرت بنا هذه التشبيهات .

بديع المركب الحسى :

تتفاوت التشبيهات التى يكون وجه الشبه فيها مركبا حسيا ، فى الحسن فبعضها يكون حسنا وبعضها أحسن وبعضها يبلغ حـــدا كبيرا فى الحسن

والجمال ... ويرجع هذا التفاوت إلى مقدرة الأديب ونظرته الثاقبة فى الهيئات والحركات التى يتكون منها وجه الشبه وإلى مقدار ما يبذله من جهد فكرى فى استقصاء صفات الطرفين واستخلاص ما يلائم منها لعقد المشابهة ومراعاة الملاءمة التامة بين اللون واللون والشكل والشكل والحجم والحجم والحركة والحركة ... فمن يستطيع أن يبرز فى وجه الشبه صفات عدة تجمع بين اللون والشكل والمقدار والحجم أو يضيف إلى الشكل واللون حركة معينة أو ينوع فى الحركة تنويعا يضفى عليها جمالا وروعة ... من يستطيع أن يصنع ذلك من الأدباء يكون تشبيهه أبدع وأحسن ونظرته أقوى وأثقب من الآخر الذى لا يستطيع أن يلمح من صفات الطرفين إلا اللون والشكل ولا يقدر على أن ينوع ويبدع ويبرز ما فى الطرفين من هيئات وحركات متعددة ومتلائمة ...

وسنعرض فيما يلى نماذج متعددة لما أبدع فيه الشعراء من هذه التشبيهات ...

أولا : ما كان وجه الشبه فيه مكونا من هيئة الحركة الموجودة فى الطرفين منضما إليها بعض الصفات الأخرى المشتركة بينهما كاللون والشكل والمقدار فمن ذلك قول ابن المعتز :

والشمس كالمرآة فى كف الأشل لما بدت طالعة فوق الجبل

جمع الشاعر فى وجه الشبه بين الحركة السريعة وما ينشأ عنها من تموج الضوء واضطرابه وبين الإشراق والاستدارة وذلك أنه نظر إلى الشمس عند طلوعها وإلى المرآة فى يد الأشل فرأى فيهما إشراقا واستدارة وحركة سريعة متصلة تتراءى لعين الناظر إلى كل منهما وهذه الحركة قد أحدثت تموجا فى الضوء واضطرابا فبينما تراه منبسطا على سطح كل منهما ويكاد يفيض من جوانبهما إذا به ينقبض ويتجمع فى وسطهما .. فالشاعر قد استطاع أن

يلائم ملاءمة تامة بين ما فى الطرفين من لون وشكل وحركة مضطربة متموجة وأن يركب من ذلك وجه الشبه فهو الهيئة الحاصلة من الإشراق والاستدارة والحركة السريعة وما ينشأ عنها من تموج الضوء واضطرابه .. ولو اقتصرنا فى بناء وجه الشبه على الإشراق والاستدارة وقدرنا تجرده من هذه الحركة ما بلغ من الدقة والحسن هذا المبلغ ..

ومن ذلك قول المهلبى الوزير يصف الشمس أيضا عند طلوعها :

والشمس من مشرقها قد بدت ... مشرقة ليس لها حاجب
كأنها بوتقة أحميت ... يحول فيها ذهب ذاهب(١)

فقد جمع الشاعر أيضا فى وجه الشبه بين اللون والاستدارة والحركة وما تحدثه فى اللون من تموج واضطراب فإن البوتقة إذا أحميت وذاب فيها الذهب تشكل بشكلها فى الاستدارة وأخذ يتحرك فيها بجملته تلك الحركة العجيبة كأنه يهم بأن ينبسط حتى يفيض من جوانبها لما فى خواصه من النعومة ثم يعود فيهبط إلى داخل البوتقة لما بين أجزائه من شدة التلاحم والاتصال فهو لا يقع فيه غليان على الصفة التى تكون فى الماء ونحوه مما يتخلله الهواء ولذلك يتجمع لمعان الذهب فى مركز دائرته ، كما تجمع الضوء فى مركز المرآة المستديرة فى تشبيه ابن المعتز . ولولا مراعاة هذه الحركة فى تركيب وجه الشبه لما بدا التشبيه بهذه الصورة الرائعة وقول الصنوبرى يصف غديرا فى حديقة :

كأن فى غدرانها ... حواجبا غلت نمط(٢)

فقد جمع فى وجه الشبه بين الحركة المتصلة وبين الشكل المتقوس الذى تحوله تلك الحركة إلى حالة قريبة من الاستواء وذلك أنه نظر إلى ماء

---

(١) البوتقة : وعاء صغير يذيب فيه الصائغ الذهب والفضة
(٢) الغدران : الأنهار جمع غدير ، ونمط ، بُسُط

الغدير وقد حركته الريح فاحدثت فيه أشكالا تبدو كأنصاف الدوائر ثم تتباعد أطرافها ويقل انحناؤها حتى تقارب الاستواء . . والتمس الشاعر لهذا شبها فوجده فى حواجب العين إذا ما حركها أصحابها وسطوها شيئا فشيئا حتى يتمحى تقوسها ولذا أضاف إلى الحواجب ما يحقق هذه الحركة وهو قوله : ظالت تمط حتى يتم الشبه وبهذا الصنيع أخرج التشبيه عن دائرة الابتذال وأدخله فى دائرة الغريب البديع وصار وجه الشبه مركبا من الأشكال المتقوسة والحركة المتوالية فهو الهيئة الحاصلة من توالى أقواس متحركة بحركة متصلة تقلل من انحنائها حتى تقترب من الاستواء . . فلولا مراعاة هذه الحركة فى بناء وجه الشبه لكان التشبيه قريبا مبتذلا ولما بدا بتلك الروعة وبهذه الصورة البديعة

ثانيا : ما كان وجه الشبه مكونا فيـــه من هيئة الحركات الموجودة فى الطرفين دون نظر إلى ما عداها من سائر الصفات . من ذلك قول ابن المعتز فى وصف البرق :

وكأن البرق مصحف قارئ(١) فانطباقا مرة وانفتاحا

فقد شبه حركة البرق عندما ينشق عنه السحاب فيظهر ثم يختفى بحركة المصحف يوالى صاحبه فتحه وإغلاقه . . . فوجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من توالى حركتين فى اتجاهين مختلفين ينشأ عن إحداهما ظهور وانفتاح وعن الأخرى خفاء وانطباق . . . ولم يعتد الشاعر بما فى الطرفين من صفات أخرى كلون البرق حين ينشق عنه السحاب ولون المصحف حين يفتحه القارىء لأن شيئا من ذلك لا يتعلق به غرضه الذى هو وصف البرق بتتابع الحركة وتواليها دون قصد إلى ما يصاحب هذه الحركة من بريق ولمعان . . .

وقول الأعشى يصف السفينة فى البحر تتقاذفها الأمواج :

---

(١) قار : مخفف قارىء نقلت همزته إليه ثم أعل إعلال قاض .

تقص السفين بجانبيه كما ينزو الرباح خلاله كرع[1]

شبه حركة السفينة فى البحر والموج يعلو بها ويسفل ويميلها من جانب إلى جانب فى حركة سريعة مضطربة بحيث لا تكاد تلحظها صاعدة حتى تراها نازلة ولا تراها فى اتجاه حتى تراها فى اتجاه غيره . بحركة الفصيل استواء الماء المتجمع من بقايا المطر فأخذ يثب فيه وينزو عدنا حركات متفاوتة مضطربة وإلى جهات مختلفة على غير نظام ولا ترتيب . ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من تجمع حركات سريعة مضطربة وإلى جهات مختلفة على غير نظام . ولم ينظر الأعشى فى تشبيهه إلى شىء من صفات الطرفين سوى هذه الحركات .

وقول أحمد بن سليمان بن وهب يصف روضة :

حفت بسرو كالقيان تلحفت خضر الحرير على قوام معتدل
فكأنها والريح جاء يميلها تبغى التعانق ثم يمنعها الخجل[2]

شبه فى البيت الأول شجر السرو فى اعتداله وطول قامته وخضرة أوراقه بالجوارى الحسان ذوات القوام المعتدل وقد تلحفن بالحرير الأخضر ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من وجود أجسام منتصبة معتدلة القامة تحيط بها أشياء ذات لون أخضر . وهذا خارج عما نحن فيه لأن الهيئة المركبة خالية من الحركة .

أما فى البيت الثانى فقد شبه حركة شجر السرو والريح يميل فروعها بعضها

---

(١) تقص : تثب ، والسفين اسم جنس واحده سفينة ، والكرع ، ماء الماء ، والرباح : الفصيل .

(٢) القيان : الجوارى جمع قينة وهى الجارية وهن يشبهن بالسرو فى اعتدال القد وقد يشبه السرو بهن فى ذلك فيكون من التشبيه المقلوب وتلحفت : اتخذت لحافا ، والخجل : الحياء .

إلى بعض ثم ترتد إلى أصل وضعها بحركة عاشقين تقدما فى حذر يخيفان المعانقة ثم يفاجآن بأعين الرقباء فيرتدان إلى حيث كانا فى سرعة الخائفين المنزعجين . ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من تحرك جسمين حركتين متغايرتين إلى جهتين مختلفتين تحدث إحداهما تقارب الجسمين وتحدث الأخرى سرعة افتراقهما . وهى هيئة منتزعة من الحركة مجردة عن كل وصف آخر من صفات الطرفين . وقد لاحظ الشاعر أن الحركة الثانية فى المشبه أسرع من الحركة الأولى لأن حركة الشجرة المعتدلة فى حال رجوعها أسرع لا محالة من حركتها فى حال خروجها عن مكانها بتأثير الرياح ، فحقق ذلك فى المشبه به بقوله ثم يمنعها الخجل لأن الحركة المسببة عن الخجل أسرع من الأخرى إذ إزعاج الخوف أقوى أبدا من إزعاج الرجاء . ومما يلاحظ أيضا أن الشاعر لم يصرح بالمشبه به فلم يقل كأن شجر السرو عاشق يبغى التعانق بل طواه طيا فى نظم الكلام حتى خيل إلينا أن الشجر نفسه هو الذى أراد أن يتعانق ثم رده الخجل . وهذا كله مما زاد التشبيه حسنا وإبداعا وأضفى عليه رونقا وبهاء .

وقول امرىء القيس يصف جواده :

مكر مفر مقبل مدبر معاً

كجلمود صخر حطه السيل من عل(١)

شبه الجواد فى حركته السريعة ولين قياده وسرعة انحرافه حيث يرى فى لحظة واحدة يكر ويفر ويقبل ويدبر فبينما نرى كفله إذا بنا فى نفس الوقت نرى صدره بجانبيه . شبهه بجلمود الصخر دفع به السيل من أعلى الجبل فوقع الجلمود تحت تأثير قوتين قوة الجاذبية الأرضية وقوة دفع السيل له ولذا فهو يتحرك حركات سريعة متواصلة بحيث نرى جوانبه كلها بنظرة واحدة وفى

(١) المكر : سريع الكر ، والفر : سريع الفر ، والجلمود : الحجر الصلد ، ومن عل : من فوق .

آن واحد .. ووجه الشبه هو حركة الشيء إلى جهات متعددة فى سرعة فائقة تكاد ترينا جوانبه كلها فى وقت واحد بنظرة واحدة .

ثالثاً : ما كان وجه الشبه فيه مأخوذا من هيئة السكون الحاصلة فى الطرفين أو مكونا من اجتماع الألوان المجردة عن الحركة فيهما .

من ذلك قول المتنبي يصف إقعاء كلب الصيد :

يقعى جلوس البدوى المصطلى بأربع مجدولة لم تجدل(١)

شبه هيئة الكلب فى إقعائه بهيئة البدوى المستدفىء بالنار فإنه يجلس على إليتيه رافعاً ركبتيه مادا يديه إلى المدفأة .. ووجه الشبه هو الهيئة المركبة الحاصلة من وقوع الأعضاء المختلفة فى مواقعها الخاصة .. وهذا الوجه منتزع من عدة أوضاع فى الطرفين ساكنة لا حركة فيها .

ومن ذلك تصوير الشعراء هيئة المصلوب ووقوع كل عضو من أعضائه فى موقع خاص وقد خيم السكون عليها فامتدت هذه الهيئة وطالت بلا حركة تغير من صورتها . وقد اختلفت الصور التى أبرز الشعراء فيها هذه الهيئة .. فمنها قول الأخيطل الأهوازى :

كأنه عاشق قد مد صفحته يوم الوداع إلى توديع مرتحل
أو قائم من نعاس فيه لوثته مواصل لتمطيه من الكسل(٢)

شبه المصلوب فى البيت الأول وهو قائم فى الجذع وقد مالت عنقه إلى جانب كتفه وفى وجهه صفرة الموت بعاشق تجمدت حواسه فى موقف الوداع

---

(١) يقعى : يجلس على إليتيه ورجليه ناصبا ذراعيه .. والمصطلى : المستدفىء المجدولة : المحكمة الخلق .. ولم تجدل : لم تجمع فهى مفرقة فى أوضاعها الخاصة ومواقعها المبينة .

(٢) الصفحة : باطن الكف .. واللوثة : استرخاء العضلات .. والنعاس : النوم .

وقد مالت عنقه وفى وجهه صفرة العشق . ووجه الشبه هو هيئة السكون الحاصلة من القامة المنتصبة ، والأذرع الممتدة والأعناق المائلة والوجوه المصفرة وقد طالت هذه الهيئة بلا حركة تغير من أوضاعها . . وفى البيت الثانى شبه بقائم من نعاس لم ينشط بعد من لوثة النوم واسترخاء المفاصل فأخذ يتمطى عادا ذراعيه إلى جانبيه وعنقه إلى جهة صدره ، وقد واصل تمطيه من شدة كسله فاستمرت هذه الهيئة . فوجه الشبه هو هيئة السكون الحاصلة من القامة المنتصبة والأعناق المائلة والأذرع الممتدة مدا متواصلا .

ومنها قول دعبل الخزاعى :

لم أر صفا مثل صف الزط ... تسعين منهم مصلبوا فى خط
من كل عال جذعه بالشط ... كأنه فى جذعه المشتط
أخو نعاس جد فى التمطى ... قد غامر النوم ولم يفط(١)

فقد شبه هيئة المصلوب بهيئة المتمطى حين غامره النوم ثم بالغ فى تمطيه فوصفه بالجد ليدل على طول بقائه على هذه الهيئة الساكنة .

ومنها قول ابن الرومى :

كأن له فى الجو حبلا يبوعه ... إذا ما انقضى حبل أتيح له حبل(٢)

شبه المصلوب بصورة من يقيس الحبال بذراعيه فهو يمدهما إلى جانبى كتفيه ما دام يبوع أى : يقيس بالباع . وقد حقق الشاعر فى المشبه به هيئة

---

(١) الزط : طائفة من الهند خرجوا على المعتصم ويعرفون بالنور أو بالفجر فشردهم المعتصم وصلب منهم هذا العدد فى خط مؤلف من أشجار عالية الجذوع . . والمشتط : الخارج فى طوله عن الحد . . وغامر : خالطه النوم . . ولم يفط : لم يفتر ويتردد نفسه صاعدا إلى حلقه حتى يسمعه من حوله .

(٢) يبوعه : يقيسه بالباع . . وأتيح : هيىء له .

السكون الدائم التى رآها فى المشبه . وذلك بقوله : إذا ما انقضى حبل أتيح له حبل فالذى يبوع لا يحرك يديه ليمرر الحبل بينهما بل الحبل يتاح ويمر بين يديه فاليدان فى حالة مد دائم بلا حركة .. ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من القامة المنتصبة والأذرع الممتدة مدا متواصلا .

مرازنة بين هذه التشبيهات :

بتأمل هذه التشبيهات نجد اختلافا دقيقا بين إبراز كل صورة منها لهيئة المصلوب وأعضائه الساكنة سكونا متواصلا . فالأخيطل فى بيته الأول قد حقق الصفرة التى رآها فى وجه المصلوب ، وهى صفرة الموت بأن جعله كالعاشق الذى اصفر وجهه من أثر العشق وحقق أيضا دوام السكون بأن جعل مد الصفحة فى يوم وداع ورحيل فهو قد سكن وتحجر فى مكانه لرحيل عشيقه عنه . ولكن فاته إتمام أعضاء الهيئة فالمصلوب مدت يداه والعاشق قد مد يدا واحدة . وفى بيته الثانى حقق هيئة المصلوب فى القائم من النعاس بأن جعله متمطيا ماذا ذراعيه ثم حقق دوام السكون بجعله التمطى متواصلا وبذكر سبب المواصلة وهو اللوثة والكسل . ولكن فاته تحقيق صفرة الموت الموجودة فى المصلوب .

ودعبل فى تشبيهه قد حقق هيئة المصلوب فى هيئة الداخل فى النوم المشرف عليه بأن جعله متمطيا . ولكنه أخطأ فى تحقيق دوام السكون لأعضاء المتمطى إذ لم يجعله مواصلا لتمطيه بل جعله مبالغا فيه وجد فى التمطى ، والمبالغة فى فعل الشىء لا تقتضى استدامته لأن الذى يبالغ فى الفعل لا يستطيع مواصلته . ثم لم يذكر سبب جده فى التمطى كما ذكر الأخيطل سبب مواصلته وقد فات دعبل ما فات الأخيطل من تحقيق صفرة الموت الموجودة فى المصلوب فى هيئة المشبه به . وابن الرومى فى تشبيهه قد حقق هيئة المصلوب فى هيئة من يبوع الحبال وحقق أيضا دوام سكون الأعضاء واستقرارها على هيئتها بقوله : إذا ما انقضى حبل أتيح له حبل وذكر كذلك السبب فى إطالة

مد الذراعين وهو بوع الحبال الكثيرة فهى حبال فى الجو كثيرة وكلما انقضى حبل أتيح له آخر ... ولكن فاته مافات الأخيطل فى بيته الثانى ومافات دعبل من تحقيق صفرة الموت فى الوجوه والموجودة فى وجه المصلوب فلم يحققها فى المشبه به وفاته شىء آخر وهو إتمام أعضاء الهيئة فقد مد الذراعين ولكنه لم يمل العنق وقد تحققت هذه الإمالة فى العاشق الذى مد صفحته وفى المتمطى الذى واصل تمطيه والذى جد فيه .. فالعاشق مالت عنقه إلى جانب كتفه والمتمطى قد مد عنقه إلى جهة صدره .. ولا نرى هذه الإمالة فيمن يبوع الحبال ...

ومن التشبيهات التى جاء وجه الشبه فيها مكونا من اختلاط الألوان المجردة من الحركة قول ابن المعتز يصف زهر النرجس :

كأن عيون النرجس الغض حولنا مداهن در حشوهن عقيق(١)

فقد شبه زهر النرجس بمداهن در حشوهن عقيق ووجه الشبه : الهيئة المكونة من بياض قد التف حول سواد أو حمرة .

وقوله يصف الثريا وسط الظلام :

وأوى الثريا فى السماء كأنها قدم تبدت من ثياب حداد(٢)

شبه الثريا فى السماء وسط ظلام الليل بقدم بدت من ثياب سود ووجه الشبه: الهيئة المكونة من بياض ظهر فى وسط سواد. وقول أبى طالب الرقى:

وكأن أجرام النجوم لوامعا درر نثرن على بساط أزرق

---

(١) النرجس : نوع من الزهر أبيض اللون وفى وسطه نكته يخالف لونها لون بقية الزهرة وتكون غالبا سوداء ويشبه النرجس بالعيون كما فى البيت ولشبه العيون أيضا بالنرجس لذلك .. والمداهن : علبة يوضع بها الدهن .. والعقيق : أحمر اللون ...

(٢) ثياب الحداد : ثياب تلبسها المرأة حزنا على زوجها وتكون غالبا سوداء ..

فوجه الشبه فى البيت هو الهيئة المكونة من أجرام بيضاء مضيئة صغيرة نثرت على صفحة شيء أزرق صافى الزرقة . . .

وقد يحرك الشاعر أحد اللونين كقول بشار :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وقول البحترى يصف فرسا :

ترى أحجاله يصعدن فيه صعود البرق فى الغيم الجهام

والتشبيه فى هذه الأبيات قد أوضحناه فيما سبق . . .

القسم الرابع : أن يكون وجه الشبه مركبا عقليا كقوله تعالى : (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا)(١) شبهت حال اليهود الذين حملوا التوراة وحفظوها فى صدورهم ثم لم يعملوا بما فيها ولم يفهموا حقيقة مرماها بحال الحمار يحمل كتب العلم النافعة ويتعب فى حملها وهو جاهل بحقيقة مافيها . . .

ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من حرمان الانتفاع بالبتة نافع مع تحمل التعب فى استصحابه . . . وهو مركب عقلى انتزع من عدة أمور روعيت فى الطرفين فقد روعى . . . حمل أشياء . . . وهذه الأشياء ينتفع بها أكمل نفع . . . والحامل لها يتحمل التعب والمشقة فى استصحابها ولا يجنى من وراء تعبه فائدة . .

ومن ذلك قوله تعالى : (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ . . .)(٢)

---

(١) سورة الجمعة آية ٥ (٢) سورة النور آية ٣٩

شبهت حال الكفرة فى جمعهم بين الكفر وأعمال البر التى يعملونها فى الدنيا ويحسبونها نافعة ومقبولة عند الله ثم يرونها خاسرة محبطة يوم القيامة لأنها لم تقترن بالإيمان الذى هو شرط قبولها ... بحال الظمآن يرى السراب من بعيد فيحسبه ماء سيروى ظمأه فإذا بلغه لم يجد شيئا .. ووجه الشبه هو الهيئة العقلية الحاصلة من المنظر المطمع مع الخبر المؤيس ... وقد انتزع هذا الوجه من عدة أمور روعيت فى طرفى التشبيه وهى : حال الكافرين وقد عملوا أعمال بر لم تقترن بالإيمان فلم تنفعهم فى الآخرة لفقدان شرط قبولها ولذا فهم يؤخذون بأشد العذاب . . وحال الظمآن مع السراب الذى ظهر له فحسبه ماء نافعا يجد فى الوصول إليـــه والحصول عليه ثم خاب أمله عندما وصله وأدرك أنه خيال واشتد ألمه وعذابه حيث بقى على حال ظمئه التى كان عليها.

ومنه قول ابن المعتز :

اصبر على مضض الحسو ... د فإن صـــبرك قاتله
فالنار تأكل بعضها ... إن لم تجد ما تأكله

فقد شبه حال الحاسد يحمله المحسود بالإعراض عنه حتى يموت غيظا بحال النار لا تجد بالحطب الذى يديم بقاءها فتأكل بعضها بعضا حتى تصير رمادا . ووجه الشبه هو الهيئة العقلية الحاصلة من سرعة الفناء لعدم الإمداد بما يسبب البقاء والحياة .. وقول أبى تمام :

وإذا أراد الله نشر فضيلة ... طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ... ما كان يعرف طيب عرف العود(١)

شبه حال الفضيلة يتعرض لها الحاسد ليسترها ويغض من قيمتها ويؤذى صاحبها فيكون ذلك سببا فى ظهورها وشيوع أمرها بحال العود مع النار فإنها تظهر طيب رائحته وتسبب انتشارها فيعم النفع بها : ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من ظهور فضل الشىء باتصاله بآخر شديد الضرر له ...

(١) العرف : الرائحة . . والعود : ضرب من الطيب يتبخر به . .

القسم الخامس : أن يكون وجه الشبه متعددا حسيا كتشبيه نهر دجلة بنهر النيل فى طوله واتساعه وعذوبة مائه . وكتشبيه فاكهة بأخرى فى اللون والطعم والرائحة .

السادس : أن يكون وجه الشبة متعددا عقليا كتشبيه الأنصار بالمهاجرين فى قوة إيمانهم بالله ومحبتهم للرسول صلى الله عليه وسلم والتفانى فى نصرة الحق . وكتشبيه الصقر بالغراب فى حدة النظر وكمال الحـــذر وإخفاء السفاد(١) .

السابع : أن يكون وجه الشبه متعددا مختلفا بعضه حسى وبعضه عقلى كتشبيه الرجل بالشمس فى إشراق الوجه ونباهة الشأن .

مقارنة بين وجه الشبه المركب ووجه الشبه المتعدد :

وجه الشبه المركب لابد أن ينتزع من عدة أمور معتبرة فى كل من الطرفين بحيث إذا ترك بعضها لايتم وجه الشبه بل ويضيع الغرض الذى يقصده المتكلم من التشبيه لأنه يهدف إلى مزج هـــذه الأمور وخلطها واستخلاص هيئة تركيبية منها . . أما الوجه المتعدد فإن الأمور المعتبرة فى الطرفين لا تمزج بل يظل كل أمر منها مستقلا بحيث يمكن الاستغناء عن بعض هذه الأمور دون أن يفسد التشبيه فقولنا : المهاجرون كالأنصار فى قوة الإيمان ومحبة الرسول والتفانى فى نصرة الحق يمكن الاستغناء عن صفة أو صفتين من الصفات الثلاث ويظل التشبيه بين الطرفين صحيحا فى الصفة المتبقية . . وبناء على هذا الفرق بين الوجهين لا يجوز لنا أن نعتبر وجه الشبه فى قول كثير :

لقد أطمعتنى بالوصال تبسما وبعد رجائى أعرضت وتولت

(١) السفاد : نزو الذكر على الأنثى

كما أبرقت قوما عطاشا غمامة فلما رأوها أقشعت وتجلت(١)

هو ظهور بوادر الأمل فى حصول شىء مرغوب فيه لمن هو شديد الحاجة إليه . . على أن يكون المشبه حاله مع حبيبته وقد لاحت له مبتسمة فطمع فى وصالها . . والمشبه به : حال قوم عطاش شديدى الحاجة إلى الماء لاحت لهم غمامة مطمعة . لأننا بهذا الصنيع نكون قد فصلنا أجزاء التشبيه المركب وعقدنا المشابهة بين جزء فى المشبه ونظيره فى المشبه به بوجه شبه مستقل فيفوت بهذا الغرض الذى يرمى إليه الشاعر من التركيب . إذ إن غرضه أن يصور حاله مع حبيبته وقد بدت له مبتسمة فطمع فى وصالها وتمكن رجاء الوصل فى نفسه وعندئذ أعرضت عنه وتولت . . يحال قوم عطاش لاحت لهم غمامة مطمعة ما برحت حين تمكن فى أنفسهم رجاء أمطارها أن أقشعت وانجلت . . وهو يعبر بهذا التصوير عن وقوع اليأس فى نفسه إثر تمكن الرجاء فيها ووجه الشبه بين الطرفين هو اتصال ابتداء مطمع بانتهاء مؤيس وهذا الوجه منتزع من الأمور المجتمعة فى البيتين بحيث لا يمكن الاستغناء عن بعضها . . .

وخلاصة القول فى هذا أن وجه الشبه المركب من عدة أمور لا يمكن تجريده من بعض هذه الأمور لأنه مبنى على اتحاد الأجزاء ومزجها وتلاحمها وأن وجه الشبه المتعدد يمكن الاستغناء عن بعضه لأنه ليس مبنيا على اتحاد الأمور المحققة له وتلاحمها . . فإذا قلنا : فلان كالماء يصفو ويكدر ، كان وجه الشبه متعددا وهو الصفاء والكدارة لأن واو العطف تفيد مطلق الجمع ولهذا يجوز الاستغناء عن الكدر ويبقى تشبيهه بالماء فى الصفاء سليما صحيحا فيقال: هو كالماء يصفو . . أما إذا قلنا : فلان كالماء يصفو ثم يكدر أو يصفو

---

(١) الغمامة : السحابة . . أقشعت وتجلت : تفرقت وانكشفت . وأبرقت بمعنى تعرضت وتعرضت لهم

فيكدر كان التشبيه مركبا لأن الفاء وثم تفيدان معنى زائدا على مجرد الجمع وهو الترتيب .. وبهذا المعنى الزائد امتزج الصفاء والكدر والتحما وتحقق تركيب وجه الشبه . وكذا إذا اعتبرت الواو للمعية أو للحال وليست لمجرد العطف كان الوجه مركبا ويمتنع عندئذ الاستغناء عن إحدى الصفتين.

كيف يكتسب وجه الشبه ؟

وجه الشبه - كما علمنا - هو الصفة الجامعة بين الطرفين : المشبه والمشبه به. فإذا أراد المتكلم أن يعقد تشبيها بين أمرين كان عليه أن يحضر فى ذهنه ويحدد الصفة التى استرعت انتباهه فى المشبه ثم يغض النظر عما عداها من صفات ويطلب نظيرا لهذه الصفة التى استرعت انتباهه فى شىء آخر يكون مشبها به ... ويجب أن تكون هذه الصفة بارزة فى المشبه به ... ويتحتم على المتكلم أن يغض النظر عما فى المشبه به من صفات أخرى غير هذه الصفة وعما بين الطرفين من تباين أو تباعد ... فمثلا إذا استرعى انتباه المتكلم شجاعة رجل فطلب لها نظيرا فى الأسد وجب عليه أن يصرف نظره عما فى الرجل والأسد من صفات أخرى غير الشجاعة وأن يغض بصره عما بينهما من تباين فى الجنس .. وإذا أعجبه منظر السفينة يتلاعب بها الموج فى حركات مختلفة فوجد شبها لها فى حركات الفصيل صرف نظره عما بينهما من تفاوت فى الحجم واللون ومن تباين فى الجنس ... وإذا لفت نظره هيئة المصلوب فوجد نظيرا لها فى قائم من قماش يتمطى أعرض عما بينهما من اختلاف الحياة والموت .. ولذا كان لزاما على الناقد أن يقف على وجهة نظر الأديب وأن يتحقق من غرضه فلا يقول : كيف يشبه الرجل الشريف الإنسان بحيوان مفترس .. وكيف يشبه السفينة الضخمة بحيوان صغير الحجم . وكيف شبه المصلوب بقائم يتمطى من قماش والحياة ما تزال تدب فى جسم المتمطى .

انتزاع وجه الشبه من التضاد :

قد يلجأ المتكلم إلى أن يشبه الجبان بالشجاع أو البخيل بالكريم لغرض يهدف إليه . وقد علمنا أن وجه الشبه وصف مشترك بين الطرفين تنعقد به المشابهة كالشجاعة الموجودة فى كل من الرجل الشجاع والأسد . فكيف يتم تشبيه الجبان بالشجاع أو البخيل بالكريم والصفة الموجودة فى المشبه تضاد الصفة الموجودة فى المشبه به ؟ والجواب : أن هذا التشبيه يتم عن طريق التنزيل أى : تنزيل التضاد بين الوصفين منزلة التناسب ، ثم ينتزع وجه الشبه من التضاد المنزل منزلة التناسب لتحقيق الغرض الذى يرمى إليه المتكلم . فمثلا إذا أراد المتكلم أن يسخر من الجبان أو أن يتهكم بالبخيل قال : أنت أسد شجاعة . وأنت كحاتم فى الكرم .. نزل التضاد الحاصل بين الجبن والشجاعة وبين البخل والكرم منزلة التناسب فصار الجبن شجاعة والبخل كرما تنزيلا ، وأصبح الكرم وصفا مشتركا بين البخيل وحاتم تحقيقا فى المشبه به وتنزيلا فى المشبه . . وكذلك أصبحت الشجاعة وصفا مشتركا بين الطرفين تحقيقا فى الأسد وتنزيلا فى الجبان ، وعندئذ ينتزعان ويجرى شبه فيقال : هذا البخيل كحاتم فى الكرم . وذاك الجبان كالأسد فى الشجاعة ولا يقال فى التضاد لأن اشتراكهما فى التضاد لا يفيد السخرية والتهكم . وكذا إذا أراد المتحدث أن يمازح صديقا بخيلا أو يفاكه صديقا جبانا قال له : أنفق علينا فأنت حاتم ودافع عنا العدو فأنت الأسد تنزيلا للبخل والجبن اللذين فيه منزلة الكرم والشجاعة ويصبح الصديق البخيل الجبان موصوفا بالكرم وبالشجاعة تنزيلا كما يتصف حاتم بالكرم والأسد بالشجاعة تحقيقا . . ويكون وجه الشبه هو الشجاعة والكرم ، ولا يصح أن يقال إن وجه الشبه هو التضاد لأن اشتراك الطرفين فى التضاد لا يفيد المزاح والمفاكهة اللذين يهدف إليهما المتكلم بهذا التشبيه .

وبهذا يتضح لنا أن انتزاع وجه الشبه من التضاد يكون لغرض المفاكهة والمزاح أو السخرية والتهكم .. ويتم هذا الانتزاع عن طريق التنزيل بأن ينزل التضاد بين الوصفين منزلة التناسب اعتمادا على ما يريده المتكلم من سخرية وتهكم أو مزاح ومفاكهة ثم ينتزع وجه الشبه من التضاد المنزل منزلة التناسب لتحقيق الغرض المشار إليه ..

التشبيه التمثيلي وغير التمثيلي

ينقسم التشبيه باعتبار إفراد وجه الشبه أو تركيبه وحسيته أو عقليته إلى تشبيه تمثيلي وتشبيه غير تمثيلي وتختلف آراء البلاغيين فى التفرقة بين هذين النوعين وتحديد معنى كل منهما على النحو التالى :

أولا : رأى الإمام عبد القاهر الجرجانى : فرق عبد القاهر بين التشبيه التمثيلي والتشبيه غير التمثيلي فرأى أن التشبيه غير التمثيلي ما كان وجه الشبه فيه أمرا بينا لا يحتاج إلى تأول وإعمال فكر وصرف عن الظاهر لأن المشبه فيه يشارك المشبه به فى صفته ومثاله تشبيه الشيء بالشيء من جهة الصورة والشكل نحو أن يشبه الشيء إذا استدار بالكرة فى وجه ، بالحلقة فى وجه آخر . وكالتشبيه من جهة اللون كتشبيه الخد بالورد والشعر بالليل والوجه بالنهار والسقط بعين الديك . . أو جمع الصورة واللون كتشبيه الثريا بعنقود الكرم المنور والنرجس بمداهن درحشو من عقيق . وكذلك التشبيه من جهة الهيئة كتشبيه القامة بالرمح فى الاستواء والطول وتشبيه القد اللطيف بالغصن فى التثنى واللينونة . . ويدخل فى الهيئة حال الحركات فى أجسامها كتشبيه الذاهب على الاستقامة بالسهم السديد ومن تأخذه الأريحية فيهتز بالغصن تحت البارح[1] . وكذلك كل تشبيه جمع بين شيئين فيما يدخل تحت الحواس كتشبيه أطيط[2] الرحل بأصوات الفراريج فى قول ذى الرمة :

كأن أصوات من إيغالهن بنا ... أواخر الميس إنقاض الفراريج

وكتشبيه صريف أقياب البعير بصياح البوازى كقول ذى الرمة أيضاً :

كأن على أنيابها كل سحرة ... صياح البوازى من صريف اللوائك[3]

---

(١) البارح : الريح الشديدة . (٢) أطيط الرحل : صوته .

(٣) السحرة : السحر الأعلى أى أول السحر وهو ما قبل الفجر . والصريف : صوت الناب ، واللوائك : جمع لائكة وهى المضغ من لاك الطعام إذا مضغه .

واشباه ذلك من الأصوات المشبهة له . . وكتشبيه بعض الفواكه الحلوة بالعسل والسكر وتشبيه اللين الناعم بالحرير والخشن بالمسح[1] ، ورائحة بعض الرياحين برائحة الكافور . وكذا التشبيه من جهة الغريزة والطباع كتشبيه الرجل بالأسد فى الشجاعة وبالثعلب فى المكر ، والأخلاق كلها تدخل فى الغريزة نحو السخاء والكرم والوفاء واللؤم والغدر . فالشبه فى هذا كله بين لا يجرى فيه التأويل ولا يفتقر إليه فى تحصيله . وأى تأويل يجرى فى مشابهة الخد للورد فى الحمرة وأنت تراها ههنا كما تراها هناك وكذلك تعلم الشجاعة فى الأسد كما تعلمها فى الرجل .

ويسمى عبد القاهر هذا النوع : التشبيه غير التمثيلى أو التشبيه الظاهر أو التشبيه الصريح أو التشبيه الأصلى الحقيقى وهو أعم عنده من التشبيه التمثيلى .

الضرب الثانى : التشبيه التمثيلى وهو عند عبد القاهر مالا يكون الوجه فيه أمرا بينا بنفسه بل يحتاج فى تحصيله إلى ضرب من التأول والصرف عن الظاهر لأن المشبه لم يشارك المشبه به فى صفته الحقيقية ويتحقق ذلك فيما إذا كان وجه الشبه ليس حسيا ولا من الأخلاق والغرائز ، والطباع العقلية الحقيقية ولكنه يكون عقليا غير حقيقى أى غير مقرر فى ذات الموصوف . ومثاله قولنا : هذه حجة كالشمس فى الظهور . فقد شبهت الحجة بالشمس من جهة ظهورها . ولكن هذا التشبيه لا يتم إلا بتأول وذلك أن نقول حقيقة ظهور الشمس أو غيرها من الأجسام ألا يكون دونها حجاب ونحوه مما يحول بين العين وبين رؤيتها والشبهة نظير الحجاب فيما يدرك بالعقول لأنها تمنع القلب رؤية ما هى شبهة فيه . ولذا توصف الشبهة بأنها اعترضت دون الذى يروم القلب إدراكه ويصرف فكره للوصول إليه من صحة حكم أو فساده ، فإذا ارتفعت الشبهة قيل : هذا ظاهر كالشمس . فقد احتجنا فى

---

(١) المسح : كساء غليظ من الشعر .

تحصيل الشبه بين الحجة وبين الشمس وهو إزالة الحجاب فى كل ، إلى مثل هذا التأويل والصرف عن الظاهر . ثم إن مأطر بقه التأويل يتفاوت تفاوتا شديدا فمنه ما يقرب مأخذه ويسهل الوصول إليه . ومنه ما يحتاج إلى قدر من التأول ومنه ما يدق ويغمض حتى يحتاج فى استخراجه إلى فضل روية ولطف فكرة فمن الأول ما مر من تشبيه الحجة بالشمس . ومن الثانى قولنا : كلام ألفاظه كالماء فى السلاسة وكالنسيم فى الرقة وكالعسل فى الحلاوة . فالمراد أن اللفظ لا يستغلق ولا يشتبه معناه ، ولا يصعب الوقوف عليه فليس بغريب وحشى وليس فى حروفه تكرير وتنافر يكد اللسان فصار لذلك كالماء الذى يسوغ فى الحلق والنسيم الذى يسرى فى البدن ويتخلل المسالك اللطيفة منه ويهدى إلى القلب روحا ونشاطا . وكالعسل الذى لذ طعمه ونهش النفس له ويميل الطبع إليه . فوجه الشبه إذاً هو الاستحسان وميل النفس الذى هو لازم من لوازم الحلاوة وقد احتجنا فى إدراكه إلى مثل هذا التأول . وهو أدخل قليلا فى حقيقة التأول وأقوى حالا فى الحاجة إليه من تشبيه الحجة بالشمس ومن الثالث قولهم : هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها ، فوجه الشبه فى هذا التشبيه يحتاج إلى فضل روية ولطف فكرة ، وإلى كثير من التأول والصرف عن الظاهر حتى يتمكن استخراجه والوقوف عليه وذلك لغموضه ودقته . وقد سمى عبد القاهر هذا النوع من التشبيه التمثيلى أو التمثيل وهو عنده أخص من التشبيه . كما بينا . ثم يسوق شواهد كثيرة لكل نوع من النوعين فمن شواهد التشبيه قول قيس بن الخطيم :

وقد لاح فى الصبح الثريا لمن رأى
كمنقود ملاحية حين نورا

وقول ابن المعتز :

كأن عيون النرجس الغض حولنا
مداهن درحشوهن عقيق

وقوله :

وتروم الثريا فى الغروب مراما كالكباب طمر كاد يلقى اللجاما(١)

وقوله :

وأرى الثريا فى السماء كأنها قدم تبدت من ثياب حداد

وقوله :

قد انقضت دولة الصيام وقد بشر سقم الهلال بالعيد
يتلو الثريا كفاغر شره يفتح فاه لأكل عنقود(٢)

فوجه الشبه فى هذه الأبيات ظاهر بين لا يحتاج إلى تأول لأنه من المركبات الحسية ولذا كانت من قبيل التشبيه غير التمثيلى عند عبد القاهر .. وقد مرت بنا هذه التشبيهات .

ومن شواهد التمثيلى قول ابن المعتز أيضاً :

اصبر على مضض الحسو د فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

وقول صالح بن عبد القدوس :

---

(١) الطمر : الفرس الجواد ، والمراد به هنا أن يكون ذا لون أسود ، واللجام : مفضض فهو كالثريا ، والطمر كالليل ووجه الشبه : ظهور شىء أبيض مستطيل فى جوانب شىء مظلم .

(٢) سقم الهلال : أراد صفره وأخذه فى الذهاب ، ويتلو : يتبع ، والفاغر : الذى يفتح فمه ، والشره : شديد النهم والرغبة فى الأكل ، فالمشبه : الهلال والمشبه به : الرجل الفاغر فمه لأكل عنقود ، ووجه الشبه : هيئة أجرام بيضاء يحيط بها شىء مقوس .

وإن من أدبته في الصبا كالعود يسقى الماء في غرسه
حتى تراه مورقا ناضرا بعد الذى أبصرت من يبسه(١)

فوجه الشبه في هذه الأبيات من المركبات العقلية التي تحتاج إلى فضل روية وإعمال فكر ولذا كانت من قبيل التشبيه التمثيلي عند عبد القاهر . . وخلاصة رأى عبد القاهر أن التشبيه غير التمثيلي ما كان وجه الشبه فيه حسيا أى مدركا بإحدى الحواس الخمس الظاهرة وهى السمع والبصر والشم والذوق واللمس . . سواء كان هذا الوجه الحسى مفردا أم مركبا . . وكذلك ما كان الوجه فيه عقليا حقيقيا أى : ثابتا ومقررا في ذات الطرفين كالأخلاق والغرائز والطباع . . والتمثيل أو التشبيه التمثيلي ما كان وجه الشبه فيه ليس حسيا ولا من الأخلاق والغرائز والطباع العقلية الحقيقية ، بل يكون عقليا غير حقيقي أى : غير متقرر في ذات الطرفين فلا يكون بينا ظاهرا بنفسه بل يحتاج في تحصيله إلى تأول لأن المشبه لم يشارك المشبه به في صفته الحقيقية . . سواء أكان هذا الوجه العقلي مفرداً أم مركبا .

ثانيا : رأى السكاكى : يرى السكاكى أن التشبيه غير التمثيلي ما كان وجه الشبه فيه مفردا بنوعيه حسيا أو عقليا ، أو كان مركبا حسيا . . فمثال ما كان الوجه فيه مفرداً حسيا تشبيه الخد بالورد في الحمرة والشعر بالليل في السواد والريق بالخمر في طيب المذاق . . إلخ .

ومثال المفرد العقلي : تشبيه الرجل بالأسد في الشجاعة وبالبحر في الكرم وبالذئب في المكر والدهاء . . وتشبيه الحجة بالشمس في إزالة الحجاب والكلام بالعسل في ميل النفس . . إلخ . ومثال المركب الحسى :

---

(١) المراد تشبيه المؤدب في صبباه بالعود المسقى أوان غرسه ، ووجه الشبه : التحول من حال النقص إلى حال الكمال بسبب التعهد بالعلاج في الوقت الذى يجدى فيه العلاج

كأن مثار النقع فوق رؤسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

إلى آخر ما مر بنا من المركبات الحسية .. أما التمثيل عنده فهو ما كان وجه الشبه فيه مركبا عقليا كقوله تعالى : (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ)(١) فوجه الشبه فى الآية الكريمة أن كلا من المنافقين ومستوقد النار تعاطى الأسباب المقربة لتحقيق آمالهم وحين ظهرت دلائل النجاح انقلب الأمر على عكس ما أملوا .. وهو هيئة عقلية انتزعت من أمور متعددة .. وقوله عز وجل : (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً)(٢) فوجه الشبه وهو حرمان الانتفاع بالبلغ نافع مع تحمل التعب فى استصحابه ، هيئة عقلية مركبة لانتزاعها من أمور متعددة .. وعدم إدراكها بالحواس .

ثالثاً : رأى الخطيب وجمهور البلاغيين أن التشبيه غير التمثيلى ما كان وجه الشبه فيه مفردا حسياً أو عقليا ، والتشبيه التمثيلى ما كان الوجه فيه مركبا سواء أكان حسيا أم عقليا .. فمدار التفرقة عندهم بين التشبيه والتمثيل تركيب الوجه وإفراده بقض النظر عن كونه حسياً أم عقليا .. فإذا كان وجه الشبه هيئة منتزعة من شيئين أو عدة أشياء كان التشبيه تمثيلا سواء أكانت هذه الهيئة حسية أم عقلية .. وإذا كان وجه الشبه مفرداً بنوعيه أى حسيا أو عقليا كان التشبيه غير تمثيل .

وخلاصة هذه الآراء فى التفرقة بين التشبيه والتمثيل والتى هى مبنية على إفراد وجه الشبه أو تركيبه وحسيته أو عقليته ، أنه إذا كان وجه الشبه

---

(١) سورة البقرة الآية ١٧.
(٢) سورة الجمعة الآية ٥

مركبا عقليا غير حقيقي . كما في قوله تعالى : (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ)[1] وقوله عز وجل : (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ)[2] وكقول ابن المعتز : « اصبر على مضض الحسود . . . » وقول صالح : « وإن من أدبته في الصبا » وقول أبي تمام : « وإذا أراد الله نشر فضيلة . . » كان التشبيه تمثيليا باجماع الآراء .

وإذا كان الوجه مركبا حسيا كما في قول بشار : « كأن مثار النقع . . وقول أبي طالب : « وكأن أجرام النجوم . . . » وقول ذي الرمة : « وسقط كعين الديك » . . كان التشبيه تمثيليا عند الخطيب وجمهور البلاغيين وغير تمثيلي عند عبد القاهر والسكاكي لكونه حسيا .

وإذا كان وجه الشبه واحدا عقليا غير حقيقي أي غير متقرر في ذات الطرفين . كما في قولنا : كلام كالعسل . . وجملة كالشمس وهم كالحلقة المفرغة . كان التشبيه تمثيليا عند عبد القاهر فقط وليس تمثيليا عند السكاكي والخطيب والجمهور لفقده التركيب الذي يشترطونه في التشبيه التمثيلي . . وعبد القاهر يغض النظر عن هذا التركيب .

وإذا كان الوجه واحدا حسيا كما في قولنا : خد كالورد وشعر كالليل وريق كالخمر وبشر كالحرير . أو واحدا عقليا حقيقيا لكونه من الأخلاق والغرائز والطباع العقلية الحقيقية كما في قولنا : هذا الرجل كحاتم كرما وكأحنف حلما وكإياس ذكاء وكالأسد شجاعة وكالكلب وفاء . كان التشبيه غير تمثيلي باجماع الآراء لفقده التركيب الذي يشترطه السكاكي والخطيب وجمهرة البلاغيين . ولكونه حقيقيا أي : متقررا في ذات الطرفين وعبد القاهر يشترط في التمثيل أن يكون وجهه عقليا غير حقيقي .

---

(١) سورة الجمعة الآية ٥ . (٢) سورة النور الآية ٣٩

التشبيه المجمل والتشبيه المفصل

ينقسم التشبيه باعتبار حذف وجه الشبه أو ذكره إلى قسمين تشبيه مجمل وتشبيه مفصل .

فالتشبيه المجمل : ما حذف فيه وجه الشبه كقولنا : هذا الرجل كالأسد والماء كالنجوم . . ووجه الشبه المحذوف قد يكون واضحا ظاهرا يعرفه الخاصة والعامة على حد سواء كقولنا : وجه كالبدر . وشعر كالليل وخد كالورد ورجل كالأسد .. وقد يكون دقيقا خفيا يحتاج فى إدراكه إلى فكر وتأمل وعندئذ يجب أن يذكر فى العبارة ما يومىء إلى وجه الشبه المحذوف ويدل عليه .

ما يدل على وجه الشبه عند حذفه إذا كان دقيقا خفيا :

والذى يومىء إلى الوجه المحذوف ويدل عليه إذا لم يكن ظاهرا واضحا إما وصف المشبه به بصفة يفهم منها هذا الوجه المحذوف كقول كعب الأشقرى فى وصف بنى المهلب للحجاج لما سأله عنهم : هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها . فقد وصف المشبه به وهو الحلقة المفرغة بأنها ليست مصلومة الأطراف . وهذا الوصف أومأ إلى وجه الشبه ودل على أنه : التناسب الكلى الخالى من التفاوت . ولا شك أن الانتقال من تناسب أجزاء الحلقة إلى تناسبهم فى الشرف غاية فى الدقة لأن العامة يتبادر إلى ذهنهم تناسبهم فى الصورة والشكل ولا يدرك التناسب الكلى إلا الخاصة ولذا احتاج التشبيه إلى وصف المشبه به بهذا الوصف الذى أومأ إلى وجه الشبه ودل على أنه : التناسب الكلى الخالى من التفاوت .

ومن ذلك قول زياد الأعجم :

وإنما وما تلقى لنا إن هجوتنا لكالبحر مهما تلق فى البحر يغرق

فوجه الشبه هو عدم ظهور الأثر فى كل منهما . يريد أن هجاءهم لا يؤثر فيهم لأصالتهم فى الشرف وعراقتهم فى المجد كما لا يؤثر فى البحر ما يلقى فيه من أوساخ وأقذار وقد أومأت الجملة الحالية وهى : مهما تلق فى البحر يغرق والتى وقعت وصفا للمشبه به : البحر . . أومأت إلى وجه الشبه ودلت عليه .

وقول النابغة الذبيانى :

فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

شبه الممدوح والملوك بالشمس والكواكب وجملة : إذا طلعت لم يبد منهن كوكب وقعت وصفا للمشبهين بهما فأنبأت عن وجه الشبه المحذوف ودلت عليه وهو : القوة الكبرى التى تستر ما عداها .. فالشاعر يريد أن عزة الممدوح وسلطانه وفضائله تخفى ما لسائر الملوك من قوة وعزة ومكارم كما تخفى الشمس إذا طلعت أضواء الكواكب .

وإما أن يكون الدال على وجه الشبه المحذوف وصفا للمشبه والمشبه به كليهما كما فى قول أبى تمام :

صدفت عنه ولم تصدف مواهبه عنى وطارده ظنى فلم يخب
كالغيث إن جئته وافاك ريقه وإن ترحلت عنه لج فى الطلب(١)

شبه الممدوح بالغيث ووجه الشبه هو الإفاضة والإحسان فى حال الإقبال وفى حال الإعراض وقد أنبأ بهذا الوجه ودل عليه وصف المشبه بأن عطاياه لا تنقطع فى حال الغيبة وحال الحضور ووصف المشبه به وهو الغيث بأنه يوافيك بمائه الصافى إن طلبته . وإن ترحلت عنه اجتهد فى إمدادك به .

(١) صدفت : أعرضت والمواهب : العطايا وريقه : أوله وأفضله لج : الح .

ولو لم يوصف الطرفان بهذين الوصفين لتبادر إلى ذهن العامة أن المقصود مجرد تشبيه الممدوح بالغيث فى كثرة العطاء .

والتشبيه المفصل : ماذكر فيه وجه الشبه كقولنا : وجهه كالبدر حسنا وخده كالورد حمرة وشعره كالليل سواداً وريقه كالخمر مذاقا وبشره كالحرير نعومة .. وهذا الرجل كالأسد شجاعة .. سواء أكان المذكور هو نفس الوجه كالأمثلة المذكورة وكما فى قول ابن الرومى :

يا شبيه البدر فى الحسن وفى بعد المنال
جد فقد تنفجر الصخرة بالماء الزلال(١)

وقول أبى بكر الخالدى :

يا شبيه البدر حسنا وضيـــاء ومثالا
وشبيه الغصن لينا وقواما واعتدالا
أنت مثل الورد لونا ونسيما وبلالا(٢)
زارنا حتى إذا ما سرنا بالقرب زالا

أو كان المذكور وصفا يستلزم وجه الشبه كقولنا : كلام كالعسل فى الحلاوة فليست الحلاوة هى وجه الشبه الحقيقى . ولكن الوجه الحقيقى هو : ميل النفس وشعورها باللذة وهو لازم من لوازم الوجه المذكور « الحلاوة » . فاستغنى بذكر الملزوم عن اللازم مجازا . ومنه قولهم : حجة كالشمس فى الظهور فالوجه الحقيقى هو إزالة مطلق حجاب فيشمل حجاب الليل الذى يمنع إدراك المبصرات وحجاب الشبهة التى تمنع إدراك المعقولات . وهذا الوجه من لوازم الوجه المذكور « الظهور » فاستغنى به عنه تسامحا أو مجازا .

---

(١) جد : يعنى بالوصال . الزلال : العذب الصافى

(٢) البلال : النعومة ، ويروى : ملالا بمعنى سرعة الزوال والمفارقة من إطلاق الملزوم وإرادة اللازم

التشبيه البعيد والتشبيه المبتذل

ينقسم التشبيه باعتبار ما يتصف به وجه الشبه من وضوح أو دقة تحوج إلى التفكير إلى قسمين : تشبيه قريب مبتذل وتشبيه بعيد غريب .

فالقريب المبتذل : هو ما ينتقل فيه الذهن من المشبه إلى المشبه به دون حاجة إلى إعمال فكر وتدقيق نظر . ويرجع ذلك إلى وضوح وجه الشبه وظهوره . كتشبيه الوجه الحسن بالبدر والرجل الشجاع بالأسد . فإن الذهن لا يجد صعوبة فى إدراك هذا الحسن وتلك الشجاعة فى البدر والأسد . وكتشبيه الرجل الكريم بالغيث والخد الجميل بالورد . فالذهن لا يجد عناء فى إدراك الكرم والجمال فى الغيث والورد . ولا يعنى وصف هذه التشبيهات بالقرب والابتذال أنها رديئة مستنكرة ولكن المراد أنها قريبة التناول سهلة المأخذ يستوى فيها الخاصة والعامة وكثيرا ما يحتاج إليها الأديب لتوضيح معانيه وتأكيدها .

العوامل الموجبة لابتذال التشبيه : يعد التشبيه قريبا مبتذلا إذا اتصف وجه الشبه فيه بصفة أو أكثر من الصفات الآتية :

١ — كونه أمرا مجملا لا تفصيل فيه كتشبيه الخد بالورد فى الحمرة والمصابيح بالنجوم فى الإضاءة والرجل بالأسد فى الشجاعة فالحمرة والإضاءة والشجاعة أمور مجملة لا تفصيل فيها والجملة أسبق إلى النفس من التفصيل دائما .

٢ — أن يشتمل وجه الشبه على قليل من التفصيل ويكون المشبه به من الأمور التى تتكرر على الحس فيستدعى هذا التكرار سرعة حضورها فى الذهن عند إرادة التشبيه وبذلك يزول أثر التفصيل القليل الموجود فى وجه الشبه ويصبح التشبيه قريباً مبتذلا . مثال ذلك : تشبيه الشمس بالمرآة المجلوة

فى الاستدارة والإشراق ، وتشبيه الشباب ذات النقوش بأزهار الروض فى اجتماع الألوان ، وتشبيه العيون بالنرجس فى اجتماع البياض والسواد وتشبيه السيوف بالبرق فى الإشراق واللمعان فوجه الشبه فى هذه التشبيهات به قليل من التفصيل لملاحظته فى شيئين ولكن تكرار رؤية الأمور المشبهة بها أزال أثر هذا التفصيل القليل الملاحظ فى وجه الشبه وجعل إدراكه سهل التناول قريب المأخذ وظل التشبيه لذلك قريبا مبتذلا لاقتضاء تكرار المشبه به على الحس سرعة انتقال الذهن .

٣ - أن يشتمل وجه الشبه على قليل من التفصيل ويكون المشبه به قريب الحضور فى الذهن عند حضور المشبه فيه لا لتكرر المشبه به على الحس ولكن لقرب المناسبة بين الطرفين وتقاربهما فى الجنس . فالمعانى تتداعى دائما فى الذهن إذا قربت المناسبة بينها ومثال ذلك : تشبيه جرة الماء الصغيرة بالكوز وتشبيه المنية الكبيرة السوداء بالإجاصة(١) فى الشكل والمقدار وتشبيه برج القاهرة بمنارة القلعة . فالمشبه به فى هذه التشبيهات يتبادر إلى الذهن عند حضور المشبه فيه لقرب المناسبة بينهما ولهذا زال أثر التفصيل القليل المشتمل عليه وجه الشبه لملاحظته فى شيئين : الشكل والمقدار ، وبقى التشبيه قريباً مبتذلا ، لاقتضاء قرب المناسبة بين الطرفين سرعة انتقال الذهن من المشبه إلى المشبه به .

والتشبيه البعيد الغريب : مالا ينتقل فيه الذهن من المشبه إلى المشبه به إلا بعد فكر وإطالة نظر وذلك لخفاء وجه الشبه فى بادئ الأمر ودقته . كقول ابن المعتز فى وصف ظهور البرق وخفائه :

وكأن البرق مصحف قار فانطباقا مرة وانفتاحا

---

(١) الإجاصة جمعها : إجاص وهو شجر له ثمر لذيذ الطعم .

فوجه الشبه وهو هيئة تو الى حركتين فى اتجاهين مختلفين ينشأ عن إحداهما ظهور وانفتاح وعن الأخرى خفاء وانطباق . لا ينتقل الذهن فى إدراكه والوقوف عليه من المشبه إلى المشبه به إلا بإطالة النظر وإعمال الفكر لدقته وخفائه فهو حركة خاصة تحتاج من الأديب أو القارىء إلى أن يغض النظر عما عداها مما فى البرق من إشراق وما فى المصحف من لون حين يفتحه القارىء . .

العوامل المرجحة لغرابة التشبيه : يعد التشبيه غريبا بعيدا إذا اتصف بواحد أو أكثر من الأمور الآتية :

الأول : أن يكون المشبه به نادر الحضور فى الذهن لكونه من الأمور الوهمية كما فى تشبيه السنان بأنياب الأغوال . والطلع برءوس الشياطين . أو من المركبات الخيالية كتشبيه محر الشقيق بأعلام ياقوت نشرت على رماح من زبرجد فالأمور الوهمية والمركبات الخيالية لا تحقق لوجودها فهى نادرة الحضور فى الذهن وقد يكون المشبه به له وجود محقق إلا أنه لا يتكرر على الحس ولا يخطر بالبال إلا بعد تفكير طويل كتشبيه الشمس بالمرآة فى كف الأشل فالمرآة فى يد الأشل من الأمور التى لا يقع عليها البصر إلا نادراً فربما قضى الإنسان دهره ولا يتفق له أن يرى مرآة فى يد الأشل . ومن ذلك تشبيه حال الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها بحال الحمار يحمل كتب العلم فى قوله تعالى : (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا)[1] فصورة الحمار يحمل أسفارا من الصور التى لا تتكرر على الحس . . ووجه الشبه من المركبات العقلية التى يتعذر استخراجها من الطرفين

(١) سورة الجمعة الآية ٥

على غير الخاصة . وما من شك فى أن ندرة حضور المشبه به فى الذهن تقتضى خفاء وجه الشبه وندرة إدراكه لأن الوجه وصف منتزع من الطرفين فإذا خفى أحد الطرفين وندر حضوره بالذهن خفى وجه الشبه وندر إدراكه وتعذر على العامة .

الثانى : أن يكون المشبه به نادر الحضور فى الذهن عند ذكر المشبه لبعد الصلة بينهما . من ذلك قول ابن المعتز يصف زهر البنفسج

ولا زَوَرْدِيَّةٌ تزهو بزرقتها ... بين الرياض على حمر اليواقيت
كأنها فوق قامات ضعفن بها ... أوائل النار فى أطراف كبريت(١)

فقد شبه زهر البنفسج بأوائل النار فى أطراف كبريت ولا مناسبة بين الطرفين فالمشبه زهر ندى يفوح عطرا والمشبه به نار يابسة محرقة فهما جنسان متباعدان يندر أن يحضر المشبه به فى الذهن عند حضور المشبه فيه وقد جمع الشاعر بينهما على الرغم من هذا التنافر فاكتسب التشبيه غرابة وبعدا . ومن ذلك تشبيه الشعر بالنار والبرق بمصحف القارىء ، وإبرة روق الأغن بقلم أصاب من الدواة مدادا . فالبون شاسع بين الطرفين فى هذه التشبيهات كما لا يخفى ولذا كانت تشبيهات غريبة بعيدة .

الثالث : أن يكون وجه الشبه كثير التفصيل . من ذلك ما مر من تشبيه الشمس بالمرآة فى كف الأشل حيث روعى فى وجه الشبه الشكل واللون والحركة المضطربة المستمرة التى ينشأ عنها تموج الضوء .

ومعنى التفصيل فى وجه الشبه : إطالة النظر والتأمل فى صفات كل من

---

(١) اللازورية : البنفسج وهى نسبة تشبيهية إلى حجر يسمى اللازورد والمراد تشبيه أزهار البنفسج : وتزهو : تتكبر : وحمر اليواقيت من إضافة الصفة إلى الموصوف وإنما جعل المشبه به أوائل النار فى أطراف الكبريت لأنها تكون حمراء صافية لا زرقاء .

من الطرفين لمعرفة ماتقع به المشاركة بينهما وما تقع به المخالفة . ثم تأمل الصفات المشتركة بين الطرفين . هل هي موجودة فى كلا الطرفين بدرجة واحدة أم بينهما تفاوت ؟ وهل هذا التفاوت يفسد الغرض من التشبيه ؟ . إن كان يفسده فعلى الأديب أن يجمع ويفرق ويثبت ويحذف فى صفات كل طرف حتى يستقيم التشبيه ويحقق الغرض الذى يرمى إليه فالمراد بالتفصيل إذاً ألا تنظر فى صفات الطرفين نظرة إجمالية بل نظرة تفصيلية دقيقة . ويتضح لنا ذلك فى هذه الشواهد .

يقول امرؤ القيس :

حملت رديناً كأن سنانه ... سنا لهب لم يتصل بدخان(١)

شبه سنان الرمح بسنا اللهب فى الإشراق ولكنه لاحظ أن السنا يحوى الدخان الذى يؤثر فى وجه الشبه فحذف هذا الدخان وانتزعه من السنا بقوله لم يتصل بدخان فزاد السنا بهذا تألقا وضياء وتم تحقق الشبه بين الطرفين .

وقال أحيحة :

وقد لاح فى الصبح الثريا كما ترى ... كعنقود ملاحية حين نورا

شبه الثريا بالعنقود فى الهيئة المكونة من : الشكل والمقدار واللون والمسافة المتقاربة بين الأجزاء ولكى يتم هذا الوجه فى جانب المشبه به جعله عنقود ملاحية وقيده بهذا القيد « حين نورا » وبهذا التفصيل تم تحقق الوجه بين الطرفين . وقال ابن المعتز يصف طلوع الفجر .

---

(١) رديناً : الرديني : رمح منسوب إلى رديئة وهى امرأة كانت تقوم الرماح . وسنا اللهب : ضوؤه .

كأنا وضوء الصبح يستعجل الدجى
نطير غرابا ذا قوادم جون[1]

شبه سواد الليل وقد بدت فى جوانبه لمع مضيئة من نور الفجر بغراب أسود فى أطراف جناحيه ريشات بيض تظهر لامعة فى سواده ووجه الشبه هو الهيئة المكونة من اجتماع البياض والسواد وأن السواد أخذ يتبدد فى عجلة أمام البياض الذى انتشر فى حواشيه وجوانبه . وقد تخيل الشاعر أن ضوء الصبح يسوق ظلام الليل ويستعجله ولما لم يجد نظير ذلك فى الغراب أضاف إلى صفته أنه كان حبيساً فى يد قانص ثم أطير فهو يتابع طيرانه ويجد فيه . . وحقق ابن المعتز بهذه الإضافة الشبه كاملا بين الطرفين . ولو أنه اكتفى بذكر الغراب وبياض قوادمه ولم يجعله طائرا أو جعله طائرا من تلقاء نفسه لا من إزعاج لاختل التشبيه ولما كان لقوله : « يستعجل الدجى » نظير فى المشبه به . وقال أبو نواس يصف البازى :

كأن هيئتـــه إذا ما أثارا فصان قبضا من عقيق أحمرا
فى هامة غلباء تهدى منسرا كعطفة الجيم بأكف أعسر[2]

شبه الجزء العلوى الذى يرى من منقار البازى بالعطفة العليا لحرف الجيم وهى التى تبتدى من اليسار إلى اليمين . وقد فصل الشاعر تفصيلا دقيقا فى مراعاة وجه الشبه فقال : « كعطفة الجيم » ولم يقـــل كالجيم لأن الجزء الأسفل من المنقار الذى يشبه العطفة السفلى للجيم لاتقع عليه العين . وجعل

---

(١) الدجى : جمع دجية وهى الظلمة ، والقوادم : أوائل ريش الطائر والجون جمع جون وهو الأبيض أو الأسود والمراد هنا الأبيض .

(٢) أثار : أدرك أثره . وقبضا : عقا . والهامة رأس كل شىء وتطلق على الجثة . والغلباء : القوية . تهدى : تتقدم . والمنسر : منقار الطير الجارح . وعطفة الجيم : خطها الأعلى . والأعسر : الذى يكتب بشماله .

عطفة الجيم مكتوبة بكف أعسر لأن الأعسر يزيد من انحنائها حدثا فى طرفها الأيمن تعريجا إلى أسفل يشبه التعريج الذى ينتهى به منقار البازى . . ثم أراد أن يؤكد أن الشبه فى الصورتين مرعى فيه الخط الأعلى فقط من الجيم فقال :

يقول من فيها بعقل فكرا لو زادها عينا إلى فاء ورا
فانصلت بالجيم صارت جعفرا

نبه بقوله « فانصلت بالجيم » إلى أن المراد العطفة الأولى فقط ونفى إرادة العطفتين الثالثة التى تكون فى الجيم المنفصلة والثانية التى تجىء من اليمين إلى اليسار لتصل عطفة الجيم الأولى بقية حروف الكلمة لأنها وصيلة للوصل ولا يلتفت إليها عند عدم إرادة الوصل . ولدقة هذا التفصيل قال : « يقول من فيها بعقل فكرا » فنبه إلى أن المشبه به حاجة إلى فضل روية وإعمال فكر ليتم تحقيق الشبه بين الطرفين .

هذا وتختلف مرتبة التفصيل فى وجه الشبه باختلاف الأمور المرعية والصفات المعتبرة فى الطرفين . فأدنى مراتبه ما روعى فيه وصف واحد كتشبيه المنفسج بأوائل النار فى أطراف كبريت بجامع الحمرة الصافية التى لا يشوبها لون آخر . وأعلى من هذا ما روعى فيه أمران كاجتماع البياض والسواد فى تشبيه غرة الفرس وسط وجهه الأسود بإشراق الصبح فى جوانب الليل . وما روعى فيه ثلاثة أمور أعلى مما روعى فيه أمران وهكذا حتى تبلغ الغاية فى نحو قوله تعالى : (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ)[1] فقد اجتمعت

(١) سورة يونس آية ٢٤

عشر جمل فى جانب المشبه به كل جملة منها تفيد وصفا لاتفيده الأخرى وهذه الأوصاف قد تضامت والتحمت لأداء وجه الشبه بين الطرفين وصارت كأنها جملة واحدة بحيث لو حذف منها شيء لأخل ذلك الحذف بالمغزى من التشبيه.

ومما يلاحظ فى الآية الكريمة أن هذه الجمل المتتابعة قد وقعت صفة لاسم نكرة « ماء » ولى أداة التشبيه ، ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم : « الناس كإبل مائة لاتجد فيها راحلة » فجملة « لاتجد فيها راحلة » وقعت صفة لإبل مائة والمراد : أن الكامل فى الناس قليل فكل مائة لاتجد فيهم راحدا يوصف بالكمال . وقد يلى أداة التشبيه اسم موصول فتقع الجملة بعده صلة له كقوله تعالى : (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ)[1] . أو اسم معرفه غير موصول فتكون الجملة بعده مستأنفة جوابا لسؤال مقدر كقوله تعالى : (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً)[2] فجملة « اتخذت بيتا » وقعت جوابا لسؤال مثار تقديره : ما حالها ؟ وسواء ولى الأداة اسم نكرة أو معرفة موصول أو غير موصول فإن وجه الشبه هيئة تركيبية منتزعة من مجموع الجمل الواقعة بعد الاسم ولا يمكن أن يكون هذا الاسم هو المشبه به لاستحالة استقلاله بالدلالة على المقصود من التشبيه بدون الجمل المذكورة بعده وإنما احتيج إليه ليكون ركيزة تعتمد عليها تلك الجمل المتتالية التى يتكون منها المشبه به.

---

(١) سورة البقرة الآية ١٧ ،

(٢) سورة العنكبوت الآية ٤١

موازنات :

وبناء على ما تقدم من العوامل الموجبة لغرابة التشبيه وبعده يكون قول امرىء القيس فى صفة سنان الرمح :

حملت رديني كأن سناته سنا لهب لم يتصل بدخان

أعلى طبقة وأكثر غرابة من قول عنترة العبسى فى وصف السيف :

يتبع لا يبتغى غيره بأبيض كالقبس الملتهب(١)

وذلك أن كلا من الشاعرين لاحظ عدة أمور فى الطرفين يتكون منها وجه الشبه وهى: اللون المخصوص وما فيه من بريق ثم الاهتزاز والاضطراب ولكن امرأ القيس زاد فى التفصيل وأمعن فى النظر والتأمل فوجد فى المشبه به صفة لا يتم بها التشبيه وهى الدخان الذى يعلو رأس الشعلة فنفاه وجرد السنا منه وأكسب تشبيهه زيادة فى الغرابة والبعد . . ومعلوم أن هذا لا يقع فى خاطر الشاعر لأول وهلة بل لابد له من أن يمعن النظر والتأمل فى أحوال الطرفين فيثبت ويحذف ويجمع ويفرق حتى يستقيم له التشبيه ويكتمل وجه الشبه . وكذلك يكون بيت بشار :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

أعلى طبقة وأبعد غرابة من بيت المتنبى :

يزور الأعادى فى سماء عجاجة أسنته فى جانبيها الكواكب(٢)

ومن قول كلثوم بن عمرو العتابى :

---

(١) القبس الملتهب : النار الموقدة ، والضمير فى قوله : يتابع لورد بن حابس وفى قوله : غيره لنضلة الأسدى وكان لورد ثأر عنده ، والأبيض : السيف .

(٢) العجاجة : الغبار ، والأسنة جمع سنان وهو نصل الرمح ، والضمير فى قوله : يزور يعود إلى الممدوح .

تبني سنابكها من فوق أرؤسهم سقفا كواكبه البيض المباتير(١)

وذلك أن أبا الطيب والصنابي اقتصرا في التفصيل على أن أريانا صورة أشياء مشرقة لامعة وسط سواد قاتم وظلام حالك . ولكن بشارا زاد في التفصيل وأمعن في النظر والتأمل إذ وجد السيوف في المعركة تتحرك حركات سريعة مضطربة إلى جهات مختلفة فهي تعلو وترسب وتستقيم وتعوج وتتلاقى ليصدم بعضها بعضا ثم تتفرق ، وهي ذات أشكال مستطيلة . . فعبر عن هذه الدقائق بكلمة واحدة وهي قوله « تهاوى » ، لأن الكواكب إذا تهاوت اختلفت جهات حركاتها وكان لها في التهاوي استطالة أشكال وتواقع وتداخل وبهذا اكتمل وجه الشبه وكان تشبيه بشار آية في الإبداع والغرابة وكذلك يكون قول ابن المعتز في وصف الآذريون وهو عباد الشمس :

سقيا لروضات لنا من كل نَوْر حالية
عيون آذريونها للشمس فيها كالية
مداهن من ذهب فيها بقايا غالية(٢)

أو في تفصيلا وأكثر غرابة من قوله في صفة الآذريون أيضاً :

وطاف بها ساقٍ أديبٌ بمبزل كخنجر عيّارٍ صفاحته الفتك
وحُفّل آذريونة فوق أذنه كأس عقيق في قرارتها مسك(٣)

---

(١) السنابك : جمع سنبك وهو طرف الحافر ، وسقفا أي غبارا مثارا كالسقف فهو استعارة ، والبيض المباتير : السيوف القواطع جمع مبتار .

(٢) النور : الزهر ، والآذريون : ورده أوراق حمراء في وسطه نيو وارتفاع وقد يكون أصفر ، وكالية : تدور معها حيث دارت ، اسم فاعل من كلأ ، ومداهن : جمع مدهن وهو حق الدهن ، والغالية : أخلاط من الطيب .

(٣) المبزل : ما يصفى به الشراب وهو شبه حامة الفرع في الدن ونحوه يسيل الشراب منه ، والعيار : الكثير التجول والطواف أو الذي يتردد بلا عمل ووجه=

فقد شبه فى الأبيات الأولى عيون الآذريون أى : أزهاره التى تتجه إلى الشمس دائرة معها كأنها ترعاها ، شبه هذه الأزهار بأوعية صغيرة من الذهب الأصفر فيها بقايا من دهن أسود مصنوع من جملة أطياب يسمى بالغالية ، وشبه فى البيتين الآخرين : نفس الزهر وقد تزين به الساقى حاملا إياه فوق أذنه بكأس من العقيق الأحمر فى قرارتها مسك أسود . وكان التشبيه الأول أفضل وأغرب لأن زهر الآذريون : جسم مستدير يحيط بجوانبه أوراق متجاورة صفراء فى بعض أنواعه وحمراء فى البعض الآخر ، وفى وسطه قرص أسود اللون يرتفع سواده متناقصا شيئاً فشيئاً إلى جوانب الأوراق وهو لا يملأ جوف الزهرة بل يكون منخفضا عن مستوى الأوراق كأنه فى قعرها . وبتأمل التشبيهين نجد أن ابن المعتز قد راعى اللون فحيث رأى بعض الزهور صفراء جعلها كالذهب وعندما رأى البعض الآخر حمراء جعلها كالعقيق . ولاحظ الشكل المستدير فجعل الزهرة مرة كالمدهن ومرة كالكأس . . وراعى اللون الأسود فى وسط الزهرة فجعله مرة غالية ومرة مسكا . ولاحظ أن هذا السواد لا يملأ جوف الزهرة فجعله مرة بقايا غالية ومرة مسكاً فى قرارة الكأس ، أما ارتفاع السواد فى تناقص تدريجى إلى جوانب الأوراق فقد لاحظه فى التشبيه الأول إذ دل عليه بقوله : « بقايا غالية » وبقايا الغالية يكون سوادها إلى جانب القاع أشد ثم يخف تدريجيا كلما ارتفعنا بالاستعمال إلى الحافة وهذا التدريج يساعد عليه ما فى دهن الغالية من مرونة ونعومة وتلك ملاحظة دقيقة لم يراعها فى التشبيه الثانى إذ دل على السواد فيه بقوله : « فى قرارتها مسك » والمسك جامد لا لين فيه فإذا استقر فى القاع ثبت ولم يمتد إلى جوانب الكأس كما هو شأن الغالية ولذا كان التشبيه الأول أكثر غرابة وأكمل فى استيفاء وجه الشبه بين الطرفين . . وكذا يكون قول أبى طالب الرقى :

= الشبه بين البزل والخنجر : الاعوجاج فيهما ، وحمل آذريونة فوق أذنه : هذه عادة الفرس يحملون هذا الورد فوق آذانهم ، والعقيق : خرز أحمر .

وكأن أجرام النجوم لوامعا دور نثرن على بساط أزرق

أعلى طبقة وأكثر غرابة من قول ذى الرمة :

كحلاء فى برج صفراء فى نعج كأنها فضة قد مسها ذهب[1]

وترجع الغرابة هنا إلى ندرة وجود المشبه به فى البيت الأول إذ لا يكاد يرى المرء درراً منثورة على بساط أزرق ولكنه كثيراً مايرى فى سوق الصاغة الفضة ممزوجة بالذهب إما على طريق الخلط وإما على طريق التحلية والطلاء .. فالبيت الأول أجود وأغرب لهـــذا من البيت الثانى وليس مرجع الغرابة والجودة إلى كثرة التفصيل والاستقصاء كما فى الموازنات السابقة بل إلى ندرة وجود المشبه به .

القيمة الفنية للتشبيهات الغريبة :

تعد التشبيهات البعيدة الغريبة من أبلغ التشبيهات وألطفها وأكثرها تأثيراً فى النفس لأنها تحتاج - كما قلنا - إلى إعمال الفكر وإطالة النظر فى أحوال الطرفين والتفتيش فى صفاتهما للوقوف على وجه الشبه بينهما والشىء إذا نيل بعد طلب وتفكير طويل يكون أوقع فى النفس وأشد تأثيراً وأرسخ فى الذهن وأثبت .

---

(١) البرج : أن يكون بياض العين محدقا بالسواد كله لايغيب من سوادها شىء . والنعج : البياض الخالص والمراد : أن صفرتها يشوبها بياض خالص وهو محمود عندهم .

وفرق بين إعمال الفكر وإطالة النظر الذى يحتاجه التشبيه البعيد وبين إطالة التفكير فى التعقيد الذى يخل بفصاحة الكلام ؛ لأن إطالة التفكير وإمعان النظر فى التشبيه الغريب إنما هو غوص وراء المعانى اللطيفة والأسرار الدقيقة وذلك أن عدم ظهور وجه الشبه عند النظرة الأولى لا ينشأ عن خلل فى بناء التشبيه وإنما ينشأ من دقة المعنى وغرابته مما يحوج إلى إطالة النظر فيما صنع الشاعر، هل استقصى الصفات الجامعة بين الطرفين أم لا ؟ وإذا اشترط هنا شرطا فهل اشترطه هناك؟ وهل لهذا الشرط مدخل فى التشبيه؟ وإذا بالغ فى صفة فى جانب المشبه فهل راعى هذه المبالغة فى الجانب الآخر . وهكذا ندور فى تفتيشنا حول استقصاء جوانب الشبه واستخراج دقائق التشبيه التى لا تظهر لنا عند النظرة الأولى .

فمثلا قول البحترى فى المديح :

دان على أيدى العفاة وشاسع ... عن كل ند فى الندى وضريب
كالبدر أفرط فى العلو وضوؤه ... للعصبة السارين جد قريب

يحتاج منا إلى إطالة النظر والتأمل لندرك أنه أراد بالشسوع فى جانب المشبه بعد المنزلة والمكانة لا بعد المكان ، ونعرف السر فى أنه قال فى جانب المشبه به أفرط فى العلو ليقابل ما أثبته فى جانب المشبه من شدة البعد المعنوى عن الأنداد ، ونقف على هدفه من المبالغة فى قوله : « جد قريب » ، ليشاكل بين حالتى القرب والبعد فى بلوغ كل منها حد النهاية . فإطالة النظر إذا إنما هى للوقوف على دقة الصنع وإبراز الحسن وجمال التعبير . أما إطالة التفكير لعدم ظهور المعنى فى التعقيد اللفظى فالسبب فى ذلك يرجع إلى خلل واقع فى تركيب الكلام بعدم جريانه على قوانين النحو المشهورة فى نظام بناء الجملة وترتيب أجزائها بالتقديم والتأخير ونحو ذلك ، وفى التعقيد المعنوى يرجع إلى خلل فى استعمال الأساليب المجازية على غير شروطها المرعية

كاستعمال الاستعارة بقرينة خفية لا ينكشف بها المعنى المراد . ولذا كان التعقيد مذموما معيبا لأننا نطيل النظر فيه حتى نصل إلى المراد بدون فائدة وبلا ثمرة تجنى .

وسائل التصرف فى التشبيه القريب بما يجعله غريبا :

يستطيع الأديب المتمكن أن يتصرف فى التشبيه القريب المبتذل فيخرجه عن ابتذاله ويحوله إلى تشبيه غريب بعيد بإحدى الوسائل الآتيه :

١ - أن يثبت للمشبه به صفة لا يتأتى وصفه بها ثم ينتزعها منه ويبنى على انتزاعها تفضيل المشبه على المشبه به . كقول المتنبي مادحا :

لم تلق هذا الوجه شمس نهارنا ... إلا بوجه ليس فيه حياء

فى البيت تشبيه ضمنى لوجه الممدوح بالشمس . وتشبيه الوجه بالشمس تشبيه قريب مبتذل ولكن المتنبي تصرف فيه بجعله الحياء صفة من صفات الشمس ثم انتزعها منها وجعل الشمس تفقد حياءها بجرأتها على الظهور أمام الممدوح ، وهذا التصرف أكسب التشبيه غرابة وأزال عنه صفة الابتذال والقرب . وقد يثبت الأديب الصفة ولا ينتزعها كقول أبي نواس مادحا أيضا :

إن السحاب لتستحي إذا نظرت ... إلى ندالك فقاسته بما فيها(١)

التشبيه فى البيت ضمنى كذلك وهو تشبيه للممدوح بالسحاب فى الكرم والإفاقة ، وتشبيه الممدوح بالسحاب تشبيه قريب مبتذل ولكن تصرف أبي نواس وإضافته صفة الاستحياء للسحاب أزال ابتذاله وحوله إلى غريب

(١) الندى : الكرم . وما فى السحاب : هو المطر .

بعيد والفرق بين هذا التشبيه وبين التشبيه فى بيت المتنبي أن الصفة هنا باقية وهناك مسلوبة .

٢ - أن يضيف إلى التشبيه مايفيد تساوى الطرفين فى وجه الشبه بحيث لا نستطيع أن نحدد أيهما مشبه وأيهما مشبه به . .

كقول أبي تمام :

فردت علينا الشمس والليل راغم
بشمس لهم من جانب الخـــدر تطلع
فوالله ما أدرى : أالحـــلام نائم
ألمت بنا أم كان فى الركب يوشع[1]

استعار لفظ « الشمس » لحبيبته الحسناء فهى استعارة مبنية على تشبيه الحسناء بالشمس وتشبيه الحسان أو وجوههن بالشمس تشبيه قريب مبتذل صيره أبو تمام بعيدا غريبا بما أضافه إليه من تساؤلات تسوى بين الطرفين مبالغة فى إضاءة وجه الحبيبة التى بدت من جانب الخدر فبددت ظلام الليل وبددته جوانب الأفق مضيئة ساطعة وعندئذ تعجب وتساءل فى حيرة : أهذا الذى أرى حلما ؟ أم وجه الحبيبة أزاح ظلمة الليل ؟ أم كان يوشع عليه السلام فى ركب القوم فرد بدعائه الشمس بعد مغيبها ؟ هذا التشكك وتلك التساؤلات سوت بين الطرفين وحولت التشبيه من قريب مبتذل إلى بعيد غريب .

---

(١) راغم : اسم فاعل من رغم يرغم : ذل وإنما حمل هذا الليل لزواله بطلوعها . الخدر : الستر الذى يعد للجارية أو كل مايتوارى به . . ألمت : نزلت . . أم كان فى الركب يوشع : يشير إلى قصة يوشع بن نون فتى موسى عليهما السلام واستيقافه الشمس فقد روى أنه قاتل الجبارين يوم الجمعة فلما أدبرت الشمس خاف أن تغيب قبل أن يفرغ من قتالهم ويدخل فى السبت فلا يحل له القتال فدعا الله فرد الشمس حتى فرغ من قتالهم .

٣ - التشبيه المشروط . وهو أن يقيد المشبه أو المشبه به بقيد يبرز فضل المشبه على المشبه به . . وذلك كالتقييد بأسلوب الشرط أو الاستثناء أو الاستدراك . فما جاء بأسلوب الشرط قول رشيد الدين الوطواط :

عزماته مثل النجوم ثواقبا لو لم يكن للثاقبات أفول

شبه عزائم الممدوح التي تخترق المصاعب بالنجوم التي تثقب الظلام وتبدده . . وتشبيه العزائم بالنجوم قريب مبتذل فصيره الشاعر بهذا الشرط بعيداً غريباً إذ جعل العزائم تفوق النجوم وتفضلها لأنها نافذة الأثر على الدوام والنجوم أثرها مقصور على وقت طلوعها دون وقت أفولها . .

ومنه قول بديع الزمان الهمذاني :

يكاد يحكيك صوب الغيث منسكبا
لو كان طلق المحيا يمطر الذهب
والبدر لو لم يغب والشمس لو نطقت
والأسد لو لم تصد والبحر لو عذب (١)

فهذه التشبيهات قريبة مبتذلة ولكن الشاعر أزال ابتذالها وحولها إلى تشبيهات بعيدة بإضافة أساليب الشرط المذكورة .

ومما جاء بأسلوب الاستثناء قول أبي تمام :

مها الوحش إلا أن هاتا أوانس قنا الخط إلا أن تلك ذوابل (٢)

فتشبيه النساء ببقر الوحش في جمال العيون وحسنها تشبيه قريب مبتذل وكذلك تشبيههن بالرماح الخطية في اعتدال القامة ولكن إضافة هذا الشرط

---

(١) الغيث : المطر وصوبه : عطاؤه ، والمحيا : الوجه ، وطلق الوجه : ضاحكه .

(٢) المها : بقر الوحش واحده : مهاة ، والقنا : الرماح واحده قناة والخط : اسم بلد تصنع فيها ، والذوابل : الجافة .

« الاستثناء » حولت التشبيهين من الابتذال إلى الغرابة ، فالنسوة يفضلن البقر الوحشي بالأنس والملاطفة ويفضلن الرماح بالنضارة والنعومة .

ومما جاء بأسلوب الاستدراك قول ابن بابك :

ألا يا رياض الحزن من أبرق الحمى
نسيمك مسروق ووصفك منتحل
حكيت أبا سعـــد فنشرك نشره
ولكن له صدق الهوى ولك الملل(١)

شبه فى البيت الأول رقة نسيم الروض برقة طبع الممدوح وطيب خلقه تشبيها ضمنيا مقلوبا . . ثم شبه فى البيت الثانى رقة النسيم أيضا برقة طباع الممدوح تشبيها صريحا مقلوبا : « فنشرك نشره » واستدرك فجعل الممدوح أفضل من النسيم لما له من دوام المحبة وتعلق القلوب به ولما للنسيم من الملل والسأم إذا لم تحتمله الأجساد . . فالتشبيه فى البيتين قد تحول من الابتذال والقرب إلى البعد والغرابة بسببين : ماشرط فيه بالاستدراك ومجيئه مقلوبا .

٤ — قلب التشبيه : وقد يخرج التشبيه عن الابتذال إلى الغرابة بالقلب وادعاء أن المشبه أتم من المشبه به فى وجه الشبه كقول البحترى :

فى طلعة البدر شىء من محاسنها وللقضيب نصيب من تثنيها(٢)

شبه طلعة البدر بمحاسن المرأة ، وتثنى القضيب بتثنيها تشبيها ضمنيا مقلوبا ،

---

(١) الحزن : الأرض الغليظة المرتفعة ، وأبرق الحمى : موضع . والنسيم : الرائحة والوصف : النضارة والبهجة ، ومنتحل : مدعى . . والنشر : الرائحة وصدق الهوى : ثباته ، والملل : السأم .

(٢) المحاسن : جمع حسن على غير قياس لأنه لا واحد له من لفظه ، والقضيب : الغصن ، وتثنيها تمايلها وتبخترها .

والتشبيه المقلوب يفيد المبالغة بجعل الأصل فى وجه الشبه فرعا والفرع أصلا وقد ازدادت هذه المبالغة بقوله : « شىء من محاسنها » و« نصيب من تثنيها » وكأن الشبه بينهما لا يتحقق إلا بقليل من الحسن وشىء يسير من التثنى وبهذا تحول التشبيه من الابتذال إلى الغرابة . ومنه قول ابن وهيب :

وبدا الصباح كأن غرته وجه الخليفة حين يمتدح(١)

فتشبيه وجه الخليفة بغرة الصباح تشبيه قريب مبتذل ولكن الشاعر حوله إلى تشبيه غريب عن طريق القلب بادعاء أن وجه الخليفة أصل فى الإشراق والضياء .

٥ — الجمع بين عدة تشبيهات : وكذلك يخرج التشبيه عن الابتذال بجمع عدة تشبيهات تدور كلها فى نطاق واحد : كقول البحترى :

كأنما يبسم عن لؤلؤ منضد أو برد أو أقاح

شبه ثغر المرأة المبتسم باللؤلؤ المنظوم والبرد والأقاح وبهذا الجمع تحول التشبيه إلى الغرابة والبعد .. وكقول امرىء القيس :

له أيطلا ظبى له وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل(٢)

شبه خاصرتى جواده بخاصرتى الظبى فى الضمور وساقيه بساقى النعامة فى الصلابة والمتانة ، وجريه بإرخاء السرحان فى السهولة واللين وعدوه فى سرعة بتقريب ولد الثعلب وكلها تشبيهات تدور حول الفرس فصارت بهذا الجمع بعيدة غريبة . وازدادت لطفا وحسنا .

---

(١) الغرة فى الأصل : البياض فى جبهة الفرس وقد استعيرت هنا لبياض الصبح .
(٢) أيطلا الظبى : خاصرتاه ، والسرحان : الذئب ، وإرخاؤه : جريه فى سهولة ،

مبحث أدوات التشبيه

أدوات التشبيه : ألفاظ تدل على المماثلة والاشتراك بين أمرين وهى حروف وأسماء وأفعال . فالحروف هى : الكاف وكأن ، أما الكاف : فهى الأصل لبساطتها وتفيد المشابهة فى جميع استعمالاتها والأصل فيها أن يليها المشبه به كقوله تعالى : (وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ)(١) وكقول المعرى :

أنت كالشمس فى الضياء وإن جاوز ت كيوان فى علو المكان(٢)

فلفظ : « الأعلام » فى الآية الكريمة ولفظ « الشمس » فى البيت قد وليا الكاف وهما مشبهان بهما . فإن وليها غير المشبه به كان مقدرا بعدها كما فى قوله تعالى : (أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ)(٣) . فالمشبه به فى الآية محذوف تقديره : أو كمثل ذوى صيب بدليل قوله فى الآية : (يجعلون أصابعهم فى آذانهم) وقوله فى الآية قبلها : (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا)(٤) فالآيات مسوقة لبيان حال المنافقين فيما يكابدونه من حيرة وشدة بسبب ظهور نفاقهم بعد أن توهموا أنهم قد أمنوا على حياتهم بإظهار الإسلام . وقد مثلوا أولا بحال من هو فى أشد الحاجة إلى النار فاستوقدها فلما أضاءت ما حوله

والتفعل : ولعه الثعلب ، وتقريبه : عدوه بأن يرفع يديه معا وينزلهما معا عند جريه أو عدوه .

(١) سورة الرحمن : ٢٤ .

(٢) كيوان : زحل وهو أعلى الكواكب السيارة .

(٣) سورة البقرة : ١٩ .

(٤) سورة البقرة : ١٧ .

ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون ، ثم مثلوا ثانيا بحال قوم أصابهم مطر شديد فيه ظلمات ورعد وبرق وصواعق مهلكة تهدد حياتهم بالموت وكانوا يتوقعون فيه النفع والرخاء .

ونظير ذلك فى دخول الكاف على مشبه به مقدر قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ)(١) . إذ لا شبه بين كون المسلمين أنصار الله وبين قول عيسى ، وإنما الشبه بين كونهم أنصاراً للنبى صلى الله عليه وسلم وكون الحواريين أنصاراً لعيسى ، فوجب أن يكون التقدير : كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصاره حين قال لهم عيسى ابن مريم : من أنصارى إلى الله .

وقد يليها مفرد لا يتأتى التشبيه به وذلك إذا كان المشبه به مركبا ويكون هذا المفرد له اتصال وثيق بالمشبه به المركب . كما فى قوله تعالى : (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ)(٢) .

فليس المراد تشبيه حال الدنيا بالماء بل المراد تشبيه حالها فى نضرتها وبهجتها وما يعقبها من الهلاك والفناء بالهيئة الحاصلة من كون النبات بعد نزول الماء شديد النضارة والاخضرار ثم بعد ذلك تراه قد يبس فتطيره الرياح كأن لم يكن ، ووجه الشبه : التلف والهلاك عقب الإعجاب والاستحسان ، فالكاف هنا لم تدخل على المشبه به وهو النبات وإنما دخلت على لفظ الماء باعتباره عنصرا مهما فى تكوين النبات وأوراقه وفروعه وثماره .

وأما كأن فإنها تفيد المشابهة غالباً وذلك إذا كان خبرها جامداً ، ويليها

---

(١) سورة الصف : ١٤ . (٢) سورة الكهف : ٤٥ .

المشبه نحو قوله تعالى : ﴿ خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴾[1] . وقولنا : كأن النجوم مصابيح ، يقول امرؤ القيس :

نظرت إليها والنجوم كأنها مصابيح رهبان تشب لقفال

شبه النجوم بمصابيح رهبان لفرط ضيائها وتعهد الرهبان لمصابيحهم وقيامهم عليها لتزهر حتى الصباح فكذلك النجوم زاهرة طوال الليل وتتضاءل للصباح كتضاؤل المصابيح له . فإذا كان خبرها مشتقا فالأرجح أنها لا تفيد المشابهة وإنما تفيد الظن بوقوع الخبر الذى بعدها نحو قولنا : كأن زيداً قائم وكأن السماء مطرة . فالمعنى أننا نظن قيام زيد ونظن إمطار السماء لأن قائماً صادق على زيد ومطرة صادقة على السماء ولا معنى لتشبيه الشيء بنفسه .

والأسماء التى تفيد التشبيه هى : مثل وشبه ومماثل ومحاك ومشابه ومضاه ونحوها مما يؤدى معنى المشابهة . فإن كان الاسم جامداً وليه المشبه به نحو : هذا الرجل مثل الأسد وشبه البدر وإن كان مشتقا وليه المشبه نحو : أنت مماثل الأسد ومحاك البدر ومشابه عمراً ومضاه حاتما . فقد ولى الاسم فى هذه الأمثلة الضمير العائد على المشبه .

والأفعال التى تفيد التشبيه هى : شابه وحاكى ويشابه ويضاهى ونحوها من الأفعال المتعدية الدالة على معنى المشابهة . فإن كانت الأفعال لازمة كتشابه وتماثل فإنها لا تدل على التشبيه لأن التشبيه يقتضى إلحاق الأدنى فى وجه الشبه بالأعلى حقيقة أو ادعاء وهذه الأفعال اللازمة إنما تدل على وجود التشابه بين الشيئين المقتضى مساواة كل واحد منهما للآخر فى وجه الشبه . فقولنا تشابه عمر وبكر فى الوفاء ، المعنى أنهما تساويا فيه وليس أحدهما أعلى منزلة من الآخر . والأمر ليس كذلك إذا قلنا : عمرو يشبه بكراً لأنه يفيد

---

(١) سورة القمر : ٧ .

أن بكرا أعلى مرتبة فى وجه الشبه من عمرو ولذا شبه به وقد يذكر فعل ينبىء عن التشبيه نحو علم وتيقن إن قرب وجه الشبه وحقق وحسب وخال وظن إن بعد وجه الشبه عن التحقيق وخفى عن الإدراك فيقال : علمت محمداً بحرا وتيقنت أنه حاتم وحسبت عمراً أسدا وخلته حاتما وظننته إياساً . وإنما قلنا إن هذه الأفعال تنبىء عن التشبيه لأن التشبيه فى الواقع مستفاد من الأداة المقدرة فيه كما فى نحو : محمد أسد وعمرو بحر .

هذا وتختلف أدوات التشبيه فى الدلالة عليه فما كان من التشبيه صادقا قلت فى وصفه : كأنه أو هو كهذا أو يشبه أو يماثل أو شبه كذا أو علمته بحرا ، ورأيته غيثا ، وتيقنت أنه حاتم ، ونحو ذلك من الأفعال التى تنبىء بالتشبيه وتدل على اليقين . . وما قارب الصدق قلت فيه : تراه أو تخاله أو تحسبه أو يكاد ونحوها من الأفعال التى ترشد إلى التشبيه وتدل على الظن والرجحان ، أو المقاربة وقد علمت أن التشبيه لم يفد بهذه الأفعال وإنما أفيد بأداة مقدرة(١).

---

(١) انظر عيار الشعر ص ٢٤ .

التشبيه المرسل والتشبيه المؤكد

ينقسم التشبيه باعتبار ذكر أداته وحذفها إلى قسمين : تشبيه مرسل وتشبيه مؤكد .

فالتشبيه المرسل : ماذكرت فيه أداة التشبيه نحو : أنت كالأسد ومنه قوله تعالى : (فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ)[1] وقوله عز وجل : (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ)[2] وكقول امرىء القيس :

وتعطو برخص غـــير شثن كأنه
أساريع ظبي أو مساويك إسحل[3]

والتشبيه المؤكد : ما حذفت منه أداة التشبيه كقوله تعالى : (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ)[4] أي : تمر مراً كمر السحاب .

---

(١) سورة الفيل آية ٥

(٢) سورة الحديد آية ٢١

(٣) تعطو : تناول ، والرخص : اللـــين وصف لأصبعها ، والشثن : الغليظ ، والأساريع : جمع أسروع وهو دود يكون في البقل والأماكن الرطبة أبيض اللون معتدل الطول ناعم الملمس شبه به أنامـــل النساء وظبي : اسم موضع ، والإسحل : شجر له غصون يستاك بها .

(٤) سورة النمل آية ٨٨

كيف تبنى جملة التشبيه المؤكد ؟

يختلف بناء جمل التشبيه المؤكد باختلاف الصيغ التعبيرية التى تدل على التشبيه وهى كثيرة أبرزها ما يلى :

١ ـ أن يقع المشبه به خبرا للمشبه سواء كان المشبه مذكورا فى الكلام كقول الحماسى .

هم البحور عطاء حين تسألهم ... وفى اللقاء إذا تلقى بهم بُهُمُ (١)

وقول امرىء القيس :

وعيناك غربا جدول فى مفاضة ... كمر الخليج فى صفيح مصوب (٢)

شبه سيلان الدموع من العينين بسيلان الماء من غربى الجدول وأداة التشبيه محذوفة وقد وقع المشبه به خبرا للمشبه كما فى البيت السابق : « هم البحور » فهما تشبيهان مؤكدان تم شبه سرعة جريان الدموع من العينين بسرعة سر الماء فى الخليج المنحدر تشبيها مرسلا لأن الأداة مذكورة كما ترى .. أو كان المشبه مقدرا كما فى قوله تعالى: (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ) (٣) وكقول عمران بن حطان :

أسد على وفى الحروب نعامة ... فتخاء تنفر من صفير الصافر

فالمشبه مبتدأ محذوف تقديره : هم صم : وهو أسد .. ونعامة وقد وقع المشبه به خبرا له .

---

(١) البهم : واحده بهمة وهو الشجاع الذى لا يدرى كيف يؤتى لاستبهار شأنه .

(٢) الغربان : الذلوان ، والمفاضة : الأرض الواسعة ، والجدول : النهر الصغير وأراد به هنا : البئر ، الخليج : النهر الصغير الذى يتفرع من النهر الأعظم والمراد به هنا : مجرى الماء إلى الروضة ، والصفيح : حجارة كبيرة تجعل على جانبى الجدول لئلا يتهدم والمصوب : المنحدر ، وهو أسرع لجرى الماء .

(٣) سورة البقرة آية ١٨ .

٢ - أن يقع المشبه به حالا صاحبها هو المشبه كما في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً)[1] فقد شبه النبي عليه الصلاة والسلام بالسراج المنير والمشبه به حال وصاحب الحال هو الضمير المنصوب في قوله تعالى : « أرسلناك » العائد إلى النبي عليه الصلاة والسلام .

٣ - أن يقع المشبه به مضافا إلى المشبه كقول ابن خفاجة الأندلسي :

والريح تعبث بالغصون وقد جرى
ذهب الأصيـــل على لجين الماء[2]

شبه الماء باللجين وقد وقع المشبه به « اللجين » مضافا إلى المشبه « الماء » . أما ذهب الأصيل فإن أريد بالأصيل أشعة الشمس قبيل الغروب فهي مشبه والذهب مشبه به ويكون من إضافة المشبه به إلى المشبه وإن أريد بالأصيل: الوقت ، كانت الجملة من قبيل الاستعارة ويكون هدف الشاعر أن يعبر عن صفرة شعاع الشمس في هذا الوقت فشبهه بالذهب واستعار له لفظ الذهب على سبيل الاستعارة التصريحية . ومنه قول ابن حمـــديس الصقلي يصف تقوس الهلال :

كأنما أدهم الإظـــلام حين نجا
من أشهب الصبح ألقى نعل حافره[3]

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٤٥ - ٤٦ .

(٢) الأصيل : المراد بها إما أشعة الشمس قبيل الغروب وإما الوقت ما بين العصر والمغرب . واللجين : الفضة .

(٣) الأدهم : الفرس الأسود ، والأشهب : الفرس الأبيض ، والمراد تشبيه الليل بالفرس الأدهم والصبح بالفرس الأشهب وقد استعير النعل الذي يكون في رجل الفرس للهلال لمشابهته له في الدقة والانعطاف .

شبه ظلام الليل بالفرس الأدهم والصبح بالفرس الأشهب وقد وقع المشبه به مضافا إلى المشبه فى التشبيهين ثم استعار نعل الحافر للهلال .. وفى البيت تخييل حسن بديع حيث صور الشاعر لنا معركة بين الليل والصبح انتصر فيها الصبح وفر الليل منزعجا من مطاردة الصبح له واستعان الليل على سرعة الفرار والهرب بإلقاء نعله ليكون ذلك عونا له على سرعة الفرار والنجاة، وقد أخذ الشاعر من مخلفات المعركة نعل حافر الفرس فشبه به الهلال وبنى على التشبيه استعارته الغريبة .

ومثله قول الشريف الرضى يدعو الله أن يرطب قبور أحبابه :

أرسى النسيم بواديكم ولا برحت ... حوامل المزن فى أجدائكم تضع
ولا يزال جنين النبت ترضعه ... على قبوركم العرّاضة الهمع[1]

شبه المزن بالحوامل والنبت بالجنين وقد وقع المشبه به وهو «الحوامل» و «الجنين» مضافا إلى المشبه وهو : «المزن» و «النبت» .

والمعنى : مازال السحاب الممتلىء بالماء الشبيه بالحوامل الممتلئة بطونها بالأجنة يسقط على قبوركم ، ولا يزال النبات الأخضر المورق الشبيه بالأجنة الصغيرة يرويه على قبوركم السحاب الممطر .

أما الوضع والإرضاع فهما ترشيح للتشبيه ويجوز أن نجعل كلا منهما استعارة مستقلة بأن نشبه سقوط الأمطار من السحاب بوضع المرأة جنينها . وتغذية الماء النازل من السحاب للنبات بإرضاع الأم ولدها باللبن ثم حذف

---

(١) أرسى : ثبت وهى جملة دعائية ، والمزن : السحاب ذو الماء ، والأجداث : القبور ، والعراضة : السحاب العريض والهمع : الممطر .

المشبه واشتق من المشبه به « الوضع والإرضاع » : تضع وترضع على سبيل الاستعارة التبعية . ومنه قول البحترى :

غمام سماح لا يحب له حيـــا ومسعر حرب لا يضيع له وتر(١)

شبه السماح بالغمام وقد جاء المشبه به « الغمام » مضافا إلى المشبه وهو « السماح » .

٤ — أن يقع المشبه والمشبه به مفعولين لفعل من الأفعال التى تنصب مفعولين مثل علم ورأى وحسب وظن وخال ونحوها فهـــذه الأفعال تنبىء بالتشبيه وترشد إليه وليست أدواتا بل الأداة تكون مقدرة . من ذلك قولنا : علمت محمدا بحرا ورأيته أسدا وحسبت الرجل شمسا وخلته بدرا وظننته كوكبا . فقد وقع كل من المشبه والمشبه به مفعولين للأفعال المذكورة وهذه الأفعال قد أنبأت بالتشبيه أما الأداة فهى مقدرة والتقدير : علمت محمدا كالبحر .. وكالأسد . إلخ .

ومن ذلك قول البحترى :

وإذا الأسنة خالطتها خلتها فيها خيال كواكب فى الماء(٢)

شبه الأسنة إذا خالطتها الدروع بخيال الكواكب تبدو فى الماء بجامع الصفاء واللمعان . فالمشبه هو الضمير المنصوب فى « خلتها » العائد على الأسنة مع الجار والمجرور « فيها » والضمير فى « فيها » يعود إلى الدروع . والمشبه به : « خيال كواكب فى الماء » ولا يخفى أن المشبه والمشبه به قـــد وقعا

---

(١) السماح : الجود والكرم . ومسعر الحرب : مشعلها . والوتر : الثأر .

(٢) الأسنة : الرماح ، والضمير فى خالطتها يعود إلى الدروع وفى خلتها للأسنة . يريد تشبيه الرماح إذا خالطت الدروع بخيال الكواكب حين يبدو فى الماء لأن الأسنة تكون لامعة كالكواكب والدروع تكون صافية كالماء .

مفعولين للفعل « خال » الذى أرشد إلى التشبيه وأن أداة التشبيه هى الكاف المقدرة والتقدير : خلتها فيها كخيال كواكب فى الماء .

مبحث أغراض التشبيه

هذا هو الركن الخامس من أركان التشبيه وهو الغرض منه أو الأسباب والدواعى التى تحمل الأديب على عقد التشبيه أو الغاية التى يرمى إليها البليغ بتشبيهه ويقصد إلى تحقيقها أو الفائدة التى يريد المتكلم أن يوصلها إلى السامع باستخدام الأسلوب التشبيهى . وهذه الأغراض تعود فى الغالب إلى المشبه وقد يرجع بعضها إلى المشبه به .

الأغراض العائدة على المشبه :

١ — بيان إمكان وجوده وذلك إذا كان المشبه من الأمور الغريبة التى يستبعد حصولها ويدعى استحالتها ، كما فى قول المتنبى :

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

ادعى المتنبى أن ممدوحه قد تناهى فى الصفات الفاضلة إلى حد صار به جنسا منفردا بذاته أشرف من جنس الإنسان وهو فى الواقع منهم ، وهذه دعوى بعيدة غريبة تحتاج إلى بيان إمكانها وإثبات أن لها نظيرا فى الموجودات الثابتة .. ولذا قال : « فإن المسك بعض دم الغزال » وعلى الرغم من أنه من جنس الدماء إلا أنه تناهى فى الصفات الشريفة إلى حد يتوهم لأجله أنه نوع آخر غير الدم لتفوقه بشرف رائحته .. والتشبيه فى البيت ضمنى ، المشبه : حال الممدوح فى تفوقه على أهل زمانه تفوقا صار به كأنه جنس منفصل عنهم ، والمشبه به : حال المسك فى تفوقه بشرف رائحته على الدماء حتى صار كأنه جنس آخر .

ووجه الشبه : خروج بعض أفراد الجنس بفضائله عن جنسه مع ملاحظة الأصل فى بقائه داخل الجنس بالانتساب إليه .

والغرض من التشبيه : بيان إمكان المشبه بإثبات نظير له كما بينا .

ومن ذلك قول البحترى :

دان على أيدى العفاة وشاسع عن كل ند فى الندى وضريب
كالبدر أفرط فى العلو وضوؤه للعصبة السارين جد قريب

وصف الممدوح بصفتين متناقضتين فى الظاهر ثم زال هذا التناقض الظاهرى بالمشبه به الذى بين أن لما ادعاه الشاعر نظيرا فى الوجود .

وقول ابن الرومى :

قالوا : أبو الصقر من شيبان قلت لهم
كلا لعمرى ولكن منه شيبان
كم من أب قد علا بابن ذرا شرف
كما علا برسول الله عدنان

فالمشبه : أبو الصقر وقد شرفت به قبيلته وتلك دعوى غريبة لأن العادة أن يشرف الفرع بالأصل لا العكس ولكن المشبه به وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد شرفت به عدنان أى العرب قاطبة قد أزال هذه الغرابة إذ بين أن لها نظيرا فى الوجود .

٢ - بيان حال المشبه بمعنى إيضاح صفته وذلك إذا كانت صفة المشبه مجهولة وحاله غير معلومة للمخاطب فيقصد المتكلم إلى بيان هذه الصفة وإيضاح تلك الحال . . من ذلك قول الأعشى :

كأن مشيتها من بيت جارتها
مر السحابة لا ريث ولا عجل

شبه مشية المرأة من بيت الجارة حين تزورها بمرور السحابة التى تحمل المطر والغرض بيان حال المشبه . وقول الآخر :

كأن سهيلا والنجوم وراءه صفوف صلاة قام فيها إمامها

شبه هيئة سهيل وقد تقدم النجوم بهيئة الإمام يتقدم الصفوف فى الصلاة والغرض بيان حال المشبه وإبراز هيئته .

ومن ذلك تشبيه الشعر بالليل فى السواد والوجه بالبدر فى الإشراق والخد بالورد فى الحمرة . فهذه التشبيهات أفادت المخاطب لون الشعر وإشراق الوجه وحمرة الخد فاتضح لديه حال المشبه وبانت عنده صفته .

٣ - بيان مقدار الحال وذلك إذا كانت صفته معلومة للمخاطب والمجهول مقدارها من القوة والضعف أو الزيادة والنقصان .

من ذلك قولنا : سواد هذا الشعر كسواد الليل وحمرة هذا الوجه كحمرة الورد . فالمخاطب يدرك من التشبيه هنا مقدار السواد والحمرة لا نفس الصفة ، ومنه قول الحسن بن وهب :

مداد مثل خافية الغـــراب وأقلام كرهفة الحداد(١)

فسواد المداد معلوم والتشبيه أفاد شدته ورهافة الأقلام معروفة والتشبيه أفاد عظم دقتها ، وقول الآخر :

فأصبحت من ليلى الغداة كقابض على الماء خانته فروج الأصابع

أفاد التشبيه مقدار حاله فى علاقته بفتاته وأنه بلغ أقصى غاية فى الحرمان وخيبة الأمل .

٤ — تأكيد حال المشبه وتقريرها فى نفس السامع . وذلك إذا كان كل

---

(١) الخافية : إحدى ريشات عشر فى مقدم الجناح يقال لها خوافى . والمرهفة : المدقة ، والحداد جمع حديد وهو القاطع يعنى السيوف القواطع .

من الحال ومقدارها معلومين وأريد بالتشبيه تأكيد اتصاف المشبه بالصفة كتشبيه من لا يحصل من سعيه على طائل بالراقم على الماء وبالقابض عليه . وتشبيه الحائر الذى يتخبط فى أمره بالتائه فى صحراء مظلمة . ومنه قوله تعالى: (وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ)(١) ، بين التشبيه فى الآية عالم تجر به العادة وهو رفع جبل الطور فوق رءوس اليهود بما جرت به العادة وهو الغمامة أو المظلة وذلك لتأكيد وتقرير هذا الأمر الحاصل .

وقول ابن الرومى :

يذل الوعد للأخـــلاء سمحا وأبى بعد ذلك بذل العطاء
فغـــدا كالخلاف يورق للعيـ ـن ويأبى الإثمار كل الإباء(٢)

فالشاعر بين فى البيت الأول صفة المشبه ومقدارها من بذل الوعود وعدم الوفاء بها ثم جاء بالمشبه به فى البيت الثانى ليقرر ذلك ويؤكده .

٥ ـ تزيين المشبه وتجميله . وذلك عند إرادة مدحه والترغيب فيه .
كقول النابغة مادحا :

فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وقول الآخر يصف جارية سوداء :

أكسبها الحب أنها صبغت صبغة حب القلوب والحدق

أبرز التشبيه فى البيتين تزيين المشبه للترغيب فيه .

٦ ـ تشويه المشـــبه وتقبيحه وذلك عند إرادة الذم والتنفير منه .
كقول الشاعر :

وإذا أشار محدثا فكأنه قرد يقهقه أو عجوز تلطم

وقول الآخر فى وصف مغن مقبحا صوته :

---

(١) سورة الأعراف آية ١٧١ .
(٢) الخلاف : صنف من الصفصاف وليس به . وهو يورق ولا يثمر سمى خلافا لأن السيل يأتى به صبياً فينبت من خلاف أصله .

وإن شدا فصوته صوت دجاج بمسك

وكقوله فى تشويه الأنامل وتقبيحها :

وترى أناملها دبت على مزمارها كخنافس دبت على أوتار

فهذه التشبيهات قد أبرزت المشبه فى صورة مشوهة قبيحة . وقد أشار ابن الرومى إلى الغرضين السابقين بقوله :

تقول هذا مجاج النحل تمدحه وإن تعب قلت ذا قىء الزنابير (١)

فعند إرادة تزيين الريق وتجميله قصفه بمجاج النحل وعند إرادة تقبيحه والتنفير منه نشبهه بقىء الزنبور .

٧ - إثارة الشعور باستحسان المشبه واستطرافه: وذلك بأن يكون المشبه به مما يندر خطوره بالبال لكونه لا وجود له فى الواقع أو للبعد بين المشبه والمشبه به فى الجنس . فيظهر المشبه عندئذ فى صورة الشىء العجيب الذى يثير فى النفس كوامن الاستحسان والإعجاب . من ذلك تشبيه فم فيه جمر متقد ببحر من المسك موجه الذهب ، وتشبيه محر الشقيق بأعلام من ياقوت منشورة على رماح من زبرجد ، وتشبيه النيلوفر بدبابيس عسجد قطبها من زبرجد ، وتشبيه النجوم فى أديم السماء بدرر نثرن على بساط أزرق . فى هذه التشبيهات نجد المشبه به من المركبات الخيالية التى يندر خطورها بالذهن ولذا برز المشبه فى صورة عجيبة مثيرة تثير فى النفس كوامن الاستحسان والإعجاب والاستطراف . ومن التشبيهات التى جمع فيها الشاعر بين طرفين متباعدين فى الجنس فأثار بهذا الجمع استحسان النفس واستطرافها للمشبه ، تشبيه الثريا بعنقود العنب المنور وتشبيه البرق بمصحف القارىء . وتشبيه زهر البنفسج بأوائل النار فى أطراف كبريت وتشبيه الفرس بجلمود الصخر (٢) .

---

(١) المجاج : الريق يزمى به من فمك ، ومجاج النحل : عسله ، والزنابير جمع زنبور وهو : ذباب أليم اللسع من النحل وغيره .

(٢) قد مرت بك هذه التشبيهات فارجع إليها .

فجيء المشبه به فى هذه التشبيهات من جنس بعيد عن جنس المشبه يجعل حضور المشبه به وخطوره بالبال نادراً عند حضور المشبه فيه ، الأمر الذى يحتاج من الأديب إلى إطالة النظر ليجمع بين الطرفين المتباعدين ومن هنا كان استحسان المشبه واستطرافه .

ومما جاء من ذلك أيضا قول عدى بن الرقاع :

تزجى أغن كأن إبرة روقه قلم أصاب من الدواة مدادها(١)

شبه الشاعر طرف قرن الظبية بقلم أصاب من الدواة مداداً ولا يخطر ببال أحد وبخاصة إذا كان بدويا أميا لم يمارس الكتابة والقلم ، لا يخطر بباله عند ما يرى قرن الظبية أقلام ومداد الدواة ولذلك نجد جريرا قد أشفق على عدى حين سمع الشطر الأول من البيت وقال : ماذا يقول هذا الأعرابى الجلف بعد ذلك وبم يشبه ؟ فلما قال : « قلم أصاب من الدواة مدادها » ، جاء بالمشبه به من مكان أبعد ما يكون صلة بالمشبه مع إحكام وجه الشبه بين الطرفين تحولت شفقة جرير على عدى إلى حسد له لأنه أحس بفطنته وبمقدرته على الإتيان بما لا يستطيع هو أن يأتى به(٢) .

وهكذا كلما تباعد الطرفان فى الجنس أثار التشبيه فى النفس كوامن الاستحسان والاستطراف لأنه يرينا الشيئين مثلين متباينين ومختلفين مؤتلفين ويرينا الصورة الواحدة فى السماء والأرض وفى خلقة الإنسان وخلال الروض ، ومبنى الطباع على أن الشىء إذا برز من مكان لم يعهد ظهوره منه وخرج من موضع ليس بمعدن له كانت النفس به أشغف وأعجب . وأعجب من هذا إذا شبه الشىء الواحد بضدين فى آن واحد كما يقال فى الممدوح : هو حياة لأوليائه موت لأعدائه وكقول أبى على محمد بن الحسين :

---

(١) تزجى : تسوق والضمير للظبية ، والأغن : الذى فى صوته غنة وهو ولدها ، والروق : القرن ، وإبرته : طرفه .

(٢) انظر الإيضاح جـ ٣ ص ٤٣ .

أنا نار فى مرتقى نظر الحا سد ماء جار مع الإخوان

وقول أبى تمام فى صفة الشيب :

له منظر فى العين أبيض ناصع ولكنه فى القلب أسود أسفع[1]

وتشبيه الشيء الواحد بضدين يبرز المشبه فى صورة عجيبة غريبة ويثير فى النفس كوامن الاستحسان والتعجب والاستطراف[2].

ما الذى يشترط فى وجه الشبه لتحقيق تلك الأغراض ؟ .

يرى بعض البلاغيين أن تحقيق تلك الأغراض وإفادتها إفادة تامة يقتضى أن يكون وجود وجه الشبه فى المشبه به أقوى وأتم وأشهر وأعرف من وجوده فى المشبه . فإذا قلنا : هذا الرجل كالأسد شجاعة ، وجب أن يكون وجود الشجاعة فى الأسد أقوى وأكمل من وجودها فى الرجل الشجاع وكذا يشترط أن يكون اتصاف الأسد بها أشهر وأعرف عند الناس وأظهر وأوضح لديهم من اتصاف الرجل الشجاع بها[3] .

ولكن الأرجح وما عليه أكثر البلاغيين أن هذا الحكم ليس على إطلاقه فالذى يشترط فى وجه الشبه كى تتحقق هذه الأغراض أن يكون وجوده فى المشبه به أشهر وأعرف وأظهر وأوضح لأننا نلحق الغامض بالواضح كى يتضح الغامض فإذا كان الوجه فى المشبه به أقل وضوحا منه فى المشبه ما صلح أن يكون بيانا له . أما من حيث القوة والكمال فالأمر يختلف حسب الغرض المراد من التشبيه فإذا كان الغرض تقرير وتأكيد ثبوت الصفة فلا بد أن يكون وجه الشبه أقوى وأتم فى المشبه به من المشبه لأن الضعيف لا يصلح أن يكون مؤكدا ومقررا لما هو أكمل منه وأقوى . وإذا كان

(١) الأسفع : الأسود المشرب بحمرة والاسم منه : السفعة .

(٢) انظر أسرار البلاغة ج ١ ص ٢٤٦ — ٢٤٨ .

(٣) انظر الإيضاح ج ٣ ص ٤٠ .

الغرض بيان المقدار فهو يحتاج إلى تساوى الطرفين فى وجه الشبه كى يتضح المقدار ولذا ينبغى أن يكون المشبه والمشبه به على قدر سواء فى الانصاف بوجه الشبه . وإذا كان الغرض بيان إمكان المشبه فيكفى لإثبات إمكانه أن يوجد المشبه به وأن يحصل فى الخارج قويا كان أو ضعيفا . أما إذا كان الغرض تزيين المشبه أو تقبيحه أو استطرافه أو بيان حاله فيكفى لتحقيق هذه الأغراض وضوح وجه الشبه فى المشبه به دون حاجة إلى زيادته وقوته ، بل قد يكون وجه الشبه فى المشبه أقوى وأكمل منه فى المشبه به كما فى قوله تعالى: (اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ)[1] إذ لا يتأتى أن يكون نور المصباح فى المشكاة أقوى وأكمل من نور الله جل جلاله ولا مساويا له بل هو أضعف منه وأنقص كما لا يخفى .

ومن ذلك قول أبى تمام فى مدح أحمد بن المعتصم :

إقدام عمرو فى سماحة حاتم فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

فالمقام يقتضى أن يكون اتصاف الأمير بأحد وجه الشبه أقوى وأتم من اتصاف هؤلاء المذكورين به ولذا لما أخذ على أبى تمام أن الأمير أكبر من أن يشبه فى ذلك بهؤلاء أنشد مرتجلا .

لا تنكروا ضربى له من دونه مثلا شروداً فى الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلا من المشكاة والنبراس

وخلاصة القول فى هذا أن وجه الشبه من حيث الشهرة والوضوح يجب أن يكون فى المشبه به أشهر وأعرف وأظهر وأوضح حتى يتحقق الغرض من التشبيه أيا كان هذا الغرض ومن حيث القوة والكمال يختلف وجوده حسب الغرض المراد من التشبيه كما بينا .

---

(١) سورة النور الآية ٣٥ .

نقد وموازنة :

وبناء على ما اشترط فى وجه الشبه ضعف النقاد قول البحترى فى وصف ظلام الليل وبيان مقدار سواده :

على باب قنسرين والليل لاطخ جوانبه من ظلمة بمداد(١)

أراد أنه سهر مع إخوانه على باب هذه المدينة بعد أن نام الناس وغابت أعين الرقباء واسودت جوانب الأفق ثم أراد أن يعبر عن شدة سواد الليل ومقدار حلوكه فشبهه بالمداد الأسود والمداد أقل شهرة فى صفة السواد من الليل كما أنه أقل منه فى شدة السواد وبهذا لا يكون التشبيه محققاً للغرض منه وهو بيان مقدار الصفة فى المشبه . واستحسنوا فى ذلك قول ابن الرومى :

حبر أبى حفص لعاب الليل كأنه ألوان دهم الخيل
يسيل للإخوان أى سيل بغير وزن وبغير كيل(٢)

حيث شبه الحبر بظلمة الليل فحقق بذلك الغرض من التشبيه وهو بيان مقدار سواد الحبر واستوفى الشرط الذى يقتضيه بيان المقدار من كون وجه الشبه فى المشبه به أشهر وأظهر إذ الليل أشهر فى الظلام من الحبر ، ومن وجوده على التساوى فى الشدة فى كل منهما . لأن الشاعر أراد المبالغة فى وصف الحبر بالسواد ، فسواد الحبر يساوى فى مقداره سواد الليل بناء على ما أراده الشاعر من المبالغة . وإلا فإن سواد الليل أشد .

الأغراض العائدة على المشبه به :

يعود الغرض من التشبيه على المشبه به عند قلب التشبيه . والتشبيه المقلوب هو الذى يجعل فيه ما هو الأصل فى وجه الشبه مشبها وما هو الفرع مشبها به .

(١) قنسرين : مدينة مشهورة بالشام قرب حلب .
(٢) لعاب الليل : المراد : ظلمة الليل وجعلها لعاباً ليجانس بينها وبين ما فى الحبر من سيولة . ودهم الخيل : سودها .

فهو يقوم أساساً على الفرض والتخييل والادعاء بجعل ماهو فرع فى وجه الشبه أصلا فيه وماهو أصل فرعا قصدا إلى المبالغة فى ثبوت وجه الشبه للفرع الذى صار أصلا . ولذا فإن الغرض العائد على المشبه به فى التشبيه المقلوب هو فى الواقع عائد على المشبه ، لأن المشبه به كان فى الأصل مشبها قبل أن يقلب التشبيه .

وأهم هذه الأغراض ما يلى :

١ — المبالغة فى اتصاف المشبه به بوجه الشبه وإيهام أن الوجه فى المشبه به أشهر وأقوى منه فى المشبه .

من ذلك قول ابن وهيب فى مدح الخليفة المأمون :

وبدا الصباح كأن غرته وجه الخليفة حين يمتدح

جعل ماهو أصل فى الضياء وهو الصباح مشبها وما هو فرع فيه وهو وجه الخليفة مشبها به قصدا إلى المبالغة فى إعلاء شأن المأمون وتأكيد مدحه بإشراق الوجه . وقول البحترى :

فى طلعة البدر شىء من محاسنها وللقضيب نصيب من تثنيها

جعل ماهو الأصل فى وجه الشبه وهو : طلعة البدر والقضيب مشبها وما هو الفرع فيه وهو محاسن الفتاة وتثنيها مشبها به بقصد المبالغة فى إثبات الوجه المشبه به ثم ازدادت هذه المبالغة بشىء خارج عن إفادة التشبيه وهو جعل ما فى البدر وما فى القضيب شيئا قليلا ونذرا يسيراً مما يوجد فى الفتاة . « شىء من محاسنها . نصيب من تثنيها » وقول الآخر :

وب ليل قطعته كصدود وفراق ما كان فيه وداع

جعل الصدود أصلا فى السواد والليل فرعا فيه وإن كان وجود السواد فى الصدود والفراق على طريق التخييل وفى الليل على جهة الحقيقة . ومنه قول

الله عز وجل : (إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا)[1] : جعل مستحلوا الربا البيع فرعا فى الإباحة والحل ، والربا أصلا فيهما وذلك قصداً إلى المبالغة فى إثبات إباحة الربا واستجابة لأطماع نفوسهم وشدة حرصهم على جمع المال من أى طريق . وقوله تعالى : (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ)[2] جعلهم الله لتماديهم فى عبادة غير الله وتسميتهم لهذه المعبودات آلهة بمنزلة من يعتقد أن من لا يخلق أحق بالعبادة ممن يخلق . ولذلك جعل من لا يخلق أصلا فى استحقاق العبادة فشبه به ، وجعل من يخلق فرعا مشبها على طريق التشبيه المقلوب مبالغة فى تصوير جهلهم وتماديهم فى الشرك . وكان الأصل أن ينكر عليهم جعلهم غير الخالق شبيها بالخالق فى استحقاق العبادة .

٣ - بيان شدة الحاجة إلى المشبه به كتشبيه الجائع « البدر » فى إشراقه واستدارته بالرغيف . وتشبيهه المسك فى طيب رائحته بالشواء ، وذلك تنبيها إلى شدة حاجته للرغيف والشواء ويسمى هذا الغرض « بإظهار المطلوب » وهو لا يحسن إلا فى مقام الطمع فى حصول الشيء الذى جعل مشبها به .

موازنة :

وردت تعبيرات التشبيه فيها ضمنى وتفيد هذه التعبيرات المبالغة فى المديح بإشراق الوجه وإضاءته كقولهم : لا أدرى أوجهه أنور أم الصبح . وغرته أضوأ أم البدر ونحو ذلك مما يفيد المساواة فى الإشراق والإضاءة بين الطرفين حتى أصبح من الصعب التفريق بينهما بالزيادة أو النقصان . كما ورد قولهم إذا أرادوا الإفراط فى المبالغة : نور الصباح يخفى فى ضوء جبينه ونور الشمس مسروق من نور وجهه ونحو ذلك مما يفيد أن نور الوجه والجبين تجاوزا فى الإضاءة والإشراق نور الصباح ونور الشمس . وعندما نقارن بين المبالغة فى هذه الأساليب وبين المبالغة فى بيت ابن وهيب .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٧٥ . (٢) سورة النحل آية ١٧ .

وبدا الصباح كأن غرته وجه الخليفة حين يمتدح

نجد أن المبالغة فى البيت قد فاقت المبالغة فى هذه الأساليب وذلك أنه فى المثالين الأولين وقفت المبالغة عند حد المساواة بين وجه الممدوح والصبح وبين غرته والبدر فى الإشراق والإضاءة فلم يصلا إلى مرتبة التشبيه فى البيت الذى أفاد أصالة وجه الخليفة فى الإشراق وجعل نور الصباح مقيسا عليه . وفى القولين الآخرين جاءت المبالغة على نقص القدر الذى جاءت عليه فى البيت مع فارق دقيق له اعتباره وهو أن المبالغة فى المثالين مبالغة صريحة مكشوفة ليست مبنية على أصل مسلم فى عقول الناس لأنها سيقت بأسلوب الخبر العام المتعرض للصدق والكذب . أما المبالغة فى البيت فهى مبالغة مستترة خفية حيث بنيت على أصل ثابت فى عقول الناس وهو أن المشبه به فى كل تشبيه أصل فى وجه الشبه والمشبه مقيس عليه . فمجىء المبالغة عن طريق التشبيه تجعل السامع يتلقاها بالقبول والاستحسان لبنائها على أصل معتبر وطريق متبعـــة ...

التشـــابه

بتأمل التشبيهات المتقدمة فى أغراض التشبيه نجد أن الناقص فى وجه الشبه قد ألحق بالزائد فيه بناء على ما تقرر من أن وجه الشبه يجب أن يكون أكثر وضوحا وظهورا فى المشبه به منه فى المشبه . وفى بعض الأغراض يجب أن يكون أقوى وأتم سواء كان وضوحه وتمامه حقيقيا كما فى الأغراض العائدة على المشبه أو ادعائيا كما فى الأغراض العائدة على المشبه به . . . فإذا لم يقصد بالتشبيه إلحاق الناقص بالكامل بل قصد تساوى الطرفين فى وجه الشبه بحيث يصلح كل واحد منهما لأن يكون مشبها ومشبها به دون ترجيح لأحدهما على الآخر . . فالأحسن عندئذ العدول عن صيغة التشبيه إلى صيغة التشابه ، كما فى قول أبى إسحاق الصابى :

تشابه دمعى إذ جرى ومدامتى ... فمن مثل ما فى الكأس عينى تسكب

فوالله ما أدرى أبالخمر أسبلت ... جفونى أم من عبرتى كنت أشرب (١)

أراد أن الدمع والمدامة تساويا فى الحمرة أو فى الصفاء مساواة جعلته لا يستطيع أن يميز بينهما ولذا عدل عن التشبيه واستخدم صيغة التشابه وقد أكد هذه المساواة بالبيت الثانى الذى أفاد وقوعه فى الحيرة وعدم التمييز بين الدمع المسكوب والخمر المشروبة .

ومنه قول الصاحب بن عباد فى الخمر أيضا :

رق الزجاج وراقت الخمر ... فتشابها فتشاكل الأمر

فكأنما خمر ولا قدح ... وكأنما قدح ولا خمر (٢)

---

(١) المدامة : الخمر سميت بذلك لأنه لا شراب يستطاع إدامة شربه غيرها . . والعبرة : الدمع . والتشابه بين الخمر والدمع إما فى الحمرة فيكون ادعائيا وإما فى الصفاء فيكون حقيقيا :

(٢) القدح الكأس . . . وكأن فى البيت الثانى للشك لا للتشبيه . . .

ادعى المساواة بين الخمر والكأس فى الصفاء فعدل عن التشبيه إلى التشابه ثم أكد هذه المساواة بالبيت الثانى الذى أفاد أنهما أشكلا عليه فلم يستطع أن يميز أحدهما من الآخر . .

ويجوز عند إرادة التساوى بين الطرفين فى الصفة استخدام صيغة التشبيه لأن العدول عنها إلى التشابه - كما قلنا - على جهة الأفضلية والاستحسان ، ولذا جاز استخدام صيغة التشبيه عند إرادة التساوى بين الطرفين بقطع النظر عن زيادة وجه الشبه فى أحدهما عن الآخر . . كتشبيه غرة الفرس بالصبح بقصد المساواة بينهما فى وجه الشبه وهو « ظهور منير فى مظلم » وقطع النظر عما يوجد من تفاوت بين قوة الإشراق وسعة مداه فى الطرفين . . وكذا تشبيه الصبح بغرة الفرس دون أن نعد ذلك من التشبيه المقلوب الذى يقتضى زيادة المبالغة . وكتشبيه الشمس بالمرآة المجلوة والمرآة المجلوة بالشمس لمجرد اجتماعهما فى الاستدارة والتلألؤ دون نظر إلى ما بين نور الشمس ونور المرآة من تفاوت . . وكتشبيه الشمس بالدينار الخارج من السكة فى قول ابن المعتز :

وكأن الشمس المنيرة دينا ... رجلته حدائد الضراب(١)

وتشبيه الدينار بالشمس دون نظر إلى ما بينهما من تفاوت فى الحجم ومقدار التلألؤ . . . وكذا تشبيه ظهور ضوء الصبح بين ظلام الليل بعلم أبيض على ديباج أسود فى قول ابن المعتز :

والليل كالحلة السوداء لاح به ... من الصباح طراز غير مرقوم(٢)

فقد نظر إلى مجرد حصول بياض فى سواد أكثر منه ولم ينظر إلى

---

(١) حدائد الضراب ، المراد بها آلات السك

(٢) الحلة : كل ثوب جديد أو الثوب مطلقا . . والطراز : علم الثوب والمرقوم : المخطط

التفاوت بين مقدار البياض فى الصبح ومقداره فى العلم الأبيض . . . وربما سأل سائل : إذا كان الطرفان متساويين فى وجه الشبه بغض النظر عما بينهما من زيادة أو نقصان فما الذى اقتضى جعل غرة الفرس مشبها والصبح مشبها به ثم العكس أو جعل الشمس مشبها والمرآة مشبها به ثم قلب التشبيه ما دامت المبالغة بالقلب غير مقصودة . . ؟

والجواب : أن الذى اقتضى ذلك ليس ملاحظة ما بين الطرفين من زيادة أو نقصان وإنما ملاحظة أخرى ترجع إلى مقام الكلام ومدار الحديث فإذا كان الحديث يدور حول الفرس جعلت غرته مشبها ، وإذا كان يدور حول الصباح جعل هو المشبه لأن الحديث عنه والغرض من التشبيه متوجه إليه .. وكذا القول فى الشمس والمرآة أو الشمس والدينار فإن كان الحديث يدور حول الشمس قدمت وجعلت هى المشبه لأن العناية منصبة عليها والحديث إنما هو عنها وإن دار الحديث حول الدينار أو حول المرآة قدم ما يدور حوله الحديث وجعل مشبها لأنه موضع الاهتمام والغرض من التشبيه متوجه إليه . . .

التشبيه الحسن والتشبيه القبيح

ينقسم التشبيه باعتبار الغرض منه إلى قسمين: تشبيه حسن مقبول وتشبيه قبيح مردود .

فالحسن المقبول : ما كان محققا للغرض الذى عقد التشبيه من أجله وافيا به بأن يكون وجه الشبه أشهر وأعرف فى المشبه به وذلك فى كل غرض من أغراضه . وأتم وأكمل إذا أريد تأكيد الصفة وتقريرها فى المشبه كتشبيه السفن بالجبال والرجل الضخم بالفيل . وإذا كان الغرض بيان المقدار فيجب أن يكون الوجه على درجه واحدة فى الطرفين . وإن كان الهدف بيان الإمكان وجب أن يكون وجه الشبه مسلما به فى المشبه به حاصلا فيه معترفا به من المخاطب . وإن كان الغرض من التشبيه عائداً على المشبه به فإن صفتى الوضوح والكمال تكونان أكثر فى المشبه به على طريق التخييل والادعاء . إلى آخر ما وقفنا عليه من حديثنا عن أغراض التشبيه .

أما القبيح المردود : فهو ما أخل بالغرض المقصود من التشبيه ولم يف به . إما لعدم وجود شبه بين الطرفين . أو لكون الوجه بعيداً أو غير واضح فى المشبه به . وإما لتنافى التشبيه مع الذوق السليم ومجافاته للطبع القويم . فمن ذلك قول الكميت :

كأن الغطامط من غليها أراجيز أسلم تهجو غفارا[1]

فقد عابه نصيب وقال له : «أخطأت ماهجت أسلم غفارا نطء» ومراده أن الواجب أن يكون التشبيه بشىء واقع معروف . وقول الفرزدق :

---

(١) الغطامط : صوت غليان القدر . وفى لسان العرب مادة « غطمط » : أسلم وغفار : قبيلتان كانت بينهما مهاجاة ، وبهذا يكون الكميت قد شبه بشىء واقع معروف فلا عيب فى البيت .

يمشون فى حلق الحديد كما مشت جرب الجمال بها الكحيل المشعل[1]

شبه الرجال فى حلق الحديد بالجمال الجرب وهو تشبيه بعيد لأنه إن أراد السواد فلا مقاربة بينهما فى اللون، إذ الحديد أبيض وإن أراد شيئا آخر فهو غير واضح... ومع مافيه من البعد ففيه أيضا سخف وغثاثة لتنافيه مع الذوق والطباع السليمة...

وقول المرار:

وخال على خديك يبدو كأنه سنا البدر فى دعجاء باد دجونها[2]

ورداءة هذا التشبيه ترجع إلى أن الخدود بيض والمتعارف عليه أن يكون الخال أسود فتشبيه الخدود بالليل والخال بسنا البدر تشبيه ناقض للعادة، ومخالف لما تعارف عليه الناس..

وقول أيمن بن خريم فى مدح بشر بن مروان: —

فإنا قد وجدنا أم بشر كأم الأسد مذكارا ولودا

فوجه الشبه: «مذكارا ولوداً» غير محقق فى المشبه به لأن أم الأسد ليست كذلك..

وقول أعرابى فى صفة الشيب:

ومازلت ترجو نيل سلمى ووصلها
وتبعد حتى ابيض منك المسايح

---

(١) الكحيل: القطران تطلى به الإبل وأشمل إبله بالقطران كثره عليها.

(٢) الدعجاء: السوداء صفة لموصوف محذوف والتقدير: ليلة دعجاء. ودجونها: سوادها.

ملا حاجبيك الشيب حتى كأنه
ظباء جسرى منها سنيح وبارح(١)

شبه الشعر الأبيض فى حاجبيه بظباء سوانح وبوارح وليس هنالك وجه شبه واضح بين المشبه والمشبه به . .

وقول آخر فى وصف روض : ..

كأن شقائق النعمان فيه ثياب قد روين من الدماء

فالتشبيه مصيب والوجه محقق ولكن العيب أتاه من بشاعة ذكر الدماء وهو بصدد وصف زهر جميل فى روض أنيق ..

وقول بعض الأعراب يصف شدة غيرته :

فلو رأتنى أخت جيراننا إذ أنا فى الدار كأنى حمار

شبه نفسه بالحمار فى شدة الغيرة . . فهم يقولون : « أغير من حمار » وهذا التشبيه وإن كان صحيحا فإنه لايحسن بالإنسان أن يشبه نفسه بالحمار لاسيما بلفظ الإطلاق كما فى البيت . . لأن هذا يتنافى مع الذوق السليم .

وقول أبى عون الكاتب فى صفة الخمر تهتز فى زجاجتها وقد علاها زبد:

تلاعبها كف المزاج بحبة لها وليجرى ذات بينهما الأنس
فتزبد من تيه عليه كأنها غريرة خدر قد تخبطها المس

فلو أن فى هذا كل بديع لكان مقيتا بشعا ... ومن ذا يطيب له أن يشرب شيئا يشبه زبد المصروع وقد تخبطه الشيطان من المس . . ؟

وقول الشنفرى يصف حركة السيوف فى القتال :

---

(١) للسانح : جوانب الرأس ، والسنيح والسانح : ماولاك ميامنه . والبارح : ماولاك مياسره ، ينفاءل بالأول ويتطير من الثانى .

تراها كأذناب الحسيل صوادراً وقد نهلت من الدماء وعلّت[1]

شبه حركة السيوف وقد ارتوت بدماء القتلى بحركة أذناب الحسيل عندما تلتقي بأمهاتها فهي تحرك أذنابها فرحة باللقاء .. ووجه الشبه وإن كان صحيحا وبخاصة إذا اعتبرنا أن لون الدماء قد قرب بين لون الأذناب ولون السيوف .. إلا أن الذوق السليم ينفر من مثل هذا التشبيه ..

ومن تلك التشبيهات المعيبة مامر بنا من قول ابن شرف القيروانى فى معاقبة البرىء وترك الجانى :

غيرى جنى وأنا المعاقب فيكم فكأننى سبابة المتندم

لعدم تحقق وجه الشبه فى المشبه به ..

و قول البحترى فى وصف مقدار سواد الليل :

على باب قنسرين والليل لاطخ جوانبه من ظلمة بمداد

لأن المشبه به وهو : «المداد» أقل شهرة واكتمالا فى صفة السواد من المشبه وهو الليل ..

هذا وقد عاب خصوم المتنبى قوله : ـ

بليت بلى الأطلال إن لم أقف بها

وقوف شحيح ضاع فى التراب خاتمه

إذ قالوا : أراد التناهى فى إطالة الوقوف فبالغ فى تقصيره فكم عسى هذا الشحيح أن يقف على خاتمه مهما بلغ شحه والخاتم مما لايخفى فى التراب إذا

---

(١) الحسيل : ولد البقرة ويطلق على الواحد والجمع .. صوادراً : رواجعا يقال صدر عن الماء وعن البلاد : رجع .. والصدر نقيض الورد .. نهلت : النهل أول الشرب .. وعلت : العلل : الشربة الثانية ، والشرب بعد الشرب تباعا .. يقال علل بعد نهل .. والمراد : ارتواء السيوف بدماء القتلى .

طلب، ولا يصعب الحصول عليه إذا فتش عنه .. وقد رد هذا القول بأن المتنبي أراد بالتشبيه : الصورة والصفة والهيئة التي يقف عليها بهذه الأطلال أي : لأقفن بها ذليلا خاضعا، خاشعا متأملا، كهيئة الشحيح في وقوفه بحثا عن خاتمه فإنه يقف ذليلا خاضعا متأملا ... أو أنه لم يرد التسوية بين الوقوفين ، في القدر والزمان والصورة ، وإنما أراد لأقفن وقوفا زائدا على القدر المعتاد ، خارجا عن حد الاعتدال، كما أن وقوف الشحيح يزيد على ما يعرف في أمثاله .

ونظيره قول الآخر :

وب ليل أمد من نفس العا شق طولا قطعته بانتحاب

فنفس العاشق مهما بلغ من الطول لا يمتد امتداد أقصر أجزاء الليل ، والشاعر إنما أراد : أن الليل زائد في الطول على مقادير الليالي كزيادة نفس العاشق على الأنفاس .

التشبيه الضمني

هو التشبيه الذي يفهم من المعنى ويتضمنه سياق الكلام . والفرق بينه وبين التشبيه الصريح أن التشبيه الصريح يوضع فيه المشبه والمشبه به في صورة من صور التشبيه المعروفة ، أما التشبيه الضمني فيلمح فيه الطرفان من المعنى ولا تبنى جملته على إحدى صور التشبيه التي عرفناها . وغالبا ما يكون المشبه به في التشبيه الضمني برهانا وتعليلا للمشبه .

انظر إلى قول أبي تمام :

لا تنكري عطل الكريم من الغنى
فالسيل حرب للمكان العالي

شبه حال الرجل الكريم المحروم من الغنى بقمم الجبال لا يستقر عليها ماء السيل ، ولم يأت التشبيه صريحا في صورة من صور التشبيه بل جاء ضمنيا مفهوما من معنى الكلام وقد وقع فيه المشبه به تعليلا للمشبه ، كما ترى .

ومثله قول أبي الطيب : ـ

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

شبه حال من اعتاد الهوان فسهل عليه تحمله بحال الميت لا يتألم إذا جرح، وقد فهم التشبيه من المعنى فهو تشبيه ضمني . . . ومن ذلك قول الفرزدق يهجو جريرا :

ماضر تغلب وائل أهجوتها أم بلت حين تقاطع البحران

شبه هجاء جرير «تغلب وائل» ببوله في مجمع البحرين فكما أن بوله في مجمع البحرين لا يؤثر فكذلك هجاؤه «تغلب» ، قوم الفرزدق لا يبدو له أثر .

ومنه قولنا : لا أدري: أوجه أنور أم الصبح .. وغرته أضوأ أم البدر .. ونور الصباح يخفى في ضوء وجهه .. ونور الشمس مسروق من نور جبينه .. وقول المتنبي : ـ

لم تلق هذا الوجه شمس نهارنا إلا بوجه ليس فيه حياء

وقول أبي نواس :

إن السحاب لتستحي إذا نظرت إلى ندالك فقاسته بما فيها

وقول البحتري : ـ

في طلعة البدر شيء من محاسنها وللقضيب نصيب من تثنيها

فهذه التشبيهات جميعها ضمنية وقد مرت بك من قبل فارجع إليها . .

ومنه قول الفرزدق :

قوارض تأتيني ويحقرونها وقد يملأ القطرُ الإناءَ فيفعَمُ

شبه ضمنيا القوارض تأتيه ويحتقرها القوم بالقطر الذي يملأ الإناء على صغر مقداره ، وهو يشير بذلك إلى أن الكثرة تجعل الصغير من الأمور كبيرا . .

مراتب التشبيه

إذا أراد المتكلم أن يعقد تشبيها بين أمرين ، فقد يذكر جميع أركان التشبيه ، وقد يحذف بعض هذه الأركان ، وتختلف مراتب التشبيه من حيث مايفيده من قوة المبالغة وشدة التخييل حسب ما يذكر من أركان التشبيه ..

فأولى هذه المراتب : ذكر الأركان الأربعة كقولنا : « زيد كالأسد شجاعة» ويفيد التشبيه عندئذ أصل المبالغة التى يحققها كل تشبيه ولا مجال فيه لتخيلات العقل وتوهماته .

المرتبة الثانية : حذف أداة التشبيه فقط كقولنا : محمد أسد شجاعة ، وحذف الأداة يفسح أمام العقل ميدان التوهم بأن المشبه والمشبه به شىء واحد .. فالتشبيه عندئذ يفيد قوة المبالغة ..

المرتبة الثالثة : حذف وجه الشبه فقط ، نحو محمد كالأسد ، وعندئذ تذهب النفس كل مذهب وتخيل أن المشبه والمشبه به يتحدان فى جهات كثيرة ، وإن كان المقصود اجتماعهما فى صفة واحدة .. وفى هذا إفادة لقوة المبالغة كالمرتبة الثانية .

المرتبة الرابعة : حذف أداة التشبيه والوجه معا نحو : محمد أسد ، وهذه المرتبة أقوى المراتب ؛ إذ المبالغة فيها مضاعفة ، لأن حذف الأداة أفاد أن المشبه عين المشبه به ادعاء وحذف وجه الشبه يجعل النفس تذهب كل مذهب فى تقدير الوجه ولهذا أطلق البلاغيون على هذا التشبيه اسم : التشبيه البليغ ..

ومما يجدر ذكره أن حذف المشبه فى أى مرتبة من تلك المراتب لا يؤثر فيما يفيده التشبيه من مبالغة ، ولا يخرجه عن مرتبته إلى مرتبة غيرها ، فإذا قلنا : كالأسد فى الشجاعة ، بحذف المشبه اعتمادا على قرينة ما ، لا تتغير مرتبة

هذا التشبيه فى إفادة أصل المبالغة ، ولا يخرج التشبيه عن مرتبته الدنيا بحذف المشبه .

هذا وتختلف منزلة التشبيه أيضا باختلاف الأداة المستعملة ، فقولنا : كأن زيدا أسد، أبلغ من نحو : زيد كالأسد . . . كما تختلف كذلك باختلاف وجه الشبه وطرفى التشبيه إفرادا وتركيبا وتعددا ، وعقلية وحسية ، على نحو مامر بنا فى هذا الفصل .

الفصل الثاني

الحقيقة والمجاز

حقيقة الأمر : يقين شأنه . . وحقيقة الرجل : مايلزمه حفظه ومنعه ويحق عليه الدفاع عنه، وجمعها حقائق .. والحقيقة في اللغة: ما أقر في الاستعمال على أصل وضعه والمجاز ما كان بضد ذلك ، وإنما يقع المجاز ويعدل إليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة: الاتساع والتوكيد والتشبيه .... فإن عدم هذه الأوصاف كانت الحقيقة البتة[1] .

فالحقيقة في اللغة : وصف على وزن « فعيل» إما بمعنى مفعول من قولنا : حققت الشيء أي : أثبته فهو حقيق أي : مثبت وإما بمعنى فاعل من قولنا : حق الشيء أي : ثبت فهو حقيق أي : ثابت . . قال عز وجل : « لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ »[2] .

والمعنى : لقد ثبت القول .. ثم نقل هذا اللفظ « حقيقة » من الوصفية وجعل اسما للكلمة المستعملة فيما وضعت له باعتبار أنها مثبتة فيما وضعت له أو ثابتة فيه ..

والتاء في لفظ « حقيقة » ليست للتأنيث إذ يجوز أن تقول : هذا اللفظ حقيقة ولو كانت للتأنيث لما صح أن يقال ذلك . . وإنما هي للدلالة على نقل الكلمة من الوصفية إلى الإسمية .

(١) انظر لسان العرب مادة حق ص ٩٤٢ .

(٢) سورة يس الآية ٧ .

الاســـــتعارة

منزلتها من البلاغة :

وقفت من خلال النماذج السابقة على بواعث روعة المجاز المرســـل وأسرار جماله ، ونأخذ الآن فى تتبع المحاسن البلاغية والأسرار البيانيـــة لركن أصيل من أركان البيان ، والشـــق الآخـــر للمجـــاز اللغوى ، وهى الاستعارة التى تضفى على الأساليب بيانا وروعة .

وقبل ان نأخذ فى تعريف الاستعارة وما يتصل بالتعريف من الكلام على انواعها ووجه ارتباطها بالمجاز وغير ذلك من الأمـــور التى تتعلق بها فانى ساعرض بين يديك مجموعة من التراكيب التى زادتها الاستعارة بهجة وجمـــالا .

ولنبدأ بالقرآن الكريم معجم البلاغة وكنز الفصاحة ، والـــذى لـــم يتمكن العرب وهم اهل اللسن والفصاحة ان يأتوا بسورة من مثـــله ، ثم نتبع ذلك بنماذج من الاستعارات فى كلام سيد البلغاء محمد ﷺ الـــذى يلى كلامه كلام رب العزة فى البلاغة والبيان ، ونعرض بعد ذلك لبعـــض الاشعار التى زانتها الاستعارات .

فمن ذلك قول الله عز وجل مخاطبا حبيبه ورسوله محمدا ﷺ طالبا ان يجهر بالدعـــوة إلى دين الله وان يتجاوز نطاق الأسرار إلى الإعـــلان الظاهر والإعلام الواضح « فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين »(١) المراد منه : بلـــغ ما امـــرت بـــه تبليغا بينا واضحا لا يتطرق إليه المحو .

---

(١) سورة الحجر : ٩٤ .

وقد استفيد هـذا المعنى من التعبير بلفظ : اصدع ، ونلاحظ أن لها معنيين : احدهما وهى مفردة بعيدة عن التركيب ، والثانى المعنى الـذى يفهم من سياق التركيب ، فمعناها مفردة : الكسر كصدع الزجاجة والمعنى الـذى يحدده التركيب هو التبليغ الواضح المؤثر ، فاستعمال الصـدع فى التبليغ البـين اسـتعمال غير حقيقى كما ترى ، وسـر العدول عن الحقيقة وهى : بلـغ إلى المجاز وهو : فاصدع . هو المبالغة فى التبليغ وأن يكون مصحوبا بهبة وناشئا عن نشـاط وقـوة ، لـذا كان التعبير المجازى (فاصـدع) أبلـغ من التعبير الحقيقى (فبلغ) لأن الصـدع بالأمر لابد لـه من تأثير كتأثير صـدع الزجاجة ، والتبليغ قد يصـعب حتى لا يكون لـه تأثير فيصير بمنزلة ما لـم يقع ، وقد كان هذا التجوز لعلاقـة بين المعنيين ، تلك العلاقة هى المشابهة ، إذ يتشابه التبليـغ والصدع فى التأثير والإيصال إلا أن الإيصال الـذى لـه تأثير كصـدع الزجاجة أبلـغ .

وقال تعالى : « إنا لـما طغى المـاء حملناكـم فى الجـارية »(٢) اى كثر وفاض فيضـانا شديدا ، أفاد ذلك التعبير « بطغى » المستعملة فى غير معناها الحقيقى ، ولا تؤدى كلمة : زاد أو عـلا أو كثر وغير ذلك من الالفاظ المستعملة فى معانيها الحقيقية هذا المعنى مما يشهد بفضل المجاز، والعلاقة بين الزيادة الحقيقية والطغيان المجازى هو المشابهة فى تجاوز الحد ، وفهمنا خروج الطغيان عن معناه الحقيقى الموضوع لـه فى اللغة إلى المعنى المجازى المراد وهو تجاوز الحد من إيقاع الطغيان على المـاء، فقد جرت العادة على نسبة الطغيان إلى الأشخاص ، وقـال عز وجل :

---

(٢) سورة الحاقة : ١٠ .

« ضربت عليهم الـذلة اينما ثقفـوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس »(٣).

يريد الله عز وجل ان يبين انهم قـد عاشـوا فى ذل وان الـذل اصـبح أمـرا ثابتا لهم فعبر « بضربت » لان الضرب فى الأصل : ضرب الطـين على الحائط فيلصق به ، أو ضرب الخيمة على من فيها ، ولو قيل : حصلت مكان « ضربت » لمـا تحقق ذلك المعنى ولما كانت تلك الفائدة ، فالتعبير « بضربت » افاد ملازمة الذلة لهم ، لـذا كان المجاز فى : « ضربت » ابلغ من الحقيقة فى « حصلت » لما يفيده من الدلالة على تثبيت ما حصل عليهم من الذلة كما يثبت الشيء بالضرب لان التمكين به محسوس ، والضـرب مع ذلك ينبىء عن الإذلال والنقض وفى ذلك شـدة الزجر لهـم والتنفير من حالهم . والعلاقة بين الحصول والضرب كما ترى هى : الثبات والملازمة والدليل على ان المراد من الضرب الثبات والملازمة هو : إيقاعه على : الذلة والمسكنة فهما معنيان لا يكـون فيهما ضرب إلا على سبيل التجوز ، وقـال تعالى : « واشتعل الرأس شيبا »(٤) اى كثر شيب الراس كثرة زائدة ، وانتشر انتشارا يصعب تلافيه كاشتعال النار افاد ذلك التعبير « باشتعل » ـ ودل على إنها مستعملة فى غير معناها الحقيقى اسنادها إلى الراس لأن الراس لا يشتعل ، وإنما يكون الاشـتعال للنـار(٥) ، وتتبين فضل المجاز وقيمته البلاغية فى هذا التعبير لو وضعت مكان الاشتعال ما يرادفه على وجه الحقيقة . وهو كثر او انتشر ـ فلا يمكن مهما بالغنا على وجه الحقيقة او اكثرنا من ذكر المترادفات أن يؤدى التعبير ما يؤديه المجاز ، والعلاقة بين الانتشار الحقيقى والاشتعال المجازى هو الكثرة والزيادة وهى

---

(٣) سورة آل عمران : ١١٢ .
(٤) سورة مريم : ٤ .
(٥) وذلك مجاز آخر فى إسناد اشتعل « للراس » ، وهى ليست الفاعل

قطعا فى الاشتعال أكثر لأنها لما كانت تتزايد تزايدا سريعا صارت فى الانتشار والإسراع كإشتعال النار ، وقال تعالى مصورا انتصار الحق مهما قل أتباعه على الباطل مهما كثر اشياعه « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق »(٦) فكلا من : « نقذف » و « يدمغه » قد أريد بهما غير معناهما الحقيقى بدليل تعلقهما بالحق والباطل ، إذ الحق والباطل المعنيان معقولان لا يتأتى فيهما قذف ودمغ إلا على سبيل التجوز ، ولو عبر القرآن بما يرادف القذف والدمغ من الالفاظ المستعملة فى معانيها الحقيقية لقال : بل نورد الحق على الباطل فيذهبه ، غير ان ذلك كما ترى لا يفى بقليل مما يمدنا به التعبير القرآنى المجازى ، لأن فى القذف دليلا على القهر ، لانك إذا قلت : قذف به إليه ، فإنما معناه القاه إليه على جهة الاكراه والقهر ، فالحق يلقى على الباطل فيزيله على جهة القهر والاضطرار لا على جهة الشك والارتياب ، وكذلك فإن يدمغه ابلغ من يذهبه لما فى يدمغه من التاثير فيه فهو اظهر فى الكناية واعلى فى تاثير القوة .

وقال تعالى : « عذاب يوم عقيم »(٧) اى مهلك لا يبقى شيئا بعده ، استفيد ذلك من لفظ : « عقيم » الذى دل وصف اليوم به على استعماله فى غير معناه الحقيقى ، لان العقم هو عقم الإنجاب ولا يتعلق بالايام او العذاب من الأمور المعنوية إلا على سبيل التجوز ، وتتبين قيمة المجاز واثره فى بيان ما فى هذا اليوم من هول لو عدت إلى التعبير الحقيقى وهو : لا ينتج خيرا ، فالعلاقة بينهما واضحة فى تشابههما فى احداث

الحقيقى ، وإنما هى مكان للاشتعال ففى الآية مجازان : لغوى فى « اشتعل » وعقلى فى « واشتعل الرأس » .

(٦) سورة الأنبياء : ١٨ .

(٧) سورة الحج : ٥٥ .

الهلاك ، إلا أنه في الأول أعظم وأبلغ لأنه دل على أن ذلك اليوم لا خير بعده للمعذبين ، فقيل : يوم عقيم ، أي لا ينتج خيرا .

وقال تعالى مصورا كمال قدرته في حركة الليل والنهار اللذين يسيران وفق نظام سوى وقانون دقيق فيتتابعان بدون توقف ، يتم ذلك كله بتسلسل وتمهل فتزول الظلمة رويدا رويدا ليعقبها اشراقة الصبح وتغرب الشمس لحظة بلحظة ليعم الظلام الكون ((وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون))(٨) فقد صورت كلمة (نسلخ) مدة العملية التي تتم يوميا وتعد أكبر دليل على قدرة الله عز وجل ، وإيقاع السلخ على النهار والليل برهان على انه مستعمل في غير معناه الحقيقي ، فهو في الحقيقة كشط الجلد وإزالته من الذبيح ، والعلاقة بين المعنيين تراها متمثلة في الإزالة التي تتم شيئا فشيئا ، فالشبه واضح بينهما وهو في المجازي أكثر وضوحا وبلاغة لأن السلخ إخراج الشيء مما لابسه وعسر انتزاعه منه لالتحامه به ، فكذلك قياس الليل ، فترى قيمة التعبير بالسلخ في إفادة ما سبق من المبالغة في عملية الفصل بين الليل والنهار على ما عرفت ومن توضيحها وتبينها بتصويرها بمنظير تراه العيون وتدركه الابصار ، إلى جانب الوجازة في التعبير وتتبين ذلك جليا لو عدت بالتعبير إلى سبيل الحقيقة فانك تقول : وآية لهم الليل يزول عنه النهار ببطء وتمهل .. فاغنانا عن ذكر ذلك التعبير بالسلخ .

ومن هذا الجانب ، جانب الآيات التي تصور قدرة الله الباهرة في تصريف الكون وتنظيمه قوله عز وجل : ((والصبح إذا تنفس))(٩) فإسناد

---

(٨) سورة يس : ٣٧ .
(٩) سورة التكوير : ١٨ .

التنفس إلى ضمير الصبح افادنا انها لغير معناها الحقيقى لان التنفس من خواص الحيوان أو النبات ، وبالموازنة بين هذا التعبير المجازى « تنفس » وبين مرادفه الحقيقى وهو : « بدء انتشاره » يتبين الاثر الذى اضفاه المجاز على الاسلوب ، وإن كانت العلاقة بينهما فى التشابه فى الابتداء ، إلا اننا نراها فى التنفس ابلغ لما فيه من الترويح عن النفس ، وقال تعالى: **« وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فاعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ... الآية »**(١٠) فيفيدنا تعلق : الخوض بالآيات على انه قصد به غير معناه الحقيقى . لان الخوض لا يكون إلا فى الماء ، ونتبين الاثر البلاغى للمجاز بالموازنة بين مرادفه الحقيقى وهو : « يستهزئون بآياتنا » ، فالتعبير بالخوض افاد المبالغة فى عدم احترامهم لايات الله وذكرها بالسوء ، كما انه اكثر وضوحا على ذلك لإخراجه إلى ما تقع عليه المشاهدة من الملابسة لانه لا تظهر ملابسة المعانى لهم كما تظهر ملابسة الماء لهم .

وقال تعالى : **(يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا)** (١١) الرقاد النوم وهو مستعمل فى غير معناه الحقيقى ، وحقيقته من مهلكنا ، والمجاز ابلغ لأن النوم اظهر من الموت ، واليقظة اوضح من الإحياء بعد الموت ، فالإنسان الواحد يتكرر عليه النوم واليقظة وليس كذلك الموت والحياة ، والعلاقة بين النوم والهلاك واضحة فى التشابه فى انعدام الاثر فى كل .

وقال تعالى: **(وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ونفخ فى**

---

(١٠) سورة الانعام : ٦٨ .
(١١) سورة يس : ٥٢ .

الصور فجمعناهم جمعا) (١٢) التموج فى الأصل مختص بالماء ، لذا صرف عن معناه الحقيقى وأريد به معنى آخر مجازى ، وبالموازنة بين مرادفه الحقيقى وهو يختلط يتبين قيمة المجاز وأثره فى تصوير شدة اضطرابهم والمبالغة فى حركتهم مع توضيح المعنى بابرازه فى صورة ملموسة مشاهدة ، لأن قوة الماء فى الاختلاط اعظم ذلك إلى جوار الايجاز الذى تجلى عن وجود المجاز والعلاقة واضحة بين المعنيين وهى : التشابه فى الحركة والاضطراب وإن كانت فى الموج اعظم كما بان لك . وقال تعالى (ولا يظلمون نقيرا) (١٣) (ولا يظلمون فتيلا) (١٤) فكل منهما مستعمل فى غير معناه الحقيقى ، ويفيدان المبالغة فى نفى وقوع أدنى شيء من الظلم للناس من الله عز وجل ، وإن دل مراد فهما الحقيقى وهو : « شيئا » على نفى وقوع الظلم قليلا كان او كثيرا فى الظاهر فإنه لا يتمكن من الحاق من « النقير » « والفتيل » الذين اكسبا المعنى وضوحا وظهورا بابرازه فى صورة ملموسة إلى جانب الإيجاز فى التعبير .

ومما ورد من الاستعارات فى الأخبار النبوية قوله ﷺ فى النهى عن الأخذ بمشورة الكافرين والاهتداء بآرائهم « لا تستضيئوا بنار المشركين ، اى لا تهتدوا برأى المشركين ولا تأخذوا بمشورتهم ، فالنار مستعملة فى غير معناها الحقيقى وافادت من المبالغة والإيجاز وتوضيح المعنى ما لا يخفى عليك وما لا ينهض المرادف الحقيقى بالقيام به .

---

(١٢) سورة الكهف : ٩٩ .
(١٣) سورة النساء : ١٢٤ .
(١٤) سورة

ومما ورد من ذلك فى كلام الشعراء قول مسكين الدارمى من شعراء الحماسة :

لحافى لحاف الضيف والبيت بيته
ولم يلهنى عنه غزال مقنع
أحدثه إن الحديث من القرى
وتعلم نفسى أنه سوف يهجع

فوصف الغزال بالقناع افاد انه لا يقصد به المعنى الحقيقى وهو الحيوان المعروف ، وإنما يراد زوجته الجميلة التى تضارع الغزال فى الحسن والجمال ومع ذلك فلا تصرفه عن الإهتمام بضيفه وتلطف مؤانسته ومسامرته .

وقال عبد السلام بن رغبان المعروف بدبك الجن :

لما نظرت إلى عن حدق المها
وبسمت عن متفتح النوار
وعقدت بين قضيب بان اهيف
وكثيب رمل عقدة الزنار
عفرت خدى فى الثرى لك طائعا
وعزدت فيك على دخول النار

فدلتنا كلمة : « بسمت » على ان متفتح النوار لا يراد بها معناها الحقيقى وإنما يقصد بها الاسنن البيضاء اللامعة ، وكذلك افادتنا لفظه « عقدت » على ان قضيب البان وكثيب الرمل لا يراد بهما معناهما الحقيقى وانما يقصد بهما القامة المعتدلة والمؤخرة الضخمة للتشابه بين القوام والقضيب فى الإعتدال وبين الفجيرة وكثيب الرمل فى الضخامة والعظم ، ولا يخفى عليك تبين الأثر الرائع الذى تجلى عن

تلك المجازات ، ولذلك يعلق عليها ضياء الدين بن الاثير بقوله : « وهذه الأبيات لا تجد لها فى الحسن شريكا ، ولأن يسمى قائلها شكورا أولى من أن يسمى ديكا »(١٥) .

وقال المتنبى حينما أنذر السحاب بالمطر وكان مع ممدوحه :

تعرض لى السحاب وقد قفلنا
فقلت إليك إن معى السحابا

نرى كلمة « السحاب » قد تكرر ذكرها ، فأريد بها السحاب الحقيقى المعروف فى الشطر الاول ، والممدوح فى الشطر الثانى لذا كانت فيه مجازية أريد بها الممدوح الذى يشابه السحاب فى الكرم ، والذى دلنا على خروجها عن معناها الحقيقى فى الثانى لفظ « معى » فإن السحاب لا يسير مع الإنسان . وإطلاق السحاب على الممدوح حقق لنا فوائد ما كانت لتتحقق بدونه ، من المبالغة فى كرمه وعطائه ، وتوضيح ذلك فى صورة مشاهدة مرئية وهى صورة السحاب الذى يجود بالغيث ، فضلا عن الإختصار فى الكلام والإيجاز فى التعبير فيفرق بين قوله : إن معى السحابا وبين مرادفه الحقيقى هو : « إن معى شخصا عظيم الكرم » أو لا جود لكرمه .

وبالنظر فيما سبق من الأساليب نرى أن كلا منها قد اشتمل على لفظة لها معنيان : احدهما ما عرفت به فى عرف اللغة وميزت به عن غيره وهو حقيقى ، والثانى معنى جديد روعيت فيه اعتبارات

---

(١٥) انظر : المثل السائر : ضياء الدين بن الاثير ٢/١٠١ تحقيق الدكتورين : الحوفى وطبانة .

وهو مجازى ، والأول غير مراد والثانى هو المقصود ، كما لاحظنا أن ثمة علاقة تمثلت بين المعنيين فساغ لنا أن نستخدم الأول فى الثانى ، وكان هناك فى الوقت نفسه دليل يرشدنا إلى المعنى المجازى المقصود وهو القرينة .

لقب علماء البلاغة هذا اللون من التعبير بالاستعارة حيث يستعار المعنى من الأول للثانى لعلاقة المشابهة بينهما كما تتيح صداقة محمد لعلى أن يستعير كتابا منه لفترة معينة ، ولما كانت هناك فى الإعارة الحقيقية دلائل تحدد المستعير والمستعار منه فانه تتعين كذلك فى الأسلوب المشتمل على استعارات وجود ادلة تحدد اللفظ المستعار ويشير إلى المراد منه ، هذا الدليل يطلق عليه البلاغيون : القرينة .

لذا عرف البلاغيون الاستعارة بانها اللفظ المستعمل فى غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين ما وضع له وما استعمل فيه مع قرينة مانعة من إرادة ما وضع له .

« الاستعارة مجاز لغوى علاقته المشابهة » :

عرفت فيما سبق من الأساليب أن التجوز كان فى المفردات ، حيث أريد بها غير ما وضعت له فى اللغة ، لذا كانت الاستعارة مجازا لغويا ، كالمجاز المرسل ، غير انها تختلف عن المجاز المرسل من ناحية العلاقة بين المعنى الحقيقى والمجازى . فالعلاقة بينهما فى الاستعارة المشابهة ، وفى المجاز المرسل غير المشابهة كالسببية والمسببية والكلية والجزئية ... الخ .

فالاستعارة والمجاز المرسل يلتقيان فى كون كل منهما مجازا لغويا ويفترقان من جهة العلاقة كما علمت ، وانت تعرف مما سبق الفرق

بين المجاز اللغوى الذى يضم الاستعارة والمجاز المرسل وبين المجاز العقلى ، إذ أن التجوز فى الأول يتصل بالألفاظ من جهة خروجها عما وضعت له فى اللغة والثانى يتمثل التجوز فيه فى الإسناد والتركيب باسناد الفعل إلى فاعله غير الحقيقى .

العلاقة

عرفت بذلك أن الاستعارة نوع من المجاز اللغوى كالمجاز المرسل ووقفت على الفرق بين المجازين اللغوى والعقلى ، وبين كل من الاستعارة والمجاز المرسل . فلنتكلم بعد ذلك على العلاقة التى تسوغ لنا نقل المعنى من لفظ إلى لفظ آخر فى الاستعارة ، لقد اشتمل التعريف على وجود علاقة بين اللفظين المستعار منه والمستعار له حتى تصح الاستعارة ، وتلك العلاقة هى المشابهة كما فهمت ولضياء الدين بن الأثير تعليل وجيه لضرورة وجود تلك العلاقة فى الاستعارة اللغوية بالقياس على العارية الحقيقية التى لا تتم إلا بين شخصين بينهما تعارف واتصال ، فيقول : وإنما سمى هذا القسم من الكلام (استعارة) لأن الأصل فى الاستعارة المجازية ماخوذ من العارية الحقيقية التى هى ضرب من المعاملة ، وهى أن يستعير بعض الناس من بعض شيئا من الأشياء ، ولا يقع ذلك إلا من شخصين بينهما تناسب معرفة ما ، يقتضى استعارة احدهما من الآخر شيئا ، وهذا الحكم جار فى استعارة الألفاظ بعضها من بعض ، فالمشاركة بين اللفظين فى نقل المعنى من احدهما إلى الآخر كالمعرفة بين الشخصين فى نقل الشىء المستعار من احدهما إلى الآخر(١٦) .

---

(١٦) انظر : المثل السائر ٢/٧٧ .

تلك العلاقة التي تبيح لنا التجوز على سبيل الاستعارة هي المشابهة بين المنقول منه والمنقول إليه ، اى المستعار له ، ففي قوله تعالى : والشعراء يتبعهم الغاوون . الم تراانهم في كل واد يهيمون . وانهم يقولون مالا يفعلون) (١٧) نستدل بكلمة « يهيمون » على ان لفظة « واد » مستعملة في غير معناها الحقيقي ، وان المراد بها الفنون والاغراض والمعاني التي يقصدها الشعراء ، ونبحث عن العلاقة بين الاودية الحقيقية وبين الاغراض الشعرية نراها تتمثل في التشابه في الإتساع والعمق وبذل المجهود في قطعها ، وخصت الاودية بالاستعارة ، ولم يستعر الطرق والمسالك او ما جرى مجراها لان معاني الشعر تستخرج بالفكرة والروية ، والفكرة والروية فيهما خفاء وغموض ، فكان استعارة الاودية لها اشبه واليق(١٨) .

فلابد من وجود علاقة المشابهة بين المستعار منه والمستعار له حتى تتم عملية الاستعارة ، ونفهم من ذلك ان الاستعارة تعتمد على التشبيه وتقوم عليه ، غير ان الاستعارة اكثر مبالغة من التشبيه ، وتفسير ذلك :

ان التشبيه يتفاوت قوة وضعفا من وجوه كثيرة منها استيفاء اركانه وعدم استيفائه لها ، فالتشبيه المتكامل الاركان في المرتبة الاولى من المبالغة لعدم احتياجه إلى اعمال الذهن وكد الفكر ، يليه في الابلغية ما حذف احد اركانه الاداة اووجه الشبه ، وفي المرتبة الثانية من حيث المبالغة يأتي التشبيه الذي حذف منه وجه الشبه

---

(١٧) سورة الشعراء : ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ .
(١٨) المثل السائر ٢/٩٧ .

وأداته كقولنا : محمد بحر ، وعلى صنديد ، وخالد أسد وهو مما يلقبونه بالتشبيه البليغ ، لأنه يخيل لنا أن المشبه عين المشبه به وكأن حديث التشبيه لم يجر على بال ، ولذا كان المجهود الفكري الذي يبذل في فهم هذه الصورة أكثر مما يبذل في غيرها الأمر الذي جعلها في درجة عالية من جهة المبالغة ، ذلك هو التشبيه البليغ الذي حذف منه الوجه والأداة فاستدعى قدرا من التفكير زائدا ، فما بالك إذا بالاستعارة التي لا تستبقي من أركان التشبيه إلا واحدا ، فهي أكثر إمعانا في التخيل وأشد عمقا في التناسي ، والقدر الفكري والمجهود العقلي الذي يبذل في تأملها والإحساس بروعتها يفوق بمرات ذلك الذي يتطلبه التشبيه البليغ ، انظر إلى قول الله عز وجل : **الر . كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد**) (١٩) . وتأمل فلا تتبين المراد من الظلمات والنور إلا بعد إعمال فكر وكد ذهن ، فتستدل بقوله : « أنزلناه إليك » على أن « الظلمات والنور » مستعاران للضلال والهداية لبيان الحالة التي كان عليها الناس قبل القرآن والتي أصبحوا عليها بعد أن عمتهم أنواره وانتفعوا بهديه ، لم تنته قطعا إلى ذلك الفهم إلا بعد مرجلة من كد الذهن كانت سببا في تقرير هذا المعنى في نفسك وتأكيده في وجدانك .

فالاستعارة مع اعتمادها على التشبيه كما رأيت تفترق عنه من جهة أن التخييل فيها أكثر والتناسي فيها أخفى مما يجعلها أدق التفاتا والطف بيانا وأكثر مبالغة لذا كان قولهم : (الاستعارة تبدأ من حيث ينتهي التشبيه) .

---

(١٩) سورة إبراهيم : ١ ، ٢ .

وضح لك مما سبق الفرق بين التشبيه والاستعارة من ناحيتي الشكل والمضمون ، فالاستعارة مع اعتمادها على التشبيه لا تستبقي منه إلا ركنا واحدا المشبه أو المشبه به ، فلا يصعب التفريق بينهما من جهة الشكل ، والمبالغة التي تقوم بها الاستعارة تفوق ما يصنعه أرفع أنواع التشبيه لما فيها من تناسي التشبيه وادعاء أن المشبه نفس المشبه به . فالفرق بين التشبيه والاستعارة ظاهر كذلك .

ومع وضوح تلك الفوارق بين التشبيه والاستعارة فإن حوارا كبيرا ثار بين علماء البلاغة والنقد حول صورة من صور التشبيه وهي ما يكتفى فيها بالمشبه والمشبه به ويحذف الوجه والأداة أهي تشبيه أو استعارة ؟ كقولك : فاطمة بدر ، وعائشة غزال . ولقد انقسموا في ذلك فريقين : فريق يرى أنها استعارة لعدم وجود أداة التشبيه التي تميز التشبيه عن الاستعارة ومن هؤلاء : أبو هلال العسكري ، وأبو الحسن الآمدي ، وأبو محمد الخفاجي وفريق ثان يرى أنها من التشبيه المضمر الأداة ، ومن هؤلاء : القاضي الجرجاني صاحب « الوساطة بين المتنبي وخصومه » ، وعبد القاهر الجرجاني ، وجار الله الزمخشري ، والسكاكي ، وضياء الدين بن الأثير وساقوا لذلك حججا متعددة .

والحق أن الأسلوب من قبيل التشبيه المضمر الأداة وليس من قبيل الاستعارة ، كما علل ضياء الدين بن الأثير لذلك بأن التشبيه المضمر الأداة يحسن معه إظهار الأداة بخلاف الاستعارة فلا يحسن ذلك فيها : فقولك : على أسد ـ تشبيه مضمر الأداة ، ولو ذكرت الأداة لما كان هناك قبح ولا عيب في ذكرها ، بخلاف الاستعارة فإن ذكر الأداة ودخولها على المستعار يزيل كل ما تجلى من بلاغة ويذهب كل ما حديث من بيان وروعة ، فيقول الشاعر :

فرمـــاء إن نهضـــت لحاجتهـــا

عجل القضيب وابطـــا الدعص(٢٠)

فالقضيب مستعار للقد ، بجـــامع الاعتدال والدعص مستعار للرداف بجـــامع الكبر والضخامة ووازن بين المعنى على تلك الصورة ، وبينه بعد دخـــول اداة التشبيه على المستعار فتقول : عجل قد كالقضيب ، وابطأ ردف كالدعص ـــ فإنك تحس بالفارق الشاسع والبون البعيد بين الاسلوبين من وجوه كثيرة اهمها : المبالغة والإيجـــاز .

فالتشبيه المضمر الاداة يحسن إظهار اداة التشبيه فيـــه ، امـــا الاستعارة فلا يحسن فيها ذلك .

وهنـــاك تعليل ثان متصل بما ســـبق على ان مثل : خالد اســـد وعلى بحـــر من قبيل التشبيه المضمر الاداة وليس من قبيل الاستعارة ، وهو أن ظهور المستعار له يذهب بروعة الاستعارة ، ويضـــيع بلاغتهـــا وجمالها ، ففي قول الواواء الدمشقي :

فامطرت لؤلؤا من نرجس وسقت

وردا وعضت على العناب بالبرد

يشـع الحسن ويفيض البهـــاء في استعارة اللؤلؤ للدمع والنرجس للعين والورد للخـــد والعنـــاب للانامل والبرد للاسنان ، ولم نصل قطعا إلى ذلك إلا بعـــد تروٍ وتأمل وتثبت ولو حاولنا ان نظهر المستعارات ، فإن الكلام يصبح غثا ثقيـــلا لا يحوجنا إلى فـــكر ، ولا يستدعي منـــا نظـــرا

---

(٢٠) الفرعاء التامة الشعر ، والدعص : قطعـــة من الرمل مســـتديرة او الكثيب .

بعـد أن زال بهاؤه ، وذهب حسنه نتيجـة إظهار المستعارات فنقول : « فامطرت دمعـا كاللؤلؤ من عين كالنرجس ، وسقت خـدا كالورد ، وعضت على انامل مخضوبة كالعنـاب باسنان كالبرد ، فبين الكلامين بون بعيد كما ترى فالذى يمنع من كونه استعارة ان الاستعارة مبنية على دعوى الإتحـاد : إتحـاد المشبه بالمشبه به ووجود المشبه فى الأسلوب يضعف هـذه الدعوى ، إذ يدل على انهما إثنـان وليسا شـيئا واحدا .

وامـر ثالث : يمنع من اطـلاق الاستعارة على هـذه الصـورة ويخصها بالتشبيه هو : انا إذا لم نجعل قولنا: محمد اسد تشبيها مضـمر الأداة ، فان المعنى يستحيل ، لان محمدا ليس اسدا ، وانما هو كالاسد فى شجاعته ، فاداة التشبيه تقدر ضرورة كى لا يستحيل المعنى .

فيستقيم لك ان صـورة التشبيه البليغ الذى حـذف منـه الأداة ووجه الشبه يترجح أن تكون تشبيها وبضعف كونها استعارة .

التناسب بين المستعار له والمستعار منه :

عرفت انه ينبغى لاتمام عملية التجوز وجـود علاقة بين المعنيـين الحقيقى والمجـازى ، وتختلف هـذه العـلاقة من مجـاز لآخـر فهى فى الاستعارة التشبيه كما رايت وفى المجـاز المرسل غير المشابهة كالسببية والمسببية والكلية والجـزئية والمحليـة واعتبار ما كان واعتبار ما سيكون إلى غير ذلك مما سبـق لك معرفته ، وهى فى المجـاز العقلى السببية او الفاعلية والمفعولية او الزمانية والمكانية .

ولمـا كانت الاستعارة كما علمت تستدعى قدرا من التفكير زائـدا للإحساس بروعتها واستشعار جمالها لمـا فيها من المبالغة الزائدة الناجمة من تناسى التشبيه وشدة التخيل فإنه يستحسن ان تكون علاقة التشـابه

بين الطرفين المستعار له والمستعار منه واضحة لا يعسر فهمها ، ولا يصعب تحديد المراد منها ، وأن يكون الشبه بين الطرفين مناسبا وجليا اما بنفسه كما في تشبيه القد بالغصن في الإعتدال ، لأنه يدرك بالحس ، وإما أن يكون جليا بحسب العرف ، كما في تشبيه الرجل الشجاع بالأسد ، لأن الأسد معروف بالشجاعة ، ولو لم يتحقق ذلك التناسب بين المستعار له والمستعار منه فإن الاستعارة تفقد قدرا كبيرا من روعتها ، وتصير ألغازا وتعمية لا استعارة وتمثيلا ، كما اذا قيل : رايت أسدا ، واريد إنسان أبخر ، وكما إذا قيل : رايت إبلا مائة لا تجد فيها راحلة ـ واريد الناس ، أو قيل : رايت عودا مستقيما او ان الغرس ، واريد إنسان مؤدب في صباه .

وكان لخفاء العلاقة بين المستعار له والمستعار منه سببا في إخراج كثير من الاستعارات من دائرة الحسن ، واستهجان النقاد لها . حتى إن ابن سنان الخفاجي المتوفى سنة ٤٦٦هـ . يرى أن الاستعارة ضربان : قريب مختار وبعيد مطرح ، وان القريب المختار منها ما كان بينه وبين ما استعير له تناسب قوي وشبه واضح ، والبعيد المطرح ما لم يكن كذلك .

ومن الاستعارات التي عابها النقاد لانعدام التناسب بين المستعار له والمستعار منه قول أبي نواس :

بخ بخ صوت المال مما منك يشكو ويصيح

نقول : بخ صوت المال من الكلام النازل ، ومراده من ذلك : أن المال يتظلم من إهانتك إياه بالتمزيق ، فالمس حبيب والتعبير عنه تبيح .

وقد كان مسلم بن الوليد اكثر توفيقا فى هذا المعنى حيث قال :

تظلم المال والأعداء من يده

لا زال للمال والاعداء طلاما

كذلك عاب النقاد قول ابى نواس :

ما لرجل المال امست

تشتكى منك الكلالا

وذكروا ان اضافة « الرجل » إلى « المال » اقبح من إضافة المصوت . ومن الاستعارات التى اطرحها النقاد لعدم التلاؤم بين المستعار منه والمستعار له قول ابى تمام :

وكم احرزت منكم على قبح قدرها

صروف النوى من مرهف حسن القد

فاضافة القد إلى النوى من البعد بمكان . وقد علق ابن سنان الخفاجى على هذه الاستعارة بقوله : « فإن إستعارة القد لصروف النوى من ابعد ما يقع فى هذا الباب واقبحه ، وإنما يقود ابا تمام إلى هذا وامثاله رغبته فى الصنعة ، حتى كأنه يعتقد ان الحسن فى الشعر مقصور عليها ، فيورد منه لأجل التكلف مالا غاية لقبحه ، ويمده الخاطر فى بعض المواضع فيأتى بالعجائب الغرائب(٢١) .

كذلك ورد قوله :

بلوناك ايا كعب فرضك فى العلا

فعال ، وأماخد مالك اسفل

---

(٢١) سر الفصاحة ص : ١٢٥ .

فقوله : « كعب عرضك » و « خد مالك » مما يستهجن ويستقبح ويستنكر ، ومرادهن من ذلك ان عرضك مصون ، ومالك مبذول ، إلا انه عبر عنه اقبح تعبير .

فوضوح الشبه والتناسب فى العلاقة بين المستعار منه والمستعار له امر ضرورى لصحة الاستعارة وركن اصيل لتوافر الحسن لها ، ولذلك قد يكون المستعار واحدا فى استعارتين مختلفتين وتحسن إحداهما ولا تحسن الاخرى لوضوح الشبه وتوافر التناسب أو فقده ، فقد استحسن النقاد قول ابى نصرين نباته :

حتى إذا بهر الأباطح والربا
نظرت إليك بأعين النوار

واستهجنوا قول ابى تمام :

قسرت بقران عين الدين وانشترت
بالاشترين عيون الشرك فاصطلما

وذلك على الرغم من ان المستعار واحد فيهما وهو العين ، لأن النوار والشرك لا عيون لهما على الحقيقة ، ومع ذلك قبحت إينابة العيون للثانى وحسنت للأول ، وعلة ذلك ان النوار يشبه العيون فالشبه واضح والتناسب موجود والدين والشرك ليس فيهما ما يشبهها ولا يقاربها .

القرينة :

لقد اشتمل التعريف على ضرورة وجود دليل فى الأسلوب الذى وردت فيه الاستعارة نستعين به على تحديد المعنى المجازى المراد

من اللفظ وانه مستعمل فى غير معنـــاه الحقيقى(٢٢) ، ويلقب البلاغيون هـــذا الدليل بالقرينة . وهى إما ان تفهم من فحـــوى الكلام ومن ســـياق التركيب بدون ان يكون لهـــا لفظ محـــدد وتسمى حينئذ حاليـــة . وذلك كما في قوله تعالى : (**او من كان ميتـــا فاحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منهـــا كذلك زيـــن للكافرين ما كانوا يعملون**) (٢٣) ففى الآيـــة الكريمـــة استعارتان فى « ميتـــا » و « احييناه » وهما قـــد استعيرتا للضـــلال والهدى ، والقرينة حاليـــة بدل عليها ســـياق الكلام . ومن ذلك ما قاله الحطيئة فى استعطاف سيدنا عمر رضى الله عنه ليطلقه من الحبس :

ماذا تقول لافـــراخ بذى مـــرخ
زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
القيت كاسبهم فى قعـــر مظلمـــة
فاغفر عليك سلام الله ياعمر(٢٤)

فقد استعار « افراخ » لأطفاله الصـــغار بجامع الحاجة إلى الرعاية والعناية واستعار كذلك « الكاسب » : الجارح من الطيور ، وليس فى الكلام لفظ اعتمدنا عليـــه فى تحـــديد المراد من اللفظين السابقين ، ولكن

---

(٢٢) والصرف الذهن من إرادة المعنى الحقيقى ، ويعرف ذلك بالقرينة التى لابد من وجودها بالمقـــال او بالحال فى جميع صور المجاز واساليبه : لغويا كان او عقليا .

(٢٣) ســـورة الانعـــام : ١٢٢ .

(٢٤) ذو مرخ واد بالحجاز ، زغب : جمع زغباء وهى ماخوذة من الزغب بالتحريك وهوصـــغار الشعر والريش ولينـــة ، والحواصل : جمع حوصـــلة وهى كالمعدة للإنسان ، الكاسب : الجـــارح من ذوات الصيد من السباع والطير .

شـــاهد الحـــال ومعرفتنا بقصة الحطيئة مع سيدنا عمر رضى الله عنـــه وأنه قال الشعر استعطافا له هو ما دلنـــا على أن اللفظين الســـابقين مستعملان فى غير معناهما الحقيقى .

وقد تكون القرينة لفظـــا اشتمل عليـــه التعبير فتسمى لفظيـــة . واجـــدا كان ذلك اللفظ ، كقوله تعالى : (**ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهـــم يرهبون**) (٢٥) فالسكوت مستعار لإنتهاء الغضب بجامع الهـــدوء المترتب على كل منهما ، والقرينة هى لفظـــة : « الغضب » وهى فاعل الفعل « سكت » فإسناده إليها دل على أن السكوت غير حقيقى .

وقوله تعالى : (**وإذ أمسه الشر فذ ودعاء عريض**) (٢٦) أى كثير ، فقد استعار العرض للكثرة ، لأن العرض أكثر مبالغـــة وتوضيحا ، وكلمة « دعاء » التى وصفت بالعرض هى التى حددت لنـــا المعنى الســـابق للعرض وأنه مراد به غير معناه الحقيقى . وكذلك قوله تعالى : (**إنا لمـــا طغى المـــاء حملناكم فى الجـــارية**) (٢٧) ففيه استعارة الطغيان للفيضان والزيادة كما ســـبق ذلك بجامع مجـــاوزة الحـــد فى كل منهما ، ولفـــظ المـــاء الذى وقع فاعلا « لطغى » أرشـــدنا ودلنا على ذلك .

وقـــد تكون أكثر من لفـــظ كقوله تعالى : (**وضربت عليهـــم الذلة والمســـكنة وباءوا بغضب من الله ..**) (٢٨) فالاستعارة كما عـــرفت فى

---

(٢٥) ســـورة الأعراف : ١٥٤ .
(٢٦) ســـورة فصلت : ٥١ .
(٢٧) ســـورة الحاقة : ١١ .
(٢٨) ســـورة البقـــرة : ٦١ .

« ضربت » وهى مستعارة لملازمة الذلة لهم ، ودلتنا كلمتا « الذلة والمسكنة » وهما نائب فاعل للفعل الذى وقعت فيه الاستعارة على أن الضرب لا يراد به معناه الحقيقى وهو ضرب الخيمة على من فيها أو ضرب الطين على الحائط فيلتصق به ، وإنما يراد به الثبوت والملازمة وهو مجاز عن المعنى السابق ويجمع بينهما التشابه فى الإحاطة واللزوم .

وكقول الشاعر :

فرعاء إن نهضت لحاجتها
عجل القضيب وابطأ الدعص

فالقضيب مستعار للقد بجامع الاعتدال ، والدعص مستعار للردف بجامع الضخامة كما عرفت ، ودل ذكر « فرعاء » وإسناد النهوض إلى ضميرها على أن « القضيب » و « الدعص » مستعملان فى غير معنيهما الحقيقى ، وقد تكون القرينة اللفظية مجموعة معان قد ضم بعضها إلى بعض ، كقول البحترى :

وصاعقة من نصله تنكفى بها
على أرؤس الأقران خمس سحائب

فقوله : « خمس سحائب » مستعار لأنامل الممدوح ، وعين ذلك الألفاظ السابقة عليه ، وهى « صاعقة » و « من نصله » « وتنكفى على أرؤس الأقران » فمنعت هذه الألفاظ مجتمعة على صرف « خمس سحائب » عن مدلولها الحقيقى ، وتحديد المعنى المراد منها . فالقرينة كما ترى تفيدنا شيئين هما : تحديد المعنى المجازى المراد من اللفظ ، وصرف الذهن عن إرادة المعنى الحقيقى ، وقد عرفت أنها تكون حالية تفهم من السياق أو لفظية ، بلفظ واحد أو اكثر من لفظ .

الفرق بين الاستعارة والكذب :

وإذا كانت القرينة افادتنا فى صرف اللفظ عن معناه الحقيقى ، وحددت لنا المعنى المجازى المراد منه ، فإنها فى الوقت نفسه تخرج الكلام الذى ورد فيه عن دائرة الكذب ، لأن الكاذب لا يقيم دليلا على خلاف ما يزعمه ذلك إلى جانب عملية التأويل فى الاستعارة ، فإن الكذب ليس فيه هذا التاويل .

ولما كنت عرفت أن الاستعارة تعتمد على تناسى التشبيه وإدعاء أن المشبه فرد من افراد المشبه به وداخل فى جنسه ، فقد يعترض على ذلك بأن وجود القرينة فى الاستعارة ينافى هذا الادعاء ويقلل من قيمته ، ففى قولك : شاهدت صاروخا يعبر القناة ، كيف يمكن التوفيق بين استعارة الصاروخ للجندى الشجاع الباسل وما يستتبع ذلك مما يفيده تناسى التشبيه من تخييل أن صاروخا حقيقيا يعبر القناة ، وقولك بعد ذلك : يعبر القناة ، الذى يعين أن « الصاروخ » مستعمل فى غير معناه الحقيقى ويراد به الجندى الحاسم .

لقد ذكر العلامة « ابو يعقوب السكاكى » صاحب مفتاح العلوم المتوفى سنة ٦٢٦هـ الإجابة عن ذلك بأن هذا الأسلوب وما شاكله من قولنا : رايت اسدا يرمى تبنى دعوى الأسدية للرجل فيه على إدعاء أن افراد جنس الأسد قسمان بطريق التاويل : متعارف : وهو الذى له غاية الجراة ونهاية قوة البطش مع الصورة المخصوصة ، وهى صورة الحيوان المفترس ، وغير متعارف ، وهو الذى له تلك الجراة وتلك القوة لا مع تلك الصورة ، بل مع صورة اخرى ،

وهى صـــورة الأسد غير المفترس ، على نحـــو ما فعل المتنبى حـــين عـــد نفســـه وجماعته من جنس الجـــن ، وجماله من جنس الطير قائلا :

نحن قوم ملجـــن فى زى نـــاس

فوق طـــير لهـــا شخوص الجمال

والمعنى الذى تقوم القرينة بصرفه وعدم إرادته هو المعنى المتعارف الذى يسبق إلى الفهم وهو صورة الحيوان المفترس ، فيتعين الآخر ، وهو صورة الأسد غير المفترس ، وحينئذ لا يكون هنـــاك منافاة بين الإصرار على إدعاء الأسدية ونصب القرينة على عدم إرادتهـــا لأن ما يصر عليـــه غير ما تمنع إرادته(٢٩) .

الاستعارة القريـــة والبعيـــدة :

علمت أن الاستعارة تعتمد على التشبيه ، إذ انهـــا مجـــاز لغـــوى علاقته المشابهة ، وقـــد مر بك عنـــ الكلام على التشبيه أن منه القريب والبعيد وأن المراد بالقريب هو التشبيه الســـهل المبتذل الذى لا يحتـــاج إلى مجهود فكرى فى التعرف على ملامحه ، لأن وجـــه الشبه مما يسرع حضوره إلى الذهن ، أو لقـــلة التفصيل فيـــه ، وأن التشبيه البعيد هو الذى يحتاج إلى كد الذهن وإعمال الفـــكر فى الوقوف على أسراره لدقة فى صـــياغته ولأن وجـــه الشبه فيـــه بعيد غريب لا يمر بالذهن إلا نادرا ولا يخطـــر على البـــال كثيرا أو لكثرة التفصـــيل فيـــه ، ولمـــا كانت الاستعارة تعتمد على التشبيه فإنهـــا تمر بالمراحل التى يمر بهـــا ، فمنها القريب النـــازل الذى يدرك ببديهة النظـــر ومنها البعيد الغـــريب الذى

---

(٢٩) انظر : بغيـــة الايضاح ص : ١١٦ وما بعدها .

لا يفطن له إلا الخواص ومن أوتوا ذهنا ارتفعوا به عن طبقة العوام .

ومرد القرب والبعد في الاستعارة هو نفس مرده في التشبيه وهو القرب والبعد في وجه الشبه ، وفي ذلك شيء من التفصيل ، فلنبدأ بالاستعارة القريبة ، والضرب الأول منها وأدنى الضروب قربا من الحقيقة . ما كان الجامع فيها داخلا في مفهوم الطرفين المستعار له والمستعار منه ، وان يكون معنى الكلمة المستعارة موجودا في المستعار له من حيث عموم جنسه على الحقيقة ، كاستعارة الطيران لغير ذي الجناح إذا اريد المبالغة في السرعة ، وانقضاض الكواكب للفرس إذا أسرع في حركته من علو والسباحة له إذا عدا عدوا كان حاله فيه شبيها بحالة السابح في الماء ، ومن ذلك ما ورد في الخبر : « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله كلما سمع هيعة طار اليها »(٣٠) وكقول امراة من بني الحارث ترثي قتيلا :

لو يشا طاريه ذو هيعة
لا حق الاطال نهد ذو خصل(٣١)

فلفظ « طار » في الحديث والبيت مستعار للعدو ، ويشترك الطيران والعدو في امر داخل في مفهومهما ، وهو قطع المسافة

---

(٣٠) يشا : اصله : يشاء ، والضمير فيه لمن يرثيه ، والهيعة : النشاط ، والاطال : جمع إطل : الخاصرة والمراد ضامر الجنبين ، والنهد : القوى ، والخصل : جمع خصلة هي : الشعر المجتمع ، تعني انه لو شاء لأتجاه ذلك الفرس .

(٣١)

بسرعة ، ولكن الطيران اسرع من العدو ، ونحوهما من استعارة الطيران للعدو قول بعض العرب :

فطرت بمنصلي في يعملات
دوامي الأيد يخبطن السريحا(٣٢)

اى مضيت مسرعا إلى نوق نجيبات نعتقرتهن فخبطن السير المشدودة على ارجلهن ومن الاستعارات القريبة لدخول الجامع في مفهوم المستعار له والمستعار منه استعارة فيض الماء لانبساط الفجر وظهوره في قول البحتري :

يتراكمون على الأسنة في الوغى
كالفجر فاض على قجيم الغيهب

فللفجر انبساط شبيه بحركة الماء ، وجعلهم كالفجر بالنظر إلى ما عليهم من الدروع اللامعة .

ومن هذا الضرب الأول من ضروب الاستعارة القريبة من الحقيقة استعارة التمزيق لتفريق الجماعة وابعاد بعضهم عن بعض في قوله تعالى : (ومزقناهم كل ممزق) (٣٣) واستعارة التقطيع كذلك لتشتت الجماعات في قوله تعالى : (وقطعناهم في الأرض امما) (٣٤) فالجامع فيهما داخل في مفهوم الطرفين بوضوح ، ومن ذلك استعارة النثر من كونه للأجسام الصغار كالحبوب والقطع الصغيرة لاسقاط المنهزمين وتفريقهم بلا ترتيب كما في قول أبي تمام :

---

(٣٢) المنصل : السيف : واليعملات : النوق المطبوعة على العمل جمع يعملة ، والسريح : السير الذي يشد على ارجلها .
(٣٣) سورة سبا : ١٩ .
(٣٤) سورة الاعراف : ١٦٨ .

وقد نثرتهم روعة ثم احدقوا

به مثلما الفت عقدا منظما

وقول المتنبي :

نثرتهم فوق الاحيدب نثرة

كما نثرت فوق العروس الدراهم

فالاستعارة في كل ما سبق من الوضوح بمكان ، لان وجه الشبه بين المستعار له والمستعار منه قريب وظاهر ومتحقق فيهما .

اما الضرب الثاني من الاستعارة القريبة فهو ما كان الجامع فيها واضحا وليس داخلا في مفهوم الطرفين كما في تشبيه إنسان يتهلل وجهه بالشمس فالجامع بينهما وهو التلالؤ والبهاء غير داخل في مفهومهما ، ومن ذلك قول المتنبي في مدح سيف الدولة :

احبك يا شمس الزمان وبدره

وإن لا مني فيك السها والفراقد(٣٥)

اي على الرغم من غيظ الحساد ممن هم اقل شانا منك فإن حبي لك دائم ، وفي البيت كما ترى اربع استعارات ، اثنتان منها في الشمس والبدر بجامع الظهور والتلالؤ ، واثنتان في السها والفراقد بجامع الصغر ، والجامع كما ترى من الوضوح والظهور بحيث لا يحتاج إلى فكر وتدبر وهو غير داخل في مفهوم الطرفين ومنه كذلك قوله في خطاب سيف الدولة :

---

(٣٥) السها : كوكب خفي يمتحن الناس به ابصارهم ، والفراقد : جمع فرقد وفي السماء فرقدان اثنان فقط وهما نجمان قريبان من القطب .

أيا أسدا في جسمه روح ضيغم

وكم أسد أرواحهن كلاب

أى أنك تماثل الأسد بجسمك وروحك ، ومظهرك ومخبرك فى الوقت الذى يوجد فيه من يماثلها من جهة الشكل فقط ، فالجامع وهو الشجاعة فى غاية الوضوح وغير داخل فى مفهوم الطرفين ، لذا كانت الاستعارة فيه من هذا الضرب الثانى من ضروب الاستعارة القريبة .

ومع اتفاق هذا الضرب مع ما سبقه فى وضوح الاستعارة وقربها فإنه يختلف عنه ويرتفع قليلا من جهة اختلاف الجنسين اللذين يتحقق الجمع بينهما فجنس الانسان غير جنس الشمس والأسد ، وليس كذلك الطيران وجرى الفرس فانهما جنس واحد يلاشيه ، وكلاهما مرور يقطع المسافة وإنما يقع الاختلاف بالسرعة .

فالاستعارة القريبة كما رأيته ما كان الجامع فيها واضحا ظاهرا يدرك بمجرد النظر من غير حاجة إلى تدبر وتمهل سواء أكان داخلا فى مفهوم الطرفين كالضرب الأول أو غير داخل فيهما كالضرب الثانى .

الاستعارة البعيدة :

فإذا ما كان الجامع بين الطرفين من اللطف والغرابة بحيث يحتاج إلى إعمال الفكر وإطالة التأمل فان الاستعارة تكتسب صفة البعد والغرابة ولا يدركها إلا الخواص الذين ارتفعوا عن طبقة العوام لصفاء ذهنهم وثاقب فكرهم ، وذلك يتحقق فى الجامع العقلى ، والشيخ عبد القاهر يرى أن مثل هذه الاستعارات التى يكون الجامع فيها عقليا هى الصميم الخالص من الاستعارة ، والمنزلة التى تبلغ عندها الاستعارة غاية شرفها ، ويتسع لها كيف شاءت المجال في تفننها وتصرفها ، فلا

يبصرها إلا ذوو الأذهـــان الصافية والعقول النافذة ، والطباع السليمة، والنفوس المستعدة لأن تعى الحكمـــة وتعرف فصل الخطاب(٣٦) .

وذلك كاستعارة النور للعلم والإيمان وللبيان والحجة الكاشـــفة عن الحق المزيلة للشـــك النافية للريب كما فى قوله عز وجل : « واتبعـــوا النور الـــذى أنـــزل معـــه »(٣٧) فالمراد من النـــور البيان القـــرآنى ، فالجامع بين الطرفين ليس واضحا محسوسا كما بـــين طيران الطـــائر وجرى الفرس والرجـــل الشـــجاع والأسد وإنما هو أمـــر عقلى يدرك بالتفكر والتدبر ، وبالتأمل نتبين أن المقصد من تشبيه البيـــان والحجـــة ونحوهما بالنور أن القلب إذا وردت عليه الحجة صـــار فى حالة شبيهه بحال البصـــر إذا صادف النـــور ووجهت طلائعه نحوه ، ومن ذلك قولك: فـــلان يتخبط فى أودية الظـــلام ، باستعارة الظلام للشبهة والجهل والكفر والضـــلال ، والوجه فيها عقلى يراد منه أن القلب يحصل بالشبهة والجهل فى صفة البصر إذا قيده دجى الليل فلم يجد منصرفا ، فيصير العقل بسبب الشبهة والجهل المانعين من إدراك الحقائق العلمية كالبصر إذا اشتدت على صاحبه ظلمة الليل فـــلم يدر أين يذهب ، وكذلك فى استعارة الظـــلمة للضـــلال والكفر فـــلان صاحبهما كمن يســـعى فى الظلمة فيذهب فى غير الطريق وربما دفع إلى هلك وتردى فى أهوية . فالشبه فى كل ما مضى عقلى والمستعار منه محسوس والمستعار لـــه معقول والوجه عقـــلى ، ومثله من استعارة المحسوس للمعقول والوجه عقلى استعارة القسطاس للعدل فى قولك : فـــلان يحـــكم بالقسطاس ، وكما يقال عن النحـــو :

---

(٣٦) انظر : أسرار البلاغة ص ٤٥ وما بعدها .
(٣٧) سورة الأعراف ١٥٧ .

انه ميزان الكلام ومعياره ، فالشبه ماخوذ من جسم يحس ويشاهد لمعنى يعلم ويعقل والوجه عقلى .

وقد يؤخذ الشبه من محسوس لمحسوس . فيكون المستعار منه محسوسا والمستعار لـه مثله والوجه عقلى ، كقولـه ﷺ : « إياكم وخضراء الدمن ، قيل وما ذاك ؟ قال : المراة الحسناء فى المنبت السوء »(٣٨) فالمستعار منه ما ثبت فى الدمن من الكلا والمستعار لـه المراة الحسناء فى المنبت السوء وكلاهما جسم يحس ويشاهد ، إلا انـه لم يقصد بالتشبيه لون النبات وخضرته ولا طعمه ولا رائحته ولا شكله وصورته ولا ما شاكل ذلك بل القصد شبه عقلى بين المراة الحسناء فى المنبت السوء وبين تلك النابتة على الدمنة وهو حسن الظاهر فى رأى العين مع فساد الباطن ، وطيب الفرع مع خبث الأصل .

وقد يكون المستعار منه معقولا والمستعار لـه كذلك ووجه الشبه عقلى ، كقول الشاعر :

وإذا تباع كريمة او تشترى

فسواك بائعها وانت المشترى

اى فى الوقت الذى يتخلى كثير من الناس عن الصفات الطيبة فإنك لا تتوانى عن إحراز الفضائل وتحصيل المكارم ، فالبيع والشراء مستعاران للترك والحصول والجامع عقلى والطرفان كذلك . ومن هذا القبيل استعارة العدم للوجود الذى لا نفع وراءه فى قولك : رأيت معدوما يمشى فى الطريق اى إنسانا وجوده كالعدم ، واستعارة الوجود للعدم الذى

---

(٣٨) الدمن : جمع دمنة ، وهى الموضع الذى فيه السرقين (الزبل) وكذلك ما اختلط من الماء والطين عند الحوض .

بقيت آثاره الجميلة فى قولك : زرت موجوداً فى قبره تقصد ميتا بقيت آثاره الجميلة التى تحيى ذكره وتديم فى الناس اسمه . فالمستعار منه ممتول والمستعار له كذلك ووجه الشبه عقلى .

فترى ان الاستعارات فيما سبق كانت من اللطف والبعد بحيث لا يدركها إلا القلة من أصحاب الفهم الثاقب والفكر النير لكون الجامع فيها عقليا ، وهذا هو الضرب الاول من ضروب الاستعارات البعيدة .

الضرب الثاني من الاستعارات البعيدة : ما كان الجامع بين المستعار منه والمستعار له غريبا بعيدا لا يدرك بمجرد النظر بل بعد تأمل وتدبر كما فى قول طفيل الغنوى يصف نفسه بكثرة الاسفار :

وجعلت كورى فوق ناجية
يقتات شحم سنامها الرحل(٣٩)

فقد استعار « الاقتيات » لإذهاب الرحل شحم السنام بجامع النقص المترتب على كل منهما ، ولما كان الشحم مما يصلح للقوت ، والرحل ينقص منه ابدا ويذيبه فقد وفق الشاعر فيما عناه ، فالغرابة فى وجه الشبه آتية من جهة ان فيه تخييلا بأنه يجرى على الحقيقة ، ومن الاستعارة القريبة لغرابة وجه الشبه فيها قول ابن المعتز :

حتى إذا ما عرف الصيد الفجر
وأذن الصبح لنا فى الإبصار

اى إذا تهيأ لنا ان نبصر ، فقد استعار الإذن لا مكان الرؤية بجامع

---

(٣٩) الكور : رجل البعير ، الناجية : الناقة السريعة .
(٤٠)

ما يترتب على كل منهما من مزاولـــة ما كان محظـــورا ، ولما كان تعذر الإبصار منعا من الليل جعل إمكانه عند ظهور الصبح إذنا ، فالجامع كمـــا ترى غريب لا يدرك بمجرد النظر . لـــذا كانت الاستعارة غريبة ونادرة .

الضرب الثالث من الاستعارات البعيدة : ما كان التشبيه فيها نادرا لبعد ما بين الطرفين ، على غرار التشبيه البعيد ، بأن يكون المشبه بـــه موجودا بكثرة لكن يندر حضوره إلى الذهن ومروره بالخاطر عند حضـــور المشبه لبعد المناسبة بينهما ، كما فى قول يزيد بن مسلمة بن عبد الملك يصف فرسا له بأنه مؤدب ، وانـــه إذا نزل عنه ، والقى عنانه فى قربوس سرجه وقف مكانه إلى أن يعـــود إليه :

عودتـــــه فيمـــا ازور حبائـــبى
إهمالـــه ، وكـــذاك كـــل مقاطـــر
وإذا احتـــبى قربوســـــه بعنانـــه
علك التســـكيم إلى إنصـــراف الزائـــر

فالاستعارة فى (احتبى) وأصله : جمع الرجل ظهره وساقيه بثوب ونحوه وقد استعير لجمع القربوس وجانبى فم الفرس بالعنان ممتدا من القربوس إلى جانبى الفم ، بجامع إحاطة شىء لشيئين ضاما أحدهما إلى الآخـــر ، واحدهما أعلى والآخر أسفل ، ويقصد بالزائر نفســـه على سبيل الالتفات ليدل على كمال أدب فرســـه ، وانه لا يبرح مكانـــه وإن طال مكثه عـــند من يزوره ، فترى أن المستعار منه موجود بكثرة غير انه يندر حضوره إلى الذهن عند حضور المشبه لبعد المناسبة بينهما ، فاحدهما من وادى القعود والآخر من وادى الركوب ، وقد انضم إلى ندرة التشبيه كثرة التفصيل فى وجه الشبه فاجتمع فى الاستعارة سببا البعد فى التشبيه البعيد الغريب

وهما : ندرة التشبيه وكثرة التفصيل فى وجه الشبه لـذا كانت من الدقة والغرابة بحيث لا يدركها إلا أولو النظر السديد والفهم الأريب .

تحول الاستعارة العامية القريبة إلى خاصية بعيدة :

عرفت أن التشبيه القريب يمكن تحويله إلى بعيد غريب إذا ما أضيفت إليه من الصنعة البيانية والبديعية بحيث يبعد عن الأذهان ويعلو على الأفهام فلا ينقاد إلا للمرون ، كذلك الاستعارة وهى كما عرفت تعتمد على التشبيه فى جميع أحوالها ، فالاستعارات القريبة النازلة تتناولها الملكات المبدعة فتغير طريقها وتجدد كساءها وتجعلها فى أعلى المنازل وأسمى الدرجات ، انظر إلى قول كثير عزة :

ولما قضينا من منى كل حاجة

ومسح بالأركان من هو ماسح

وشدت إلى دهم المهارى رحالنا

فلم ينظر الغادى الذى هو رائح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا

وسالت بأعناق المطى الأباطح(٤١)

يريد أن الإبل سارت سيرا حثيثا فى غاية السرعة ، وكانت سرعة فى لين وسلاسة حتى كأنها كانت سيولا وقعت فى تلك الأباطح فجرت بها ، وقد دل على ذلك قوله : « وسالت بأعناق المطى الأباطح » فالاستعارة فى قوله : سالت ـ والسيلان هو مرور الماء بسرعة ، وقد استعارها لقطع المسافة بسرعة ، وهى استعارة قريبة لا تغيب عن

---

(٤١) دهم : جمع أدهم وهو الأسود . المهارى : الإبل : جمع مهرية ؛ الأباطح : جمع أبطح ، وهو مسيل الماء فيه دقائق الحصى .

أفهام العوام . لكثرة استعمالها وظهور جنسها ، لكن الشاعر استطاع أن يخرجها من القرب والإبتذال إلى البعد والغرابة بما اضفاه عليها بهذا التصرف البديع ، فقد أسند الفعل (سالت) إلى (الأباطح) وهى المكان الذى تسير فيه المطى من اسناد ما(للحال إلى المحل)على سبيل المجاز العقلى،للاشعار بشدة سرعة الإبل وكثرتها وانها ملأت الأباطح حتى ليتخيل الناظر أن الأباطح هى التى تسير،ولم يكتف الشاعر بهذا التجوز،بل ادخل الأعناق فى السير مع تعدية الفعل إليها بالباء ، لأن السرعة والبطء يظهران غالبا على الأعناق،وبهذا التصرف البديع خرجت الاستعارة كما ترى من القرب والإبتذال إلى البعد بحيث لا يقف على دقائقها ولا يدرك سرها إلا ذوو الاذهان الصافية والمشاعر الرقيقة . وتستطيع أن تتبين ذلك عمليا لو وازنت بين الاسلوب خاليا من هذا التصرف فقلت : وسارت الإبل سيرا حثيثا حتى كأنها كانت سيولا وقعت فى تلك الأباطح فجرت بها، وبينه بعد أن تصرف فيه بما سبق من قول الشاعر : وسالت بأعناق المطى الأباطح ـ فإنك تدرك البون البعيد بين الأسلوبين ، والأثر البلاغى الذى صنعته الاستعارة فى قول الشاعر من الإيضاح والمبالغة والإيجاز .

ومثل هذه الاستعارة فى الحسن وعلو الطبقة فى هذه اللفظة بعينها قول ابن المعتز :

سالت عليه شعاب الحى حين دعا
أنصاره بوجوه كالدنانير

أراد أنه مطاع فى الحى ، وأنهم يسرعون إلى نصرته ، وأنه لا يدعوهم لخطب إلا أتوه وكثروا عليه وازدحموا حواليه حتى تجدهم كالسيول تجىء من هنا وهنا ، وتنصب من هذا المسيل وذاك ، حتى يغطى بها

الوادى دل على ذلك قوله : (سالت عليه شعاب الحى ...) فقد استعار السيلان لإقبالهم عليه مسرعين ، والاستعارة كما علمت قريبة يدركهـا الخاصة والعامة لكثرة استعمالها وظهور جامعها ، ولكنه تمكن من إخراجها من دائرة الامتهان إلى مرتبة الحسن والإبداع بما أضاف إليها ، إذ اسـند (سالت) إلى الشعاب دون الأشـخاص الذين حقـه ان يسند إليهـم من إسناد ما للحال إلى المحل على سبيل المجاز العقلى للاشعار بكثرتهم حتى ليتخيل انرائى أن الشعاب هى التى تسـير ، ولـم يكتف بذلك بـل أدخل الوجوه فى السـير ، لأن السرعة والبطء يظهران عليها كالأعناق فى الإبـل ، وعدى الفعل إلى ضمير الممدوح (بعلى) فاكد مقصـوده من كونه مطاعا فى الحى ، وبذا صـارت الاستعارة من الدقة بمكان ويمكنك ان تدرك قيمة هـذا التصرف لو عـدت بالاسلوب إلى وضـعه الأول قبل إضافة هـذا التصرف إليـه فقلت : سالت الأنصـار فى شعاب الحى ، فإن بين الاسلوبين بونـا بعيدا ، وفرقا كبيرا(٤٢) .

الجمع بين الاستعارات :

كما تخرج الاستعارة القريبة المبتذلة إلى البعد والغرابة بالجمـع بين عـدة استعارات لإلحاق الشكل بالشكل فيشـتد أزرها ويقـوى ساعدها ، ومن ذلك قول امرىء القيس فى وصف الليل :

وليـل كمـوج البحر أرخى سدوله

علي بأنـواع الهمـوم ليبتـلى

---

(٤٢) انظر : دلائل الإعجاز ص ٥٩ ، وبغية الإيضاح ص ١٢٨ .

فقلت لـه لمـا تمطـى بصـــلبه

واردف اعجـــازا ونـــــاء بكلكـــل(٤٣)

فقد استعار الصلب لوسط الليل ، والاعجاز لأواخـــره ، والكلكل لأوائل الليل ، وبهذه الاستعارات الثلاث تم للشـــاعر ما اراد كما يذكر الشيخ عبد القاهر ، من تصوير ما يراه الناظر من سواد الليل ، إذا نظر امامـــه وإذا نظر خلفه ، وإذا رفع البصر ومده فى عرض الجو بصورة البعـــير على ابلغ وجوهها وادقها(٤٤) . فاستعارة الكلكل لأوائل الليل والصلب لوسطه والاعجاز لأواخره من الاستعارات القريبة لظهور جامعها ، واستطاع الشاعر أن يخرجها إلى دائرة البعد والغرابة بأن جمعها لموصوف واحد، فقوى ساعد كل منها بالأخـــرى واشتد ، ولم يكتف بهـــذا ، بل جعـــل (الصلب) يتمطى ، والأعجاز تردف ، والكلكل ينوء ويثقل فأجاد فى رسم الصورة ، حتى اضحت لا تنقاد إلا للمروين .

وخلاصة ما سبق ان مرد القرب والبعد فى الاستعارة إلى القـــرب والبعد فى التشبيه من قلة التفصيل فى وجه الشبه ووجوده بكثرة ، وكثرة التفصيل فيه وندرته حيث تعتمد الاستعارة على التشبيه ، وأن المـــراد بالبعد فى الاستعارة كما اريد بـــه فى التشبيه ليس البعـــد الناتج عن الالغـــاز والتعمية والتعقيد وإنما هو البعد الناشيء عن الدقـــة فى تصريف المعانى وإلباسها جيد العبارات بحيث لا يدرك اسرارها إلا من رزق مـــن الفهـــم حظـــا .

---

(٤٣) السدول : الاستار ، ليبتلى : ليختبر ، تمطى : تمدد ، الصلب : العمود الفقرى ، اردف : اتبع ، الاعجاز : جمع عجز : مؤخر الشيء، ناء بالحمل : انقله ، الكلكل : الصدر .

(٤٤) انظر : بغية الإيضاح ص ١٢٩ ، والبلاغـــة التطبيقيـــة ص ١٤٢ وما بعدها .

الاستعارة الأصلية والتبعية :

١ ـ الاستعارة الأصلية :

قال تعالى : ((كتاب انزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد)) مرت بك هذه الآية وعرفت أن الظلمات والنور مستعارتان للضلال والهدى بقرينة (انزلناه إليك) والظلمات والنور اسمان جامدان .

وقال المتنبى :

حملت إليه من لسانى حديقة
سقاها الحجا سقى الرياض السحائب

فكلمة (حديقة) مستعارة للشعر الجميل ، ودل على ذلك قوله (من لسانى) وهى كذلك جامدة غير مشتقة .

وقال المتنبى كذلك فى مطلع قصيدة يمدح بها بدر بن عمار :

فى الخد ان عزم الخليط رحيلا
مطر تزيد به الخدود محولا(٤٥)

فكلمة (مطر) مستعارة للدموع الغزيرة بقرينة (فى الخد) وهى كذلك جامدة .

وتقول : زرت اليوم حاتما ، تقصد بحاتم رجلا كريما ، فلفظ (حاتم) مستعار للرجل الكريم ، والقرينة على انه ليس حاتما الطائى قولك : (اليوم) . كما تقول : استمعت الليلة إلى قس ، تقصد به رجلا بليغا ، وقس مستعار للرجل البليغ ، وليس مقصودا به قس بن ساعدة الايادى بدليل كلمة (الليلة) فهذه الاستعارات وما ماثلها من كل ما

(٤٥) الخليط : الذى يخالطه المراد به هنا : الحبيب ، محولا : جدبا .

كان المستعار فيه جامدا غير مشتق تسمى بالاستعارات الأصلية ، وقد حصرها البيانيون فى اسم الجنس ، الذى يدل على ذات صالحة لأن تصدق على كثيرين ولو تأويلا من غير اعتبار وصف من الأوصاف فى الدلالة ، ويشمل اسم الجنس اسم العين الذى يصلح باعتبار وضعه لأن يصدق على كثير مثل : بحر واسد ، وما يصلح بعد التأويل فيه لأن يصدق على كثير مثل : حاتم وقس واسم المعنى الصالح لأن يصدق على كثير كالنطق والفهم ، ولعلك تدرك أن الاستعارة لا تجرى فى الأعلام الشخصية إلا فى تلك الأعلام التى تضمنت أوصافا تعالمت واشتهرت بها وغلبت عليها ، حتى تنوسيت ذاتها ، وبذلك تلحق بأسماء الأجناس التى تصلح لأن تصدق على كثيرين كحاتم المتضمن الجود ، وقس المتضمن الفصاحة ، ومادر المتضمن البخل ، وباقل المتضمن العى والفهاهة وذلك كله للوفاء بحق الاستعارة من ادعاء دخول المشبه فى المشبه به(٤٦) .

٢ ـ الاستعارة التبعية :

قال تعالى : (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين)(٤٧) فلفظ « اصدع » مستعار للتبليغ بجامع التأثير فى كل منهما ، والقرينة « بما تؤمر » وهو فعل لذا تسمى الاستعارة فيه تبعية .

وقال تعالى : (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين) (٤٨)

---

(٤٦) انظر . البلاغة التطبيقية د. أحمد موسى ص : ١٢٨ ، وما بعدها .
(٤٧) سورة الحجر : ٩٤ .
(٤٨) سورة الأعراف : ٥٠ .

نذكر « أصحاب النار » دليل على ان لفظ « نادى » مستعمل فى غير معناه الحقيقى فهو فعل ماض والمراد به النداء فى المستقبل ، وقد استعير النداء فى الماضى للنداء فى المستقبل للدلالة على تحقق الوقوع ، ولما كان ممتنعا فإن الاستعارة تعد تبعية .

وقال تابط شرا ، يصور شجاعته حيث زعم أنه قتل الغول :

فأضربها بلا دهش ، فخرت
صريعا لليدين وللجران

فقد دل السياق على ان المراد باضربها ، ضربتها — وعلى ذلك فأضربها وهو فعل مضارع يدل على الحال او الاستقبال مستعار لضربتها فى الماضى بجامع شدة الانكشاف والظهور فى كل منهما ، والاستعارة تبعية لانها فى الفعل .

وقال شاعر يخاطب طائرا :

أنت فى خضراء ضاحكة
من بكاء العارض الهتن

فقد دلتنا كلمة « خضراء » وهى صفة لموصوف محذوف أى : جنة او روضة خضراء على أن « ضاحكة » مستعار لتفتح الأزهار بجامع ظهور البياض فى كل منهما ، وهى مشتقة لانها إسم فاعل لذا كانت الاستعارة تبعية ، كذلك دلتنا إضافة « البكاء » إلى « العارض الهتن » وهو السحاب الكثير الانصباب على أنها مستعارة لسقوط المطر بجامع الغزارة فى كل ، غير انها جامدة وليست مشتقة ، لذا كانت فيها أصلية .

وقال آخـــــر :

ولئن نطقت بشكر برك مفصـــحا
فلسان حالى بالشـــكاية أنطـــق

فاسناد « انطق » إلى ضمير « لسان حالى » افادنا انهـــا مـــستعارة للدلالة بجـــامع إيضـــاح المعنى فى كل منهما ، وهى مشتقة لأنهـــا افعل تفضـــيل ، فالاستعارة فيها تبعية وقال تعالى : « ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجـــداث إلى ربهم ينسلون . قالوا يا ويلنـــا من بعثنا من مرقدنا ، هـــذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون »(٤٩) .

فقد مرت بك هـــذه الآية فيما مضى ، وعرفت ان كلمـــة « مرقدنا » مستعارة للمـــوت بجـــامع « خفاء الاثـــر فى كل منهما » وبقرينة « بعثنا » وهى مشتقة لانها اسم مكان . فالاستعارة فيها تبعية .

وقال تعالى : « قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله وإنـــا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين »(٥٠) استعمال حرف الجـــر « فى » مـــع « ضـــلال مبين » يدلنا على ان « على » مستعمل فى غير معنـــاه الحقيقى ، « ففى » للظرفية « وعلى » للاستعلاء ولذلك خولف بين حـــرفى الجـــر فى التعبيرين ، ووضعت « على » مكان « فى » لأن صاحب الحـــق كأنه مستعل على فرس جـــواد يركض به حيث شـــاء ، وصاحب الباطل كأنه منغمس فى ظلام منخفض فيـــه ، لا يدرى أين يتوجه فتأمل هذه الدقة وتلك البـــلاغة التى لا تتمثل إلا فى كلام رب العـــزة ، ولمـــا كانت اللفظـــة المستعارة حـــرفا فإن الاستعارة تعـــد تبعيـــة .

---

(٤٩) ســـورة يس : ٥١ ، ٥٢ .
(٥٠) ســـورة سبأ : ٢٤ .

ومن ذلك قوله تعالى : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم) (٥١) فقد يتساءل : لماذا عدل عن « اللام » إلى « في » في الأربعة الأخيرة ؟ ورد « ابن الأثير » على ذلك بأنه للايذان بأنهم أرسخ في استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره باللام لأن « في » للوعاء فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات ، كما يوضع الشيء في الوعاء ، وأن يجعلوا مظنة لها ، وذلك لما في فك الرقاب وفي الغرم من التخلص ، وتكرير « في » في قوله « في سبيل الله » دليل على ترجيحه على الرقاب وعلى الغارمين ، وسياق الكلام أن يقال : وفي الرقاب والغارمين وسبيل الله وابن السبيل ، فلما جيء بفي مرة ثانية وفصل بها بين الغارمين وبين سبيل الله علم أن سبيل الله أوكد في استحقاق النفقة فيه(٥٢) .

نتأمل هذه اللطائف وتلك الدقائق التي كان سببها استعمال حرف مكان آخر والاستعارة فيه تبعية لأنها في الحرف .

وقال تعالى : « ولأصلبنكم في جذوع النخل »(٥٣) عرفت أن « في » للظرفية ، والجذوع لا تصلح أن تكون ظرفا للمصلوبين ، فكان الظاهر أن يقال : « على جذوع النخل » ، ولكن يحل على تمكن الجذوع من المصلوبين كتمكن الظرف من المظروف وضع « في » موضع « على » فالاستعارة فيه تبعية .

---

(٥١) سورة التوبة : ٦٠ .
(٥٢) انظر : المثل السائر ٢/٢٤١ .
(٥٣) سورة طه : ٧١ .

وقال ابو نواس :

يارب إن عظمت ذنوبى كثرة
فلقد علمت بان عفوك اعظم

عرفت ان القريب ينادى بالهمزة واى وان البعيد ينادى بالياء وايا وهيا وغيرها عند الكلام على الاساليب الانشائية ، وتسال فيقال لك : هل الله بعيد عنا فنناديه بيا ، والإجابة ان ذلك لمحظ بلاغى هو : الدلالة على عظمة المولى عز وجل ورفعة منزلته ، تنزيلا لبعد منزلته منزلة البعد فى المسافة ، فوضعت « يا » موضع الهمزة لتحقيق هذا الاعتبار على سبيل الاستعارة التبعية .

وقال الشاعر :

أسكان نعمان الأراك تيقنوا
بانكم فى ربع قلبى سكان

النداء بالهمزة وإن كانوا بعيدين عنه ، للدلالة على انهم دائما فى قلبه لا يغيبون عن خاطره ، فاستعيرت الهمزة من معناها الحقيقى وهو نداء القريب لنداء البعيد تحقيقا لهذا القصد على سبيل الاستعارة التبعية .

فالاستعارة فى كل ما مضى من المشتقات والحروف تبعية ، وسميت الاستعارة فى الافعال والمشتقات تبعية ، لأن الاستعارة فيها تابعة للاستعارة فى معانى مصادرها وسميت تبعية فى الحروف لأن الاستعارة فيها تابعة للاستعارة فى متعلقات معانيها .

وخلاصة ما مضى ان اللفظ المستعار إن كان اسم جنس بأن كان إسم عين وضعا او تاويلا او إسم معنى فإن الاستعارة فيه اصلية ، وإن كان مشتقا : فعلا ماضيا او مضارعا او امرا او إسم فاعل او مفعول

أو صفة مشبهة أو افعل تفضيل أو اسم آلة أو اسم زمان أو مكان أو حرف معنى مثل من وفى وبا والهمزة واللام فإن الاستعارة فيه تبعية . وكانت الأولى أصلية لأنها تجرى فى نفس المستعار ، وكانت الثانية تبعية لأنها فى الفعل والمشتقات تجرى أولا فى الحدث (المصدر) ثم يتبع ذلك الفعل والمشتق .

وفى الحرف تجرى أولا فى معنى الحرف الكلى ثم يتبع ذلك الحرف المستعار .

الاستعارة التصريحية والمكنية :

قال المتنبى وقد قابله ممدوحه وعانقه :

فلم أر قبلى من مشى البحر نحوه
ولا رجلا قامت تعانقه الأسد

فالبحر والأسد مستعاران للكريم والشجاع للمبالغة فيهما بقرينة : مشى ، وتعانقه والمشبه كما ترى محذوف ، والموجود منهما هو المشبه به فى كلتا الاستعارتين لذا تسمى الاستعارة تصريحية للتصريح بلفظ المشبه به . أصلية ، لأن المستعار اسم وقال فى مدح سيف الدولة :

أما ترى ظفرا حلوا سوى ظفر
تصافحت فيه بيض الهند واللمم(٥٤)

فاسناد تصافحت إلى « بيض الهند واللمم » كلفنا على أنها مستعملة فى غير معناها الحقيقى وان المراد بهما التلاقى بجامع المشابهة ، فاستعير

---

(٥٤) بيض الهند : السيوف ، واللمم : جمع لمة ، وهى الشعر المجاور شحمة الأذن ، والمراد بهما هنا الرؤوس اى : إنك لا تعد الانتصار جميلا إلا بعد معركة تتلاقى فيها السيوف بالرؤوس .

التصافح للتلاقى ، واشتق منه « تصافحت » بمعنى تلاقت على سبيل الاستعارة التصريحية للتصريح بالمشبه به « تبعية » لانها فى الفعل .

فالاستعارة التصريحية : ما صرح فيها بلفظ المشبه به وتكون أصلية إن كان المستعار اسما كما فى المثال الاول ، وتبعية إن كان مشتقا كما فى المثال الثانى .

الاستعارة المكنية

وقال المتنبى فى مدح سيف الدولة :

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه

وفى اذن الجوزاء منه زمازم(٥٥)

اى ان هذا الجيش لكثرته ملأ الشرق والغرب ، وبلغت أصوات جنده المسافات البعيدة حتى وصلت إلى الجوزاء ، فمعروف ان الجوزاء لا اذن لها مما يدل أن فى الكلام تجوزا وانه اراد التعبير عن قصده فشبه الجوزاء بإنسان ثم حذف المشبه به واثبت للمشبه خاصية من خواصه وصفة من صفاته ، وهى الاذن وإثبات الاذن للجوزاء قرينة على انها مستعملة فى غير معناها الحقيقى ، وتلاحظ أن المشبه به محذوف وان الموجود هو المشبه ومعه لازم من لوازم المشبه به لذا فإن الاستعارة فيه تسمى استعارة مكنية .

وقال ايضا : ولما قلت الإبل امتطينا

إلى ابن أبى سليمان الخطوبا

---

(٥٥) الخميس : الجيش لانه خمس فرق وهى : المقدمة ، والقلب ، والميمنة ، والميسرة ، والساقة ، الزحف : التقدم ، الجوزاء : برج فى السماء ، الزمازم ، جمع زمزمة والمراد بها هنا : صوت لا يفهم لتداخله .

اى أن الخطوب والاحداث كانت له دواب فى الوصول إلى الممدوح حين عزت عليه الإبل .

وذكر « امتطينا » واسناده إلى « الخطوب » يفيد أن فى الكلام تجوزا لأن الخطوب لا تركب ، وانه شبه الخطوب بالإبل ثم حذف المشبه به ودل على حذفه بذكر خاصية من خواصه واثباتها للمشبه وهى « امتطينا » ولما كان المشبه به محذوفا فإن الاستعارة فيه مكنية .

وقال الحجاج فى إحدى خطبه : إلى لارى رؤوسا قد اينعت وحان قطافها وإنى لصاحبها فذكر « اينعت » وحان قطافها يفيد أن فى الكلام تجوزا ، وانه أراد أن يبالغ فى استحقاق هؤلاء الخارجين عليه للعقوبة ، وأن الوقت قد حان للأخذ على ايديهم فشبه رؤوسهم بالثمار ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشىء من لوازمه وهو « اينعت وحان قطافها » ، وإثبات ذلك للمشبه تخيل او استعارة تخييلية وهى قرينة المكنية . والاستعارة تسمى مكنية .

ومن الاستعارة المكنية كذلك قول لبيد :

وغداة ريح قد كشفت وقرة
إذ اصبحت بيد الشمال زمامها(٥٦)

يفتخر بانه يمنع عادية البرد عن الناس بإطعامهم ، وايقاد النار لهم ، لأن ذلك وقت الجدب عندهم ولذلك جعل للشمال يدا ، ومعلوم انه ليس هناك امر ثابت حسا او عقلا تجرى اليد عليه ، كاجراء الأسد على الرجل الشجاع ، ولكن لما شبه الشمال لتصريفها القرة على حكم طبيعتها فى التصريف بالإنسان المصرف لما زمامه بيده اثبت

---

(٥٦) القرة : البرد ، والشمال : ابرد الرياح .

لها بدا على سبيل التخييل مبالغة فى تشبيهها به ، وحكم الزمام كذلك فى استعارته للقرة حكم اليد فى استعارتها للشمال ، فجعل للقرة زماما ليكون اتم فى اثباتها مصرفة كما جعل للشمال يدا ليكون ابلغ فى اثباتها مصرفة ، فوفى المبالغة حقها من الطرفين ، والموجود من اركان الاستعارة فى كل هو المشبه لذا فإن الاستعارة مكنية .

ولا يخفى عليك بعد ما سبق تبين الفرق بين الاستعارة التصريحية والمكنية ، فالتصريحية ما صرح فيها بلفظ المشبه به وكانت قرينتها لفظية . فعلا أو فاعلا ، أو مفعولا او مجرورا او حالية تفهم من سياق الكلام ، وكانت عملية التشبيه فيها ظاهرة وواضحة لا تحتاج إلى صعوبة فى الوقوف عليها ، والمكنية ما حذف منها المشبه به وبقى المشبه ، وأن قرينتها فى إثبات لازم المشبه به للمشبه . وعملية التشبيه فيها تتسم في لطفة وخفاء بحيث تحتاج إلى معاناة وتعب فى الوقوف عليها لذا سميت استعارة مكنية وكانت اكثر بلاغة من التصريحية لما تستوجبه من مجهود فكرى وذهنى فى تأملها والإحساس بروعتها .

فاتضح إذا اتضاحا لا يدع للشك مجالا وجه التفرقة بينهما .

وقد عرفت أن قرينة المكنية هى إثبات لازم المشبه به للمشبه ، وهذا الأمر المختص بالمشبه به المثبت للمشبه منه ما لا يكمل وجه الشبه فى المشبه به بدونه ، كما فى قول أبى ذؤيب الهذلى :

وإذا المنية انشبت اظفارها
ألفيت كل تميمة لا تنفع(٥٧)

---

(٥٧) المنية : الموت ــ انشبت : علقت ، ألفيت : وجدت ، والتميمة : خرزة يجعلونها معاذة من العين والجن .

فإنه شبه المنية بالسبع فى اغتيال النفوس بالقهر والغلبة من غير تفرقة بين نفاع وضرار ولا رقة لمرحوم ، ولا بقيا على ذى فضيلة ، فاثبت للمنية الاظفار التى لا يكمل ذلك فى السبع بدونها تحقيقا للمبالغة فى التشبيه ، ومنه ما به يكون قوام وجه الشبه فى المشبه به كما فى قول الآخر :

ولئن نطقت بشكر برك مفصحا

فلسان حالى بالشكاية أنطق

فقد شبه الحال الدالة على المقصود بإنسان يتكلم ، واثبت لها اللسان الذى به قوام الدلالة فى الإنسان(٥٨) .

الاستعارة التبعية يمكن ردها إلى المكنية :

عرفت فى قوله تعالى : (**ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الالواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون**) (٥٩) أن فى قوله « سكت » استعارة تصريحية تبعية بقرينة « الغضب » حيث شبه انتهاء الغضب بالسكوت بجامع الهدوء المترتب على كل منهما ثم استعار المشبه به للمشبه واشتق منه : « سكت » بمعنى انتهى على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ، ويجوز أن تكون الاستعارة مكنية ومرشحتها قرينة التصريحية التبعية ، فيقال : شبه « الغضب » بإنسان وحذف المشبه به ورمز إليه بشىء من لوازمه وهو : « سكت » وإثبات السكوت للغضب تخييل أو استعارة تخييلية وهى قرينة المكنية .

---

(٥٨) انظر : بغية الايضاح ص ١٥٤ وما بعدها .
(٥٩) سورة الأعراف : ١٥٤ .

وكذا يجوز أن تجعل كل استعارة تبعية مكنية ويكون موطنها قرينة التبعية هذا من حيث الجواز ، لكن الأنسب هو ما يقتضيه المقام ويستدعيه الحال ، ولا شك أن الأنسب بالمقام فيما سبق هو المبالغة في انتهاء الغضب وتشبيهه بالسكوت الذي تدل عليه التصريحية التبعية . لذا كانت هي الأولى والأليق .

الاستعارة المطلقة والمجردة والمرشحة :

علمت أن مبنى الاستعارة على تناسي التشبيه وادعاء أن المشبه واحد من أفراد المشبه به وداخل في جنسه ، فكل ما يذكر في الأسلوب الذي وردت فيه الاستعارة مما يقوي هذا الأساس ويدعمه فإنه يعد مقويا لأمر الاستعارة وناصرا لها ، وكل ما يقلل من الاتحاد ويضعفه من شأنه فإنه يعد في غير صالح الاستعارة ، وبالتأمل في الأساليب التي وردت فيها الاستعارة نراها قد تقترن بما يقوي هذا الأساس مما يلائم المستعار منه وتسمى الاستعارة آنذاك مرشحة ، وقد تقترن بما يضعف هذا الأساس مما يلائم المستعار له وتسمى الاستعارة حينئذ مجردة ، وقد لا تقترن الاستعارة بشيء يلائم المستعار منه أو المستعار له وتسمى مطلقة ، وتلقيب الاستعارة بلقب من الألقاب السابقة لا يكون إلا بعد استيفائها للقرينة ، لأن القرينة كما علمت من تمام الاستعارة .

الاستعارة المطلقة :

قال تعالى : **(إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية)** (٦٠) في الآية استعارة تصريحية تبعية في « طغى » فقد شبه الفيضان بالطغيان بجامع مجاوزة الحد في كل ثم تناسى التشبيه وادعى أن المشبه فرد

---

(٦٠) سورة الحاقة : ١١ .

من أفراد المشبه به وداخل فى جنسه ثم استعير المشبه به للمشبه واشتق منه « طغى » بمعنى : جاوز الحد على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية والقرينة هى « لفظ » « الماء » الذى وقع فاعلا للفعل الذى وردت فيه الاستعارة ، ولم تقترن هذه الاستعارة بشىء يلائم المستعار منه أو المستعار له لذا كانت الاستعارة مطلقة .

وقال قريط بن انيف :

قوم إذا الشر ابدى ناجذيه لهم

طاروا إليه زرافات ووحدانا(٦١)

يصفهم بالإقدام على المكاره والإسراع إلى الشدائد دون ان يتكل بعضهم على بعض ، فقد شبه الشر بانسبع بجامع حصول الضرر فى كل ثم تنوسى التشبيه وادعى ان المشبه فرد من افراد المشبه به وداخل فى جنسه ، وحذف المشبه به واشار إليه بشىء من لوازمه وهما : الناجذان وإثبات الناجذين للشر تخييل او استعارة تخييلية وهى قرينة المكنية ، والاستعارة مطلقة لعدم اقترانها بعد استيفاء القرينة بشىء ملائم للمستعار له او المستعار منه .

وفى : طاروا كذلك استعارة تصريحية تبعية مطلقة .

وقال الشنفرى :

سقاك وحيانا بك الله إنما

على العيس نور ، والخدور كمائمه(٦٢)

(٦١ الناجذان : النابان .

(٦٢) العيس : الإبل البيض التى يخالط بياضها شىء من الشقرة واحدها أعيس والانثى عيساء ، النور الزهر او الابيض منه : الخدور جمع خدر وهو الستر ، الكمائم : جمع كمامة ، وهى غطاء النور .

... لمثله يدعو لمحبوبته بالسقيا، وان يحيا الناس بها كما يحيون بالأزهار .

وفى كلمة « نور » استعارة تصريحية اصلية بقرينة « على العيس » فقد شبه النساء الجميلات بالنور بجامع الحسن فيهما ثم تنوسى التشبيه وادعى ان المشبه فرد من افراد المشبه به وداخل فى جنسه ثم استعار المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، وبعد ان تمت الاستعارة بذكر القرينة اتبعت بلفظين احدهما يلائم المستعار له وهو : الخدور الذى يناسب النساء والآخر يلائم المستعار منه وهو « الكمائم » الذى يناسب النور ، فاجتمع الترشيح والتجريد فكانت الاستعارة فى حكم المطلقة لتعارضهما فكانهما لم يذكرا .

فالاستعارة المطلقة تصريحية او مكنية ، ما لم تقترن بعد استيفائها القرينة بما يلائم واحدا من ركنى الاستعارة ، او قرنت بما يلائمهما معا .

الاستعارة المجردة :

قال تعالى : « **وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بانعم الله فاذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون** »(٦٣) ففى كلمة « لباس » استعارة تصريحية اصلية ، فقد شبه اثر الجوع والخوف وضررهما المحيط بهم باللباس بجامع الاشتمال والإحاطة فى كل منهما والقرينة هى إضافة اللباس إلى الجوع والخوف . وقوله : « فاذاقها » يلائم المستعار له ، لأن المراد بالإذاقة هو إصابتهم بما استعير له اللباس وهو المضار والآلام التى

---

(٦٣) سورة النحل : ١٢ .

تترتب على الجوع والخوف ، فالإذاقة بهذا المعنى تلائم المستعار له ، واستعمال الإذاقة فى الإصابة كما ذكر الزمخشرى : استعارة جرت مجرى الحقائق ، لشيوعها فى البلايا والشدائد ، حيث يقولون : « ذاق فلان البؤس والضر ، واذاقه العذاب »(٦٤) ولو انه سلك بالاستعارة هنا مسلك الترشيح لقيل : فكساها الله لباس الجوع والخوف ، لأن الكسوة ملائمة للباس ، وأوثر التجريد على الترشيح - مع ان الترشيح ابلغ ، لان الإدراك بالذوق يستلزم الإدراك باللمس من غير عكس ، ففى التعبير بالإذاقة اشعار بشدة الاصابة بخلاف التعبير بالكسوة .

وقال الشاعر :

فإن يهلك فكل عمود قوم ... من الدنيا إلى هلك يصير

ففى كلمة « عمود » استعارة تصريحية أصلية ، فقد شبه رئيس القوم بالعمود بجامع التحمل والقيام بأهم الأمور فى كل ، ثم تناسى التشبيه وادعى ان المشبه فرد من أفراد المشبه به وداخل فى جنسه واستعير المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية والقرينة « يهلك » وقد تليت الاستعارة بما يضعفها من الأساس الذى بنيت عليه وهو قوله : « إلى هلك يصير » الذى يلائم المستعار له ومن ثم كانت الاستعارة مجردة .

وقال كثير عزة :

غمر الرداء إذا تبسم ضاحكا ... غلقت لضحكته رقاب المال(٦٥)

---

(٦٤) انظر : بغية الايضاح ٣/١٤٠ ، ١٤١ .

(٦٥) غلقت : تمسكت .

فالرداء وهو الثوب مستعار للمعروف على سبيل الاستعارة التصريحية الاصلية ، لان المعروف يصون عرض صاحبه صون الرداء لما يلقى عليه ، وقوله : « تبسم ضاحكا » قرينة على ذلك والمراد منه : ان تبسم الممدوح كافه فى ايصال المال إلى العفاة والسائلين ، وتمكنهم منه ، بحيث لا ينفك من ايديهم ، كما لا ينفك الرهن من يد المرتهن إذا حل اجل الدين وتعذر الوفاء ، وقوله : « غمر » أن أريد به كثير من غمر الماء أى كثر فيكون تجريدا لانه مما يلائم المستعار له ، وإن اريد به الاتساع من قولهم : ثوب غامر أى واسع فيكون ترشيحا لانه مما يلائم المستعار منه .

وقال البحترى :

يؤدون التحية من بعيد
إلى قمر من الايوان بادِ(٦٦)

ففى لفظ « قمر » استعارة تصريحية اصلية ، فقد شبه به الممدوح بجامع البهاء والتلالؤ فيهما والقرينة : يؤدون التحية ، وقوله « من الإيوان بادٍ » يلائم المستعار له فهو تجريد .

فالاستعارة المجردة كما رأيت ما قرنت بما يلائم المستعار له بعد استيفائها القرينة وسميت مجردة لتجريدها الاستعارة عن الأساس الذى تعتمد عليه وهو تناسى التشبيه وادعاء أن المشبه فرد من أفراد المشبه به وداخل فى جنسه .

---

(٦٦) الايوان : البناء الضخم العظيم .

الاستعارة المرشحة :

قال تعالى : **أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين**) (٦٧) فى الآية الكريمة استعارة تصريحية تبعية فى لفظ : اشتروا ، فقد شبه اختيار الضلالة على الهدى بالاشتراء بجامع الترك فى كل ، ثم تنوسى التشبيه وادعى ان المشبه فرد من افراد المشبه به وداخل فى جنسه واستعير الاشتراء للاختيار واشتق منه « اشتروا » بمعنى « اختاروا » على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية والقرينة ايقاع الاشتراء على الضلالة ، وقد قرنت الاستعارة بعد استيفاء القرينة بما يفيد المبالغة فى تناسى التشبيه وما يلائم المستعار منه وهو « فما ربحت تجارتهم » اذا كانت الاستعاره مرشحه اى قوية .

وقال الشاعر :

ينازعنى ردائى عبد عمرو

رويدك يا اخا عمرو بن بكر

لى الشطر الذى ملكت يمينى

ودونك فاعتجر منه بشطر(٦٨)

ففى قوله : ردائى : استعارة تصريحية اصلية . فقد شبه السيف بالرداء بجامع الحفظ والصون فى كل ثم تنوسى التشبيه وادعى ان المشبه فرد من افراد المشبه به وداخل فى جنسه واستعار الرداء للسيف على

---

(٦٧) سورة البقرة : ١٦ .

(٦٨) رويدك : إسم فعل بمعنى امهل ، بكر : ابو قبيلة ، الشطر : النصف ، دونك : اسم فعل بمعنى خذ ، اعتجر : من الاعتجار ، وهو لف الراس بثوب ونحوه ، والمراد بالشطر الذى ملكته يمينه : مقبض السيف ، وبالشطر الآخر : صدره .

سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية والقرينة يدل عليها السياق فهى حالية ، وقد قرنت الاستعارة بما يقوى أمرها ويؤكد تناسى التشبيه الذى بنيت عليه وهو « اعتجر » لأن الاعتجار هو لف الرأس بثوب ونحوه فهو ملائم للمستعار منه وبذا أصبحت الاستعارة مرشحة .

التجريد ثم الاطلاق ثم الترشيح :

ولما كان التجريد مضعفا لتناسى التشبيه الذى تبنى عليه الاستعارة كان فى المرتبة الادنى ، يليه الإطلاق حيث تذكر فيه الاستعارة غير متبوعة بما يقويها أو يضعفها ، أو تتبع بواحد من هذا وواحد من ذاك فتكون فى حكم المطلقة وفى مرتبتها ، تأتى بعد ذلك الاستعارة المرشحة فهى فى المرتبة الأعلى لأن الترشيح يلتقى مع الأساس الذى قامت عليه الاستعارة فيشد ازرها ويقوى أمرها ، إذ يزيد من تناسى التشبيه ، ويخيل للسامع أن المستعار مستعمل فى حقيقته وأن التشبيه لم يجر ببال ومن ذلك عدا ما سبق قول أبى تمام :

ويصعد حتى يظن الجهول بان له حاجة فى السماء

فقوله : حتى يظن الجهول .... اكدت أن الصعود المستعار لعلو قدر الممدوح حقيقة وان امر التشبيه بعيد .

وقال ابو الطيب المتنبى :

كبرت حول ديارهم لما بدت
منها الشموس وليس فيها المشرق

فقد استعار الشموس للمدوحين بجامع الرفعة والبهاء والقرينة « بدت » وابقى الاستعارة بما يقوى امرها ويوهم انها شموس حقيقية حيث تطلع من جهة المغرب لا من جهة المشرق .

من ذلك قول : ابن العميد فى غلام حسن قام على رأسه يظلله من الشمس :

قامت تظللنى من الشمس
نفس أعز على من نفسى
قامت تظللنى ومن عجب
شمس تظللنى من الشمس

فقد استعار الشمس للممدوح ، ثم ذكر ما يعين على تناسى التشبيه يوهم ان المستعار مستعمل فى حقيقته وهو قوله : ومن عجب ، فزاد الاستعارة قوة وأكسبها بعدا .

وينبغى ألا يغيب عن خاطرك ان علو الاستعارة المرشحة ودنو الاستعارة المجردة إنما يتصل بالمثل الذى وردتا فيه ويتعلق بالمقام الذى ذكرت فيه كل منهما ، فالمرشحة تفوق المجردة إذا كانت مناسبة للمقام الذى وردت فيه ، والمجردة تكون أكثر بلاغة إذا كان المقام لها ، ولذلك كان التجريد فى قوله تعالى : (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف) ابلغ من الترشيح لانه اكثر تلاؤما واشد تناسبا ، إذ ان التعبير بالإذاقة يفيد الإشعار بشدة الإصابة بخلاف التعبير بالكسوة ، وكذا جميع استعارات القرآن الكريم وردت كل منها فى مكانها وصادفت موقعها وناسبت الحال التى ذكرت فيها ، فلم تأت عن تكلف ولم تنشأ عن تصنع ولم يتعمل فى نسجها كما يكون بعض الاستعارات فى غير القرآن ، ولذلك كان لها الأثر البلاغى المشهود الذى أحسست بروعته واستشعرت جماله فى كثير من الاستعارات القرآنية السالفة ، فالاستعارة فى القرآن

كما قرر « عبد القاهر » من مقتضيات النظم وعنها يحدث وبها يكون(٦٩) .

الاستعارة التهكمية :

قال تعالى : (**فبشرهم بعذاب اليم**) (٧٠) معروف ان التبشير من البشارة وهى الإخبار بما يسر ، فتعلقه بالعذاب يفيد أنه مستعمل فى غير معناه الحقيقى لإفادة التهكم والاستهزاء بالكفار وشدة العذاب الذى يقع من الله عليهم ، فيقال : شبه الانذار بالتبشير بجامع الأثر المترتب على كل منهما ، ثم تنوسى التشبيه وادعى ان المشبه فرد من افراد المشبه به وداخل فى جنسه ، واستعار التبشير للإنذار ، واشتق منه : « بشرهم » بمعنى انذرهم على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية التهكمية ، والقرينة الدالة على ذلك هى : عذاب اليم ، وإذا كانت الاستعارة تزيد المعنى حسنا وتكسبه جمالا كما علمت فإن ملاحظة هذه الأمور الدقيقة وتصوير الاستعارة لها مما يزيد من جمالها ويرفع من حسنها لذا كانت هذه الاستعارة كما رايت فى أعلى المراتب الفنية والأدبية .

وتستخدم هذه الاستعارة بكثرة فى مجال التهكم والتلميح وفى الاحاديث الدارجة . كما يقال لاحد الذين يهملون فى عملهم : اذهب إلى الرئيس ليكافئك او يسلم عليك ومن ذلك قول كعب بن زهير :

صبحنا الخزرجية مرهفات

ابادذوى أرومتها ذووها (٧١)

---

(٦٩) انظر : دلائل الإعجاز ص ٣٥٨ .

(٧١) صبحنا : قال له : عم صباحا ، او سقاه الصبوح وهو ما حلب من اللبن ، الخزرجية : نسبة إلى الخزرج وهى من قبائل يثرب ، المرهفات : السيوف الدقيقة القاطعة ، الأرومة : الأصل .

(فصبحنا) مستعارة للضرب استعارة تصريحية تبعية والقرينة (مرهفات) ، لأن الصبح بمعناه الحقيقى وهو تخية الصباح أو تقسيم الصبوح لا يقع على السيوف ، فيدل ذلك على أن المراد به الضرب على سبيل التهكم بهم .

وقال الشاعر :

واقسرى الهموم الطارقات حزامة

إذا كثرت الطارقات الوسساوس

اى : إذا لم يستطع غيرى من الناس مواجهة المصاعب ومقابلة النوائب فإنى اقابلها بحزم والعصاها بعزم ، فنى (اقسرى) استعارة تصريحية تبعية تهكمية فقد شبه مقابلة الهموم بالاقسراء وهو إكراه الضيف بجامع ما يترتب على كل منهما واستعار الإقراء لمواجهة الهموم واشتق منه : (اقرى) بمعنى أواجه على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية التهكمية والقرينة الطارقات وحزامة .

الاستعارة التمثيلية :

مر بك عند الكلام على التشبيه أن منه التشبيه المفرد كقولك: محمد كالبحر عطاء والتشبيه التمثيلى الذى يكون الوجه فيه هيئة منتزعة من متعدد حسيا كان ذلك أو عقليا على الرأى الراجح فى التشبيه التمثيلى وهو رأى الخطيب القزوينى كقول الله تعالى فى وصف احبار اليهود الذين قرأوا التوراة وحفظوها ولم يعملوا بما فيها ولا انتفعوا بآياتها : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها

كمثل الحمار يحمل اسفارا بئس مثل القوم الـذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القـوم الظالمين »(٧٢) فالمشبه ليس اليهود فقط ، ولكنه مؤلف من اليهود الذين قرأوا التوراة وحفظوها ولم يعملوا بما فيها ولا انتفعوا بآياتهـا والمشـبه بـه ليس الحمـار فقط ولكنـه مركب من الحمـار يحمل أسفارا هى كنـز العـلم ومستودع المعرفـة ولا حظ لـه منهـا إلا الكـد والتعب ووجه الشـبه هو الهيئة الحاصـلة من تحمل التعب وبذل المشـقة فى استصحاب الشىء مع الجهل بنـه .

وفى قـول بشـار :

كأن مثـار النقـع فـوق رؤوسـنا

وأسـيافنا ليـل تهـاوى كواكبـه

تجد التشبيه مركبا لا يصح فيه تشبيه كل جـزء من طرفيه بمـا يقابله من الطـرف الآخـر حيث لا يتم المعنى ولا يكتمـل وجه الشـبه بذلك فـلا يستقيم تشبيه الغبار المثـار بالليـل والأسياف بالكواكب ، وإنما يتحقق التشـبيه ويتم بتشبيه الغبار المعقود فـوق رؤوس المتحاربين فى ميدان القتـال وقـد لمعت فيه السيوف او الاسـنة بالليل المظـلم الـذى تتهـاوى كواكبه . ووجه الشـبه هو الهيئة الحاصلة من تهاوى أشـياء مشرقة مستطيلة بيض فى جوانب شىء مظلم أسود .

كما مرنت أن التشبيه التمثيلى من التشبيهات البعيدة الغريبة التى تحتاج إلى تعب فى الإحساس بجمالها ورويـة فى الوقوف على بلاغتهـا لإجتماع سببى البعد فيه وهما : كثرة التفصيل فى وجه الشـبه وندرة تكـرار المشـبه بـه على الحواس .

---

(٧٢) سورة الجمعة : ٥ .

عرفنا كذلك عند الكلام على المجاز المرسل ان منه المفرد كقوله تعالى حكاية عن سيدنا نوح عليه السلام « **وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا اصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم واصروا واستكبروا استكبارا** »(٧٣) فاصابعهم مجاز مرسل علاقته الكلية والمراد الانامل وسبر التجوز بالأصابع كما علمت هو المبالغة فى صدهم عن دعوته وعدم إستجابتهم لأوامر الله وبلوغهم فى ذلك الغاية لدرجة انهم لو لمكنهم ان يدخلوا اصابعهم فى آذانهم لئلا يسمعوا من كلامه حرفا واحدا لما ترددوا فى ذلك .

ومنه المركب كالخبر حينما يراد به غير مضمونه الأساسيين من الفائدة ولازم الفائدة كالتحسر والتحزن مثلا فى قول الشاعر :

هـواى مـع الركب اليمانين مصعد

جنيب وجسمانى بمكة موثق

فيفهم من الخبر ان هواه وتعلقه بالأحبة الذين رحلوا وإن كان جسمه بمكة ، لكنه يريد إظهار التحسر والتحزن على مفارقة الأحبة.

وكذلك من المجاز المرسل المركب استعمال الإنشاء فى الخبر كقوله ﷺ : « **من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار** » فقوله : فليتبوأ مضارع مقرون بلام الأمر ، فهو امر بالتبوأ لكن الغرض منه الإخبار بحصول التبوء فعلا لمن يتعمد الكذب على رسول الله ﷺ .

ولاعتماد الاستعارة على التشبيه كما علمت فإنها تجيء مثله مفردة ومركبة ومثل المجاز المرسل كذلك إذ يتفقان فى ان كلا منهما مجاز لغوى،

---

(٧٣) سورة نوح : ٧ .

والاستعارة فيما مضى من الأمثلة كانت فى الألفاظ المفردة سواء أكانت تصريحية أم مكنية ، فهى استعارة مفردة ، فلنعرض الآن للاستعارة التى تتعلق بالتركيب ، فلا تقتصر على لفظ ولا تتمثل فى كلمة بعينها ، وهى ما تعرف بالاستعارة التمثيلية ..

من ذلك قوله تعالى : « **والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه** »(٧٤) فقد شبه الأرض فى تصرفها بأمر الله تعالى وقدرته بالشىء يكون فى قبضة الآخذ له منا والجامع يده عليه ، ثم تنوسى التشبيه وإدعى أن المشبه فرد من أفراد المشبه به وداخل فى جنسه ، واستعار المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية، وكذا قوله تعالى : (والسماوات مطويات بيمينه) شبهت السماوات فى جمعها والتئامها استجابة لأمر الله تعالى بالكتاب المطوى بيمين الإنسان، واستعير المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية وخص اليمين، لأنها أشرف اليدين وأقواهما ، والتى لا غناء للأخرى دونها ، فلا يهض إنسان لشىء إلا بدأ بيمينه فهيأها لنزله ، ومتى قصد جعل الشىء فى جهة من العناية جعل فى اليد اليمنى ، ومتى قصد خلاف ذلك جعل فى اليسرى كما قال ابن ميادة :

ألم أك فى يمنى يديك جعلتنى

فلا تجعلنى بعدها فى شمالكا

أى كنت مكرما عندك فلا تجعلنى مهانا ، وكنت فى المكان الشريف منك، فلا تحطنى فى المنزل الوضيع(٧٥) .

---

(٧٤) سورة الزمر : ٦٧ .
(٧٥) انظر : بغية الإيضاح ص : ١٤٨ .

ومن ذلك ما كتب بـه الوليـد بن يزيد لمـا بويع بالخلافـة إلى مروان بن محمد وقـد تلكأ فى البيعة لـه : (اما بعد : فإنى اراك تقـدم رجـلا وتؤخـر اخـرى ، فإذا أتـاك كتـابى هـذا فاعتمد على ايهما شئت والسـلام) فقد شـبه صـورة تردده فى المبايعة بصـورة من هـم لقضاء امـر من الأمـور فتارة يريد المضى فيتحرك وتـارة لا يريد فيظل واقفـا وتنوسى التشـبيه وادعى ان المشـبه فـرد من افـراد المشبه بـه وداخل فى جنسـه ثم استعار هيئة المشبه بـه للمشـبه على طريق الاستعارة التمثيلية .

وبذلك تدخل الأمثال فى دائرة الاستعارة التمثيلية : والمثل : تـول شـبه مضربـه بموردة ، وهى لا تغير كقولهم : (أحشفا وسـوء كيلة) فهو يضـرب لمن يظلم الناس من جهتين ، فقد شبـه فيـه هيئة من يظلم من جهتين بهيئة رجل اشترى من آخـر حشـفا(٧٦) بتطفيف فى الكيل ثم استعير المشبه بـه للمشبه على طريق الاستعارة التمثيلية .

وكقولهم : (فـلان ينفخ فى غـير فحم ، ويخط على المـاء) وهو يضرب لمن يتعب نفسـه فى غير ما جدوى وبدون ما فائدة . وكقولهم : (قبل الرماء تمـلأ الكنائن)(٧٧) وهو يضرب لمن يريد تحقيق أمـر بدون ان يعد لـه عدتـه . فترى أن الاستعارة فيما مضى تمثلت فى مجمـوع التركيب لا فى لفظة بعينها او كلمـة على إنفرادهـا ولذلك سـموها : الاستعارة التمثيليـة وعرفهـا الخطيب القزوينى : بانهـا اللفظ المركب المستعمل فيما شـبه بمعناه الأصلى تشبيه التمثيل للمبالغـة فى التشبيه، اى تشبيه إحـدى صورتين منتزعتين من أمـرين او امـور بالأخرى ثم

---

(٧٦) ردىء التمـر .
(٧٧) الرماء : رمى السهام ؛ الكنائن : جمع كنانة وهى وعاء السهام .

تدخل المشبهة فى جنس المشبه بها مبالغة فى التشبيه متذكر بلفظها من غير تغيير بوجه من الوجوه(٧٨) .

والاستعارة التمثيلية كالتشبيه التمثيلى فى كون الشبه منتزع من امور متعددة قد قرن بعضها إلى بعض ، وإن اردت بيانا اكثر وتمييزا اوضح لإظهار الفرق بين الاستعارة التمثيلية والمفردة فإليك ما ذكره إمام البلاغة (عبد القاهر) فى اسرار البلاغة حول ذلك، إذ بين أن قول داود بن على (الآن اخذ القوس باريها) — وإن كان القوس يقع كناية عن الخلافة والبارى عن المستحق لها ، فإنه لا يجوز أن يقال : إن القوس مستعار للخلافة ... وإنما الشبه مؤلف بحال الخلافة مع القائم بها ومن حال القوس مع الذى براها ، وهو أن البارى للقوس اعرف بكل ما يصلحها ، وان المستحق للخلافة اهدى إلى القيام بحقوقها واعرف باسرارها .. وهكذا قول القائل وقد سمع كلاما حسنا من رجل دميم : (عسل طيب فى ظرف سوء) لم يقصد فيه إلى بيان حال اللفظ الحسن وتشبيهه بالعسل فى هذا الكلام الحسن من المتكلم المشنوء فى منظره ، وإنما قصد إلى قياس إجتماع مقبول المخبر ، مع مقبض المنظر بالشبه المؤلف من العسل والظرف(٧٩) .

وقد علمت ان التشبيه التمثيلى ادخل فى البلاغة وامعن فى البعد والغرابة لما يتطلبه من إعمال الفكر وكد الذهن التى يستوجبها دقة التفصيل فى وجه الشبه فيه وندرة تكرار المشبه به على

---

(٧٨) راجع : بغية الإيضاح .
(٧٩) انظر : اسرار البلاغة ص : ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

الحواس ، والاستعارة التمثيلية كذلك اكثر بلاغة والطف بيانا وادق براعة لكثرة التفصيل التى تتطلب جهدا فى لم شتاتها وضم اجزائها والوقوف على الغرض منها .

بلاغة الاستعارة :

قال تعالى : « **فاما من ثقلت موازينه فهو فى عيشه راضية** »(٨٠) اسند راضية إلى ضمير عيشة وذلك غير ما حقه أن يسند إليه ، لأن العيشة يقع عليها الرضا لا منها ، والرضا إنما يكون من صاحب العيشة ، وكان هذا التجوز فى الإسناد للمبالغة فى رضا هذا الذى ثقلت موازينه ومدى ما يحسه من بهجة وسرور ، فلم تكن لتتم تلك المبالغة بدون هذا التجوز الذى كانت المبالغة ثمرة من ثماره الثانية فهى الإيجاز الذى انساده التجوز فالقول الكريم أوجز من قولنا : فقد اصبح يحيا وهو فى غاية الرضا ، وقد عرفت أن هذا اللون من المجاز يسمى : المجاز المعقلى .

وقا تعالى : « **وينزل لكم من السماء رزقا** »(٨١) اى مطرا يكون سببا إلى كثرة النعم ووفرة الرزق ، وقد جدد ذلك كلمة (ينزل) فإن الذى ينزل من السماء هو المطر الذى يحيى الأرض وينبت الزرع ، والرزق مسبب عن المطر ، وكان هذا التجوز للمبالغة فى قيمة الماء الذى عليه يحيا الإنسان والحيوان والنبات ، وصدق الله حيث يقول : « **وجعلنا من الماء كل شىء حى** »(٨٢) ، ولما كان التجوز هنا

---

(٨٠) سورة القارعة : ٦ ، ٧ .
(٨١) سورة غافر : ١٣ .
(٨٢) سورة الأنبياء : ٣٠ .

فى اللفظ لغير علاقة المشابهة كان مجازاً مرسلا . ولا يخفى عليك أن المجاز أفاد إلى جانب المبالغة السابقة الإيجاز فى التعبير ويتجلى لك ذلك بالموازنة بين القول الكريم السابق وبين قولنا : ينزل لكم من السماء مطرا يكون سببا لكثرة الخير ووفرة الرزق ، هذا إلى تقرير المعنى وتأكيده بذكر البينة وإقامة البرهان فالرزق ينزل من السماء لأن سببه المطر والرزق مسبب عنه ، ولذلك قالوا : المجاز كدعوى الشيء بالبينة والدليل .

وقال تعالى : « **إهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين** »(٨٣) فى الآية الكريمة استعارة تصريحية أصلية فى كلمة (الصراط) فقد شبه الدين الحق بالصراط المستقيم بجامع الإعتدال والوصول إلى المطلوب فى كل منهما ثم تناسى التشبيه وادعى أن المشبه فرد من أفراد المشبه به وداخل فى جنسه ثم استعير المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، فقد استعملت كلمة (الصراط) فى غير معناها الحقيقى لعلاقة المشابهة ، لذا كانت استعارة .

وقد أفاد هذا التعبير ما سبق من الفوائد التى أفادتنا بها المجاز العقلى والمجاز المرسل من المبالغة فى فضل الدين وقيمة السير على مبادئه وتقرير المعنى المراد وتقويته ، فالسير على طريق مستقيم يصل بك إلى الهدف المنشود ، كذلك التمسك بمبادىء الدين واليسير على سننه تحقق لك الخير والإيجاز فى التعبير فرق بين القول الكريم وبين قولنا : إهدنا إلى التمسك بالقيم الدينية ليتحقق لنا الفلاح،

---

(٨٣) سورة الفاتحة : ٥ ، ٦ ، ٧ .

ويضاف إلى ما سبق من الفوائد ، فائدة نشأت عن التجوز على سبيل الاستعارة وهى : توضيح المعنى وتبيينه بعرضه فى صورة محسوسة فيكون اكثر ثبوتا واشد استقرارا ، فمبادىء الدين معنى معقول اما الصراط المستقيم فإنه أمر واضح ظاهره فقد رأيت ان المجاز مختلف الالوان فمنه المجاز العقلى والمجازى اللغوى واللغوى منه المجاز المرسل ومنه الاستعارة ، كما وقفت على أن المجاز على تعدد الوانه لا يفهم المراد منه بسهولة وسرعة ، بل بعد تروٍ وتدبر لما فيه من خفاء وما به من لطف ، ولذلك وجب ان يتضمن من الفوائد الأدبية والأسرار البلاغية ما يجعل خفاءه مقبولا وبعده مستساغا وإلا كانت الحقيقة وكان الأسلوب الواضح اكثر قبولا منه لعدم الحاجة إلى التعب الفكرى والمجهود الذهنى فى تأمل المراد منها ـ ولذلك يقول ابو هلال العسكرى فى تعريفه الاستعارة وبيان فوائدها التى لو لم تكن لكانت الحقيقة أولى منها : « الاستعارة : نقل العبارة عن موضع استعمالها فى أصل اللغة إلى غيره لغرض ، وذلك الغرض إما إن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه او تاكيده والمبالغة فيه او الإشارة إليه بالقليل من اللفظ ، او بحسن المعرض الذى يبرز فيه ، وهذه الأوصاف موجودة فى الاستعارة المصيبة ، ولولا أن الاستعارة تتضمن ما لا تتضمنه الحقيقة من زيادة فائدة لكانت الحقيقة أولى منها استعمالا »(٨٤) . فيحدد العسكرى القيمة البلاغية للاستعارة فيما سبق من توضيح المعنى وتاكيده والمبالغة فيه والإيجاز ، ويرى إن كل استعارة مصيبة لابد ان تاتى بالفوائد السابقة ، وإلا كانت الحقيقة أولى منها فى الاستعمال .

---

(٨٤) انظر : الصناعتين : ابو هلال العسكرى ، ط أولى ص ٢٠٥ ، وانظر : النكت فى إعجاز القرآن للرمانى ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص : ٨٦ .

فالمجاز بصفة عامة لابد أن يتضمن من الأسرار البلاغية ما يذهب بخفائه ويكتب له قبولا وهذه الأسرار تتمثل كما سبق فى المبالغة وتاكيد المعنى وتقويته والإيجاز ، والوضوح ولما كانت الاستعارة تعتمد على التشبيه فإن المعنى بها يكون اكثر وضوحا واشد ظهورا حيث تبرز المعنويات فى صور محسوسة .

قال تعالى (مثل الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار) (٨٥) نلاحظ أن الجرى اسند إلى الأنهار ، وإسناد الجرى إلى الأنهار مجاز عقلى علاقته المكانية ، فالأنهار لا تجرى ، والذى يجرى هو الماء ، وقد افاد هذا التجوز المبالغة فى كثرة الماء وسرعة جريانه حتى ليخيل للرائى ان الأنهار هى التى تجرى ، هذا إلى جانب التعبير عن هذا المعنى بالقليل من الالفاظ .

وقال الشاعر :

لدى اسد شاكى السلاح مقذف

له لبد اظفاره لم تقلم

فالأسد مستعار للرجل الشجاع ، و « شاكى السلاح » يلائم المستعار له فهو تجريد ، و « له لبد » يلائم المستعار منه فهو ترشيح ، والاستعارة إذا « مطلقة » لتعارض التجريد والترشيح . وقد افاد إطلاق الأسد على الرجل الشجاع ما سبق من الفوائد التى عرفتها وعلى راسها : المبالغة فى وصف الرجل بالشجاعة ، غير ان المبالغة هنا ليست كالمبالغة

---

(٨٥) سورة الرعد : ٣٥ .

فى جـرى المـاء فى المثـال السابق ، فقول الله عز وجل : (تجرى من تحتها الأنهـار) يفيد المبالغة فى كثرة المـاء من قولنا : (تجرى من تحتها المياه فى الأنهـار) وليست كذلك المبالغة فى الاستعارة ، فالمبالغة فى قوله « لدى أسـد » من جهـة إثبـات الشجاعة للرجل وتقريرها وانهـا امر مؤكد بالقياس على ما هو المثل فى الشجاعة وهو الأسـد ، لا من جهـة انه فى هـذا الأسلوب اكثر شجاعة من نظيره على سبيل الحقيقة وهو : لدى رجل شجاع لا يفترق عن الأسـد ، ويوضح عبد القاهر ذلك فيقول : « قد اجمع الجميع على أن الكناية ابلغ من الإفصاح ، والتعريض اوقع من التصريح وان للاستعارة مزية وفضـلا ، وان المجـاز ابدا بلغ من الحقيقة ، فإذا قلت رايت اسدا كان لكلامك مزية لا تكون إذا قلت : رأيت رجـلا والأسد سواء فى معني الشجاعة وفى قوة القلب وشـدة البطش واشباه ذلك ، وإذا قلت : بلغنى أنك تتردد فى أمرك وانك فى ذلك كمن يقول : اخـرج ولا اخـرج تتقدم رجـلا وتؤخر اخـرى ... واعلم ان سبيلك أولا ان تعـلم ان ليست المزية التى تثبتها لهـذه الاجنـاس على الكلام المتروك على ظاهره والمبالغة التى تدعى لها فى انفس المعـانى التى يقصد المتـكلم إليها بخبره .. ولكنها فى طريق إثباته لها وتقريره إياها ، فليست المـزية التى تراها لقولك : (رأيت أسـدا) على قولك : (رايت رجلا لا يميز عن الأسـد فى شجاعته وجراته) انك قـد افدت بالأول زيادة فى مسـاواته الأسـد ، بل إنك افدت تأكيدا وتشديدا وقوة فى اثباتك له هـذه المساواة وفى تقريرك لها ، فليس تاثير الاستعارة إذا فى ذات المعنى وحقيقته ، بل فى ايجـابه والحـكم به ، وهكذا قيـاس التمثيل ترى المزية ابدا فى ذلك تقـع فى طريق إثبـات المعنى دون المعنى نفسـه ، فإذا سمعتهم يقولون : ان من شـان هـذه الأجناس ان تكسب المعـانى نبلا وفضلا ، وتوجب لها شرفا ، وان تفخمها فى نفوس السامعين ، وترفع اقدارها عند

المخاطبين ، لأنهم لا يريدون الشجاعة والقرى واشباه ذلك من معـــانى الكلم المفردة ، وإنما يعنون إثبـات معانى هـــذه الكلم لمن تثبت له ويخبر بهـا عنـــه »(٨٦) .

البـــلاغة بين التشبيه والاستعارة : (((

عرفت من خـــلال النماذج السابقة فضل الاستعارة على الحقيقة ، ومكانتها بين غيرها من الوان المجـــاز ، حيث تشـــارك غيرها من المجـــاز فى المبالغة وتاكيد المعنى وتقويته والتعبير عنـــه باليسير من اللفظ ، بينما تضيف هى فائدة اخـرى وهى توضـيحه وإبرازه فى صورة محسوسة .

وقد عرفت ان الاستعارة تبدأ من حيث ينتهى التشبيه ، وانه إذا كان التشبيه الذى اكتفى فيـــه بذكر الطرفين بعـــد حـــذف الأداة ووجه الشبه كقولك : محمد أسد(٨٧) ، تتمثل بلاغته فى انه يخيل لنـــا أن المشبه هو نفس المشـــبه بـــه وأن محمدا أســـد فعـــلا ، كانت الاستعارة أوغل فى التخييل وأبعد فى الايهـــام إذ انهـــا مبنية كما علمت على تناسى التشـــبيه وإدعاء أن المشبه فرد من أفراد المشبه به وداخل فى جنسه ، وكان ذلك سر تفوقها وتميزها عن التشبيه على الرغم من اعتمادها عليـــه ، يوضح عبد القاهر ذلك فيقول :

« وأما الاستعارة فسبب ما ترى لها من المزية والفخامة أنك إذا قلت : « رأيت أسدا » كنت تلطفت لمـــا أردت إثبـــاته له من فرط الشجاعة حتى جعلتها كالشىء الذى يجب له الثبوت والحصول ، وكالأمر الذى تصعب لـــه دليل يقطع بوجوده ، وذلك انه إذا كان أســـدا فواجب أن تكون لـــه تلك

---

(٨٦) انظر : دلائل الاعجاز ص : ٥٦ ، ٥٧ ط المراغى .
(٨٧) والذى لقبه بعض البلاغيين بالتشبيه البليغ .

الشجاعة العظيمة وكالمستحيل او الممتنع ان يمـرى عنهـا وإذا صرحت بالتشبيه فقلت : « رأيت رجـلا كالأسـد » كنت قـد اثبتها إثبـات الشيء يترجح بين أن يكون وبين ان لا يكون ولم يكن من حيث الوجوب في شيء وحكم التمثيل حـكم الاستعارة سواء فإنك إذا قلت : « أراك تقـدم رجلا وتؤخر اخـرى » فأوجبت له الصورة التي يقطع معها بالتحير والتـردد كان أبلغ لا محـالة من ان تجرى على الظاهر فتقول : « قـد جعلت تتردد في أمرك ، فأنت كمن يقول : أخـرج ولا اخـرج فيقدم رجلا ويؤخر أخرى »(٨٨) .

فالاستعارة تفضل المجـاز المرسل والعقلي لأنهـا اكثر توضـيحا للمعنى منهما ، وتفضل التشبيه البليغ لأنهـا ادخل منـه في التناسي وأشد في الوهم وأبعد في الخيـال ، والاستعارة كما علمت متنوعة ، فادخلها في البلاغة الاستعارة التمثيلية لمـا تستوجبه من دقة النظر لكثرة أجزائها وتعـدد فروعها ويليها المكنية لشـدة خفائها وبعدها التصريحية وابلغهـا المرشحة فالمطلقة ثـم المجـردة .

يبين لك مما سـبق مفهوم الاستعارة وآثارها البلاغية الجمالية في القرآن الكريم وكلام الرسول ﷺ والمختار من اشـعار العرب واوجـه التشابه والتباين بينها وبين لداتها من الوان البيـان كالتشبيه والمجـاز ، ولا اخالك تشك ادنى شك بعـد ذلك في عظيم أثرها وجـلال قدرها وأنها تبرز هـذا البيان ابدا في صـورة مستجدة تزيد قدره نبـلا وتوجب له بعد الفضل فضـلا ، إذ نرى بهـا الجماد حيـا ناطقا ، والأعجم فصـيحا ، والأجسام الخرس مبينة ، والمعاني الخفية بادية جليـة .

فلننتقل بعـد ذلك إلى روضـة ثالثة من رياض البيان ، ودوحـة ثالثة من ادواحه وهي الكناية .

---

(٨٨) دلائل الإعجـاز ص : ٥٨ .

(ب) " المجاز المرسل "

ينقسم المجاز اللغوى بحسب العلاقة المصححة للنقل الى قسمين :

١ ـ مجاز علاقته المشابهة ويسمى " استعارة " .

٢ ـ مجاز علاقته غير المشابهة وهو المجاز المرسل . وأول من أطلق عليه هذه التسمية هو السكاكى فى " مفتاح العلوم " لكن الفضل فى توضيح الفرق بين هذين النوعين من المجاز اللغوى يرجع إلى الامام عبد القاهر الجرجانى حيث عنى فى كتابه " أسرار البلاغة " بتقسيم المجاز إلى نوعيه اللغوى والعقلى ، ثم بذل جهدا كبيرا فى بيان الفرق بين الاستعارة والمجاز المرسل على أساس العلاقة القائمة بين الطرفين ، فما كان طريق نقله التشبيه فهو استعارة ، وما ليس كذلك فهو المجاز المرسل . وإن لم يطلق عليه هذه التسمية التى وضعها السكاكى .

فما المراد بالمجاز المرسل ؟

المجاز المرسل : هو اللفظ المستعمل فى غير ماوضع له لعلاقة غير المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى . كما فى قوله تعالى : " وينزل لكم من السماء رزقا " أى مطرا يتسبب عنه الرزق ، فقد استعمل " الرزق " فى معنى " المطر " وهو سبب الرزق ، وهذا من قبيل اطلاق المسبب واراده السبب ، فهو مجاز مرسل علاقته المسببية . وأنت تلاحظ أن العلاقة بين الماء والرزق ليست المشابهة بحال من الأحوال لبعد التباين بين الحقيقتين ،

والقرينة " ينزل " .

ومنه أيضا قولك : " اجتمع مجلس الشعب " والذى يجتمع فى الواقع ليس المجلس وإنما هم أعضاء المجلس ، فاستعمل لفظ " مجلس " بمعنى أعضائه ، ومن الواضح أن العلاقة بين المجلس وأعضائه ليست من قبيل المشابهة على الإطلاق ، وإنما هى علاقة المحلية ، فالمجلس محل للاجتماع ، أى أن هذا من إطلاق المحل وإرادة الحال فيه . فهو مجاز مرسل علاقته المحلية .

وإنما سمى هذا النوع من المجاز مرسلا ، لأنه أرسل أى أطلق عن التقيد بعلاقة واحدة ، فعلاقاته كثيرة ومتنوعة ، وقيل : سمى مرسلا لاطلاقه عن دعوى الاتحاد المعتبرة فى النوع الآخر وهو المجاز الاستعارى .

علاقات المجاز المرسل :

كل مجاز لابد له من علاقة وقرينة ، أما العلاقة فهى التى تصحح التجوز باستعمال اللفظ فى غير ماوضع له ، وبدونها لايستطيع المتكلم أن يستعمل اللفظ فى غير معناه الحقيقى ، إذ لا مسوغ لهذا الاستعمال . وأما القرينة فهى التى تمنع اللبس ، لأنها تصرف عن إرادة المعنى الحقيقى ، وبدونها يصير الكلام إلغازا وتعمية ، فهى تساعد على تحديد المراد ومنع اللبس والغموض .

والعلاقة هى مناسبة وارتباط بين المعنى المنقول عنه والمعنى المنقول إليه ، وسميت علاقة ، لأنها صلة بين المعنيين ، وبها

يتعلق المعنى الثانى بالأول ، فينتقل الذهن منه إلى الثانى .

وهى شرط لصحة المجاز عموما عند البيانيين والأصوليين على حد سواء ، فلا يخلو منها مجاز لغويا كان أم عقليا . وقد اشترطوا فى العلاقة شروطا معينة حتى يصح التجوز وهى : أن تكون مقصودة ومتحققة فى كلا الطرفين وأن يكون نوعها مسموعا عن العرب، فالمعتبر من العلاقة نوعها لا شخصها ، " فإذا عرفنا أن العرب استعملوا لفظا فى سبب معناه أو مشابهة جاز لنا أن نستعمل لفظا آخر غير الذى استعملوه لمثل تلك العلاقة ، ولا يجب أن نقتصر على اللفظ الذى استعملوا خاصة "[1] ، فيجب أن تكون العلاقة مما اعتبر العرب نوعها ، ولا يشترط النقل عنهم فى كل جزئى ، " إذ لا يلزم فى آحاد المجازات أن تنقل بأعيانها عن أهل اللغة ، وذلك لاجماعهم على أن اختراع الاستعارات الغريبة البديعة التى لم تسمع بأعيانها من أهل اللغة من طرق البلاغة وشعبها التى بها ترتفع طبقة الكلام .. ولهذا لم يدونوا المجازات تدوينهم الحقائق "[2] .

ونخلص من هذا إلى أنه لا يشترط السماع فى شخص المجاز إجماعا . والرأى القائل بأن المعتبر من العلاقة شخصها لا نوعها هو رأى ضعيف ، لما يترتب عليه من جمود اللغة ، وحصرها فى المسموع ومنع القياس ، وفى ذلك مافيه من تضييق الواسع وعدم

---

(١) بغية الايضاح جـ ٣ ص ٩١ ط الآداب .

(٢) التلويح على التوضيح للتفتازانى ١/١٥٤ .

التجاوب مع طبائع الأشياء ومقتضيات الحياة فى التطور الذى هو سنة من سنن الكون على مر العصور والأجيال . ولذلك فان الرأى الأول هو الشائع والمعول عليه عند البيانيين والأصوليين .

والعلاقة هى وصف المنقول عنه ، لأن المعنى الحقيقى أولى بالاعتبار . وقيل : هى وصف المنقول إليه وهو المعنى المجازى ، لأنه المراد من اللفظ . وقيل : هى وصفهما معا رعاية لحق كل منهما ، ففى قولك : " رعينا الغيث " تكون العلاقة على الأول السببية ، لأن الغيث سبب فى النبات ، وعلى الثانى المسببية ، لأن النبات وهو المنقول إليه مسبب عن الغيث . وعلى الثالث السببية والمسببية معا ، لأن الأول سبب فى الثانى والثانى مسبب عن الأول .

والذى نرتضيه ونسير عليه هو أن العلاقة وصف المنقول عنه وهو الرأى الأول . وللمجاز المرسل علاقات كثيرة قانونها العام " اللزوم " بمعنى أن يكون بين المعنى المنقول عنه والمعنى المنقول إليه تلازم وارتباط يجمع بينهما فى الذهن . ويسوغ استعمال أحدهما فى موضع الآخر .

وهاهى ذى علاقات المجاز المرسل :

١ ـ السببية : وهى أن يكون المعنى الحقيقى للفظ سببا للمعنى المجازى المراد . مثل : " رعينا الغيث " أى النبات الذى سببه الغيث ، فأنت تلاحظ أن الغيث هنا استعمل فى معنى النبات لعلاقة السببية ، والقرينة هى لفظ " رعينا " ،

لأن الغيث لا يرعى ، وإنما الذى يرعى النبات ، فهذا من باب إطلاق السبب وإرادة المسبب ، أو التعبير عن المسبب باسم السبب .

ومنه استعمال لفظ " اليد " بمعنى النعمة ، لأن من شأن النعمة أن تصدر عن الجارحة ومنها تصل الى المقصود بها . ويشترط أن يكون فى الكلام إشارة إلى المولى لها ، فلا يقال : اتسعت اليد فى البلد ، أو اقتنيت يدا ، كما يقال : اتسعت النعمة فى البلد أو اقتنيت نعمة ، وإنما يقال : جلت يده عندى ، وكثرت أياديه لدى ونحو ذلك .

ومنه اطلاق " الإصبع " على الأثر الحسن كقولهم فى صفة راعى الإبل : " إن له عليها إصبعا " أرادوا أن يقولوا : له عليها أثر حذق فدلوا عليه بإصبع ، لأنه ما من حذق فى عمل يد إلا وهو مستفاد من حسن تصريف الأصابع واللطف فى رفعها ووضعها كما فى الخط والنقش . فذكروا الإصبع وأرادوا الأثر الحسن والمهارة فى الصنعة ودقة الأداء وروعة الإخراج . ومن الواضح أن للاصبع تأثيرا كبيرا فى تحقيق ذلك كله فصح اطلاقه عليها من باب إطلاق السبب وإرادة المسبب ، فهو مجاز مرسل علاقته السببية .

ومنه أيضا اطلاق اسم " السوط " على الضربة الواقعة بالسوط فى قولهم : " ضربته سوطا " وأصل الكلام : ضربته ضربة بالسوط ، فجعلوا أثر السوط سوطا .

وقد جعل الخطيب القزوينى من هذا الباب كلمة " يد " فى الحديث الشريف : " أسرعكن " لحوقا بى — ويروى لحاقا بى —

أطولكن يدا " فاليد فى هذا الحديث بمعنى النعمة والعطاء ، فهى مجاز مرسل علاقته السببية ، وقوله : " أطولكن " المشتق من الطول ضد القصر ترشيح للمجاز ، لأنه ملائم لليد التى هى الجارحة ، فهو نظير ترشيح الاستعارة ، والمعنى بسط اليد بالعطاء . ويحتمل أن يكون أطولكن من الطول ـ بفتح الطاء ـ أى الفضل ، يقال : لفلان على فلان طول أى فضل . فاليد على هذين الوجهين بمعنى النعمة .

ويحتمل أن يكون المراد : أطولكن يدا بالعطاء . أى أمدكن فحذف قوله بالعطاء للعلم به وعلى هذا الوجه تكون اليد فى الحديث حقيقة لا مجازا . وأرجح هذه الثلاثة الرأى الأول حيث يراد بالطول بسط اليد ، لأن الأصل عدم الحذف ، ولأن أطول أكثر فى الطول ـ بضم الضاء ـ ضد القصر .

ومن هذا الباب أيضا كلمة " اليد " إذا استعملت فى القدرة لأن أكثر مايظهر سلطانها فى اليد ، وبها يكون البطش والضرب والقطع والأخذ والدفع والوضع والرفع وغير ذلك من الأفعال التى تنبئ عن وجود القدرة ومكانها (١) . كقول الشاعر :

وما من يد إلا يد الله فوقها * ولا ظالم إلا سيبلى بظالم

وأما اليد فى قول النبى صلى الله عليه وسلم : " المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم " فهو من

---

(١) الايضاح ٣/٩٣ .

تشبيه التمثيل ، وليس من المجاز المرسل فى " اليد " .

والمعنى : أن مثلهم مع كثرتهم فى وجوب الاتفاق بينهم مثل اليد الواحدة ، فكما لايتصور أن يخذل بعض أجزاء اليد بعضا ، وأن تختلف بها الجهة فى التصرف ، كذلك سبيل المؤمنين فى تعاضدهم على المشركين لأن كلمة التوحيد جامعة لهم .

ومنه قوله تعالى : " فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل مااعتدى عليكم "(١) سمى جزاء الاعتداء اعتداء لأنه مسبب عن الاعتداء فقد أطلق السبب وهو الاعتداء وأراد المسبب وهو الجزاء . فهو مجاز مرسل علاقته السببية .

ومنه أيضا قوله تعالى : " وجزاء سيئة سيئة مثلها " فلفظ " سيئة " الأول حقيقة ، وأما الثانى فهو مجاز عن القصاص ، لأنه مسبب عن السيئة ، وكذا قوله تعالى : " ومكروا ومكر الله "(٢) فالمكر من العباد حقيقة ، وأما المكر من الله فهو مجاز عن عقوبته ، لأنه سببها فهو من تسمية المسبب باسم السبب .

وقد ذكر الخطيب فى هذه الآية وجها آخر حيث يقول : " ويحتمل أن يكون مكر الله حقيقة ، لأن المكر هو التدبير فيما يضر الخصم ، وهذا محقق من الله تعالى ، لاستدراجه إياهم بنعمه مع ماأعد لهم من نقمه "(٣) .

---

(١) الآية ١٩٤ من سورة البقرة .
(٢) الآية ٥٤ من آل عمران .
(٣) الايضاح ٣/٩٦ ، ٩٧ .

ومن الواضح أن الآيات الثلاث السابقة من قبيل المشاكلة التى ذكر فيها الشيء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته تحقيقا ، وهى من المحسنات المعنوية ، ولا مانع أن يجتمع فى الشاهد الواحد أكثر من غرض بلاغى ، بل إن ذلك يعد من حسنات الكلام التى ترفع قيمته وتسمو بشأنه فى ميزان البلاغة .

ومن إطلاق السبب وارادة المسبب أيضا قول الشاعر :

ألا لايجهلن أحد علينا * فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فالجهل الأول من أعداء الشاعر حقيقة ، والجهل الثانى الصادر من الشاعر بمثابة الجزاء الذى يرد به على سفاهة الاعداء ، فقد تجوز بلفظ الجهل عن عقوبته وجزائه ، فهو مجاز مرسل علاقته السببية ، لأن الجهل سبب فى العقوبة والجزاء .

ومنه أيضا قول الشاعر :

أكلت دما إن لم أرعك بضرة * بعيدة مهوى القرط طيبة النشر

فاستعمل لفظ " الدم " فى الدية التى تعطى لأولياء القتيل . لأنه سببها ، فهو من اطلاق السبب وإرادة المسبب . فهذه الشواهد السابقة من قبيل المجاز المرسل الذى علاقته السببية .

٢ ـ المسببية : وهى تسمية السبب باسم المسبب ، وذلك يتحقق إذا كان المعنى الحقيقى للفظ سببا عن المعنى المجازى المراد كقولهم : " أمطرت السماء نباتا " أى غيثا يتسبب عنه النبات ، فأطلق المسبب وهو " النبات " على السبب وهو الغيث " ، وفى ذلك ما فيه من الإيجاز والمبالغة فى بيان

أهمية النبات للعربى الذى يتنقل فى الفيافى القفار بحثا عن المرعى الخصب ، وانتجاعا للكلأ الذى تعيش عليه إبله ، وهى مصدر غذائه وقوام حياته .

ومنه قوله تعالى : " وينزل لكم من السماء رزقا " أى مطرا يتسبب عنه الرزق ، فأطلق المسبب " الرزق " وأراد السبب وهو " المطر " ، فالآية الكريمة من قبيل المجاز المرسل الذى علاقته المسببية .

ومن هذا الباب أيضا قوله تعالى : " وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج " على أن المراد بالإنزال معناه اللغوى وهو الحركة من أعلى إلى أسفل ، ومعلوم أن الذى ينزل من السماء فى نظر العين هو الماء الذى ينبت النبات ، وعليه تعيش الأنعام ، يقول الزمخشرى : "لاتعيش الأنعام إلا بالنبات والنبات لايقوم إلا بالماء وقد أنزل الماء فكأنه أنزلها " فقد أطلق المسبب وهو " الأنعام " وأريد السبب وهو " المطر " على سبيل المجاز المرسل الذى علاقته المسببية .

وقيل : معنى " أنزل لكم " : قضى لكم وقسم ، لأن قضاياه وقسمه موصوفة بالنزول من السماء حيث كتب فى اللوح كل كائن يكون . وعلى ذلك فالإنزال هنا لايتعلق بالأنعام نفسها وإنما يتعلق بقضاء الله وحكمه حين ينزل إلى الأرض لتنفيذه ، فقد أطلق المسبب وهو " الإنزال " وأريد السبب وهو " القضاء والحكم " ، فهو مجاز مرسل علاقته المسببية .

وقيل : معنى " أنزل لكم " : خلقها فى الجنة ثم أنزلها ، وعلى ذلك فالنزول هنا حقيقى ، ولا مجاز فى الآية على هذا الرأى ، وقد ذكر الزمخشرى هذه الآراء الثلاثة ونقلها عنه الخطيب القزوينى فى الايضاح (١) .

ومنه قول الشاعر يصف غيثا :

أقبل فى المسن من ربابه * أسنمه الآبال فى سحابه (٢)

فقد أطلق الأسنمة على المطر ، لأنه سبب فى نموها ، إذ ينمو عليه النبات ، وعلى النبات والماء تتغذى الابل فتنمو الأسنمة .

وكذلك قوله تعالى : " ذلك ومن عاقب بمثل ماعوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله " فأنت تلاحظ أن لفظ " عاقب " حقيقة ، لأنه جزاء على عمل سيق ، فاستحق عليه صاحبه عقوبة . أما لفظ " عوقب " فهو مجاز مرسل من تسمية السبب باسم المسبب ، فقد أطلق المعاقبة على سببها وهو الاعتداء ، وفيه مشاكلة بديعية .

ومنه قول الشاعر :

ولم يبق سوى العدوان دناهم كما دانوا

أى جزيناهم بما فعلوا . فالفعل " دناهم " حقيقة ، والفعل " دانوا " مجاز ، لأنه بمعنى " فعلوا " فالفعل الذى صدر

---

(١) الكشاف ٤/١١٤ . وبغية الايضاح ٣/٩٧ ، ٩٨ .

(٢) المسن : موضع جريان الغيث . من قولهم / استمد الفرس : اذا جرى على سننه فى جهة واحدة .
والرباب : السحاب الأبيض . والآبال : جمع إبل وهى الجمال والأسنمة : جمع سنام وهو الحدبة المعروفة فى ظهر الجمل .

منهم تجاه الشاعر هو السبب فى رد الشاعر وقومه على هؤلاء المعتدين فهو من تسمية السبب باسم المسبب . وقد جعلوا منه المثل المشهور : " كما تدين تدان " أى : كما تفعل تجازى بما تفعل ، لأن الجزاء من جنس العمل ، فالفعل الأول " تدين " معناه اللغوى تجازى ، والمراد به هنا " تعمل " أو تفعل . لأن العمل أو الفعل هو سبب المجازاة فهو مجاز مرسل علاقته المسببية حيث أطلق السبب وهو " الدين " على السبب وهو الفعل .

أما تدان : فهو على معناه الحقيقى " تجازى " ، لأنه بمثابة رد فعل لما وقع ، وجزاء عليه .

ومن هذا الباب أيضا قوله تعالى : " ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا " فلفظ " نارا " فى الآية مسبب عن " أكل مال اليتيم " فقد أطلق المسبب وهو النار . وأريد السبب وهو " أكل مال اليتيم " وفى ذلك مافيه من التشنيع على كل ظالم يقدم على هذه الجريمة ، ويقترف هذا الاثم فى حق يتيم يحتاج إلى الرعاية ويستحق العطف والإشفاق من الوصى عليه .

ومنه التعبير بالفعل عن إرادة الفعل ، كقوله تعالى : " فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم " فقد قالوا : إن " قرأت " بمعنى " أردت القراءة " ولا يمكن أن تكون على حقيقتها ، إذ يترتب عليه أن الاستعاذة تعقب القراءة ، بدليل الفاء فى قوله " فاستعذ " لأنها للترتيب والتعقيب ، وهذا غير مراد ، لأن

لأن الاستعاذة مشروعة قبل القراءة لا بعدها . وقد استفاضت بذلك السنة . فإطلاق القراءة على إرادتها مجاز مرسل علاقته السببية ، لأن القراءة مسببة عن إرادتها .

ومنه قوله تعالى : " ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى " أى : أراد النداء والدليل على ذلك قوله " فقال رب " فقد رتب القول على النداء بالفاء مع اتحاد زمانهما فى الواقع ، وهذا دليل على أنه قصد بالنداء : ارادة النداء ، فهو من باب اطلاق المسبب وإرادة السبب مجازا مرسلا علاقته المسببية .

٣ ـ الجزئية : وهى تسمية الشئ باسم جزئه أو هى أن يكون المعنى الحقيقى للفظ المذكور جزءا من المعنى المجازى المراد . كاطلاق العين على الجاسوس والرقبة على الرقيق ، والقيام على الصلاة ، فكل ذلك من باب اطلاق الجزء وارادة الكل فهو مجاز مرسل علاقته الجزئية .

فإطلاق العين على الربيئة أى الشخص الرقيب مجاز مرسل علاقته الجزئية ، وانما أطلقوا هذا الجزء بالذات دون غيره من الأجزاء ، لكون الجارحة هى المقصود فى كون الرجل ربيئة إذ ماعداها لا يغنى شيئا مع فقدها ، فصارت كأنها الشخص كله . وعليه قوله تعالى : " فتحرير رقبة مؤمنة " والمراد : فتحرير عبد مؤمن . فأطلق الجزء وهو الرقبة على الكل وهو العبد الرقيق . ومنه قوله تعالى : " قم الليل

إلا قليلا " أى : صل . ونحوه : " لاتقم فيه أبدا " أى لاتصل فى مسجد الضرار . وقول النبى صلى الله عليه وسلم : " من قام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ماتقدم من ذنبه أى من صلى فأطلاق القيام على الصلاة من قبيل اطلاق الجزء وإرادة الكل لأنه ركن من أركان الصلاة كما تعرف . ومن ذلك قول الشاعر :

وكنت إذا كف أتتك عديمة * ترجى نوالا من سحابك بلت

فالمراد بالكف هنا الشخص نفسه بقرينة " أتتك " ، لأن الكف هى التى تعطى وهى التى تأخذ عادة ، وبها يكون العطاء والمنع والدفع والأخذ ونحو ذلك .

ويشترط فى هذه العلاقة أن يكون الكل أطلق عليه الجزء مركبا تركيبا حقيقيا ، فلا يصح أن نعبر بالأرض عن مجموع الأرض والسماء ، لأنهما ليسا مركبين تركيبا حقيقيا كما رأينا فى الأمثلة السابقة حين أطلقنا العين على الجاسوس مثلا ، فالجسم مركب من مجموع أعضائه تركيبا حقيقيا ، وكذلك الصلاة تتكون من مجموع الأركان التى نعرفها .

ويشترط أيضا أن يستلزم انتفاء الجزء انتفاء الكل ، فالرقبة مثلا جزء ضرورى لحياة الإنسان ، وبفقدها يفقد الإنسان حياته وكذلك الوجه . ولذلك أطلقت الرقبة على الجسم كله فى قوله تعالى : " فتحرير رقبة " وأطلق الوجه على الذات فى قوله تعالى : " ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى " .

وكذلك يشترط فى الجزء الذى يطلق على الكل أن يكون

له من بين الأجزاء مزيد اختصاص بالمعنى المقصود من كله ، ولذلك نراهم لم يطلقوا اليد أو الرجل على الجاسوس ، وإنما أطلقوا العين ، لكونها المقصودة فى كون الرجل رئيسة ، إذ ماعداها لا يغنى شيئا مع فقدها فصارت كأنها الشخص كله .

ومن ذلك اطلاق " الأذن " على الرجل الذى يصدق كل قول ويصغى لكل كلام ، فالأذن بالنسبة له هى أهم عضو تتحقق به هذه المهمة ، وبدونها لا يستطيع أن يفعل شيئا من ذلك وعليه قوله تعالى : " ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم " فقد سمى بالجارحة التى هى آلة السماع ، كأن جملته أذن سامعة .

ومنه إطلاق الظهر على المطية ، فالظهر أهم جزء تكون به المطية مطية ، كقوله صلى الله عليه وسلم : "ان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى " فاطلاق الظهر على الدابة مجاز مرسل علاقته الجزئية .

٤ ـ الكلية : وهى تسمية الجزء باسم كله . من ذلك قوله تعالى : " يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت " فقد أطلقت الأصابع وأريد بها أطرافها (أناملها) على سبيل المجاز المرسل الذى علاقته الكلية . والقرينة استحالة دخول الأصابع بتمامها فى الآذان . وفى هذا التعبير مزيد مبالغة فى تصوير خوفهم من الصواعق حيث يحاولون أن يسدوا آذانهم بالأصابع كلها .

ومنه قولهم : " قطعت السارق " وانما قطعت يده ، وعليه قوله تعالى : " والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما "والقطع انما يكون إلى الرسغ فقط ، فاطلاق الأيدى على الرسغ مجاز مرسل علاقته الكلية . ومن ذلك أيضا قول الشاعر :

تسيل على حد الظباة نفوسنـــــا
وليست على غير الظباة تسيـــل

فقد استعمل لفظ النفوس بمعنى الدم بقرينة قوله " تسيل " لأن النفوس لاتسيل وإنما الدم هو الذى يسيل على حد الظباة فهو من اطلاق الكل على الجزء ، والعلاقة الكلية .

ومنه قوله تعالى : " يقولون بأفواههم ما ليس فـــى قلوبهم " فقد أراد من الأفواه الألسنة وهى جزء من الأفواه ، وكقول المتنبى :

أقمت بأرض مصر فلا ورائى * تخب بى الركاب ولا أمامى

فالمتنبى أقام فى جزء من أرض مصر ، وليس فى مصر كلهـــا . فقد أطلق الكل " أرض مصر " وأراد الجزء وهو المكان المحدد الذى نزل به ، على سبيل المجاز المرسل الذى علاقتـــــه الكلية .

٥ ــ اعتبار ماكان : وهى تسمية الشئ باسم ماكان عليه ، كقولـــه عز وجل : " وآتوا اليتامى أموالهم " فقد أطلق اليتامى على البالغين ، لأن إيتاء المال إنما يكون بعد البلوغ ، فاطلاق " اليتامى " عليهم إنما هو باعتبار الوصف الذى كانوا عليـــه

قبل البلوغ ، إذ لا يتم بعد البلوغ وفى مزية هذا المجاز يقول الزمخشرى : " فى هذا التعبير إشارة الى أنه لا يؤخر دفع أموالهم إليهم عن حد البلوغ ، ولا يمطلوا إن أونس منهم الرشد وأن يؤتوها قبل أن يزول عنهم اسم اليتامى والصغار "(١) .

ومن هذا النوع قوله تعالى : " انه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى " فقد سماه مجرما باعتبار ماكان عليه فى الدنيا من الإجرام ، إذ لا يوصف المرء بالاجرام بعد موته ، لاستحالة وقوع الجريمة منه فى الدار الآخرة ، فهو مجاز مرسل علاقته اعتبار ماكان . وفى التعبير المجازى تشنيع على المجرم وتحقير له ، فالإجرام لاصق به وملازم له ، وسيظل متصفا بهذا الوصف الى أن يقف بين يدى الله للحساب ، لتكون النار مثواه وبئس المصير .

٦ ـ اعتبار مايكون : وهى تسمية الشئ باسم مايؤول إليه كقوله تعالى : " إنى أرانى أعصر خمرا " أى عنبا يؤول إلى الخمر فقد أطلق على العنب لفظ " الخمر " فهو مجاز مرسل علاقته اعتبار مايكون . ومنه قوله تعالى فى " وصف القرآن الكريم : " هدى للمتقين " أى الصائرين إلى الهدى بعد الضلال . سماهم متقين باعتبار مايؤول إليه أمرهم ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " من قتل قتيلا له فله سلبه " والمراد : من قتل شخصا فله سلبه ، فجعل الشخص قتيلا باعتبار مايكون ، لأنه

---

(١) الكشاف ١ / ٤٦٤ .

بالقتل سيصير قتيلا ، وقبل وقوع القتل لم يكن قتيلا ، فلذلك حمل على المجاز لعلاقة اعتبار مايكون . ومنه أيضا قوله تعالى : " فبشرناه بغلام حليم " فوصف الغلام بالحلم إنما هو باعتبار مايكون فى مستقبل أيامه ، إذ لايكون كذلك عند مولده ، وإنما يتصف بذلك بعد سنين . وعليه قوله تعالى : " ولايلدوا إلا فاجرا كفارا " أى وليدا يؤول أمره إلى الفجور والكفر بقرينة " ولايلدوا " إذ لا يمكن أن يكون الوليد كذلك حين ولادته .

ومنه قوله تعالى : " إنك ميت وانهم ميتون " جعل المخاطب ميتا ، لأنه سينتهى إلى الموت مستقبلا . ففى قوله " ميت " مجاز مرسل علاقته اعتبار مايكون . والقرينة على هذا التجوز مقام الخطاب . وفى هذا التعبير المجازى حث على العمل لما وراء الدنيا ، واستثمار هذه المدة التى يعيشها الإنسان لتحصيل الخير والاستزادة منه ، فإن العمل الصالح ينفعه فى دنياه وآخراه .

٧ ــ المحلية : وهى تسمية الحال باسم محله كقوله تعالى : "فليدع ناديه " أى أهل ناديه . فالنادى : أسم لمكان الاجتماع ، وقد أطلق وأريد به الحال فيه . والقرينة قوله " فليدع "لأن النادى لايدعى ، وانما يدعى أهله وأعضاؤه الذين يجلسون فيه ، فهذا من إطلاق المحل وإرادة الحال ، على سبيل المجاز المرسل الذى علاقته المحلية . وهو شائع فى

استعمالا تنا . تقول : اجتمع مجلس الشعب ، وعقد مجلس الجامعة اجتماعا . ووافق مجلس الكلية على كذا . تعنى فى كل ذلك : اجتمع أعضاء مجلس الشعب وعقد أعضاء مجلس الجامعة اجتماعا ، ووافق أعضاء مجلس الكلية على هذا المشروع ... الخ . ويرى بعضهم أن هذا من المجاز الحكمى كما فى قوله تعالى : " واسأل القرية " أى أهلها ، فهو من حذف المضاف واعطاء اعرابه للمضاف اليه ، والأصل فى الآية الكريمة : " فليدع أهل ناديه " فحذف المضاف " أهل " ونقل حكمه الإعرابى إلى المضاف إليه " ناديه " . والأرجح أن يكون مجازا مرسلا علاقته المحلية من إطلاق المحل وإرادة الحال فيه . فالمراد من القرية أهلها . والمراد من النادى أهله ، وفى ذلك تقوية للمعنى وتأكيد للأسلوب ، فالقرية كلها تسأل ، والنادى بأسره يدعى ، وهذا أبلغ من التعبير الحقيقى ، لدلالته على ذيوع الخير وانتشاره فى المكان بأسره .

٨ ـ الحالية : وهى إطلاق الحال وإرادة المحل أى أنها عكس المحلية ، نحو قوله تعالى : " وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون " أى فى جنته ، فقد أطلق الرحمة وهى حالة ، وأراد محلها وهو الجنة على سبيل المجاز المرسل الذى علاقته الحالية . وقد أفاد المجاز هنا عموم الرحمة وإحاطتها بهؤلاء المؤمنين إحاطة الظرف بالمظروف ،

وهناك ملحظ آخر وهو أن المجاز يجب [illegible]

ودوامها لهؤلاء البيض الوجوه ، لأن الرحمة صفة من صفات الله الرحمن الرحيم فهي باقية ببقاء الله سبحانه . أما الجنة التي هي محل الرحمة فهي باقية ببقاء الله لها ، وفرق كبير بين هذا وذاك ، وقد جاء التذييل مناسبا لهذا المعنى في قوله تعالى : " هم فيها خالدون " . ومنه قوله تعالى : " إن الأبرار لفي نعيم " ومعلوم أن النعيم لا يحل في النعيم لأنه معنى من المعاني ، وإنما يحل في مكان النعيم وهو الجنة ، فإطلاق اسم " النعيم " على الجنة مجاز مرسل علاقته الحالية ، ولعلك تلاحظ أن أسلوب المجاز هنا يفيد — كسابقه — كثرة النعيم وشموله للأبرار حتى صار محلا لهم يحلون فيه . وهذه المبالغة تؤدي إلى تأكيد المعنى وتقريره في النفوس . ومنه قول الشاعر :

ألما على معن وقولا لقبره ... سقتك الغوادي مربعا ومصوبا

أي ألما على قبر معن . ومعن هو الحال في قبره ، فأطلق اسم الحال وأراد المحل . وكذلك قول المتنبي :

إني نزلت بكذابين ضيفهم ... عن القرى وعن الترحال محدود

يريد أن يقول : إني نزلت بأرض الكذابين ، فهو مجاز مرسل علاقته الحالية .

٩ — الآلية : أي التعبير عن الشيء باسم آلته . كقوله تعالى :

" وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه " فالمراد من اللسان هنا اللغة أى بلغة قومه ، واللسان هو أداة الكلام وآلة التعبير . ومنه قوله تعالى : " واجعل لى لسان صدق فى الآخرين " أى ذكرا حسنا وثناء عاطرا يدوم بعد موتى ، فاللسان آلة الذكر الحسن ، ولذلك أطلقه عليه مجازا مرسلا علاقته الآلية .

وربما تتداخل الآلية والسببية فى بعض الأمثلة ، ويختلط الأمر ، وعلاقة الآلية من السببية فى الأصل إلا أنها أكثر خصوصية ، إذ يقتصر فيها على ذكر الآلة التى يؤدى بها الفعل بدلا من ذكر الفعل نفسه ، ولذلك عد بعضهم قول الشاعر :

وما منه إلا يد الله نوقها * ولا ظالم إلا سيبلى بظالم

من علاقة الآلية فى كلمة " يد " واليد آلة القوة ، وقد سبق أن استعمال اليد فى القدرة والقوة مجاز مرسل علاقته السببية كما عرفت .

٥ - المجاورة : وهى كون الشئ مجاورا لآخر فى مكانه ، فيطلق اسمه على مجاوره ، فمنه اطلاق الراوية على المزادة ، فالراوية فى الأصل اسم للبعير الذى يحمل المزادة وهى القربة التى يستقى بها ، فأطلق على نفس المزادة لمجاورتها للبعير ، فالبعير والمزادة متجاوران ، والمتجاوران ينتقل من أحدهما

إلى الآخر : كالحنض في البعير مع كونه لمتاع البيت لحمله إياه ، والسماء في الغيث في نحو قولهم : أصابتنا السماء لكونه من جهتها ينزل .

ومنه قول عنترة :

فشككت بالرمح الأصم ثيابه * ليس الكريم على القنا بمحرم

فقد أطلق الثياب وأراد ما يجاورها وهو نفس الكريم ، والمراد : شككته بالرمح الأصم .

ويجوز أن تكون العلاقة هنا المحلية ، لأن الثياب محل للابسها ، فيكون من باب إطلاق المحل وإرادة الحال فيه . والقرينة على كلا الوجهين قوله " فشككت " إذ الطعن انما يكون في الجسم لا في الثوب ، لأن الجسم هو المقصود بالضرب والطعن .

التعليق الاشتقاقي : وهو أن يطلق اللفظ ويراد به ما اشتق منه . ومن ذلك : إطلاق المصدر على اسم الفاعل ، تقول : هذا رجل عدل أي عادل . وهو نبيل وذكاء أي نبيل وذكي . ومنه قوله تعالى : " هدى للمتقين " أي هاد لهم ، وفي ذلك التعبير مبالغة في وصف القرآن الكريم بالهداية حيث جعله هدى ، فهو الهدى نفسه وتقول : هو رجل طهر . أي طاهر . وكما في اطلاق المصدر على اسم المفعول كقوله تعالى : " هذا خلق الله " أي مخلوقه . وقوله تعالى : " ولا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء " أي معلومه .

وقد يطلق اسم الفاعل على المصدر ، وكذلك اسم المفعول على عكس ما تقدم ، فالأول نحو : قم قائما واسكت ساكتا ، أى قياما وسكوتا . والثانى كقوله تعالى : " بأيكم المفتون " أى الفتنة .

وقد يطلق المشتق على المشتق ، مثل اطلاق اسم الفاعل على المفعول فى قوله تعالى : " فهو فى عيشة راضية " . واطلاق اسم المفعول على الفاعل فى قوله تعالى " حجابا مستورا " أى ساترا . وقوله تعالى : " إنه كان وعده مأتيا " أى آتيا . فقد جاء اسم المفعول " مستورا " و " مأتيا " موضع اسم الفاعل " ساترا وآتيا " للمبالغة فى هذا المعنى على سبيل المجاز المرسل الذى علاقته التعلق الاشتقاقى .

تلك بعض علاقات المجاز المرسل وهى كثيرة ومتنوعة وقد أوصلها بعض العلماء إلى خمس وعشرين علاقة ، بل إن بعض الأصوليين أوصلها إلى أربعين علاقة كما يذكر الشوكانى فى كتابه " ارشاد الفحول " وعلى أى حال فان هذه العلاقات يرجع بعضها إلى بعض ويتولد بعضها من بعض ، ويجمعها كلها قانون واحد وهو اللزوم ، بمعنى أن يكون هناك تلازم وارتباط بين المعنى المنقول عنه والمعنى المنقول إليه بحيث ينتقل الذهن من الأول إلى الثانى كما عرفت آنفا .

بلاغة المجاز المرسل :

لعل السر فى روعة هذا النوع من المجاز يعود إلى ما فيه من

الايجاز والمبالغة فى أداء المعنى وما يترتب على تلك المبالغة من تأكيد المعنى وتقريره فى النفوس . ولعلك تلحظ هذه المبالغة فى تصوير السبب مسببا ، وتصوير المسبب سببا وذلك فى قول العربى : أمطرت السماء نباتا ، وفى قوله : رعينا الغيث ، فالتعبير الأول — يوحى بمدى أهمية النبات فى تلك البيئة الصحراوية القاحلة ، ويبين حرص العربى على انتجاع الكلأ حيثما حل وارتحل ، والتعبير الثانى يوحى بمدى تلهف العربى على نزول الغيث ، لما يترتب عليه من احياء الأرض وازدهارها بالنبات ، وهو غذاء الإبل فى تلك البيئة البدوية ، ولا شك أن المجاز هو الذى ساعد العربى على التعبير عن معناه بطريق المبالغة .

وكل مثل ذلك فى جعل الكل جزءا ، والجزء كلا ، والمحل حالا والحال محلا وهكذا فى مختلف العلاقات المجازية . هذا بالاضافة إلى ما فيه من تأكيد المعنى وتقريره ، فهو كدعوى الشئ بالبينة ، ولا شك أن الدعوى المشفوعة ببينة آكد وأقوى من دعوى لا تؤيدها بينة ، ولا يؤازرها دليل . ولنأخذ مثلا لذلك قول الحق تبارك وتعالى : " قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر " ومعروف أن البغضاء لا تظهر بنفسها من الأفواه ، لأنها معنى قلبى ، وإنما المراد بالبغضاء آثارها من الكلمات العدائية التى يحاولون بها النيل من الإسلام والغض من شأنه ، ويعلنون بها كراهتهم لذلك الدين الحق . فالآية من باب اطلاق السبب وهو البغضاء وارادة المسبب وهو الكلمات العدائية المسببة عن

البغضاء ، وفائدة هنا المجاز :

المبالغة فى تلك الكلمات وتصويرها بصورة البغضاء حتى كأن الذى خرج من أفواههم هو نفس البغضاء ، بعد أن عجزوا عن إخفائها ، وفشلوا فى إخفاء مشاعرهم الآثمة تجاه الاسلام ، لأن وطأة ذلك الدين الحق على نفوسهم شديدة وحملته على ماهم فيه من المنكرات قاسية .

ثم تأمل الايجاز المعجز فى تلك الآية ، فهى أوجز من أن يقال : قد بدت الكلمات العدائية من أفواههم بسبب البغضاء التى تمكنت من قلوبهم وملأت نفوسهم حتى أبت إلا أن تفيض من الأفواه ، وهذا هو معنى قول البيانيين : إن المجاز كدعوى الشئ بالبينة والبرهان ، لأنه يؤكد المعنى ويقرره .

وفى تصوير المسبب بصورة السبب هنا تشنيع وتنفير من اتخاذ مثل هؤلاء بطانة وتحذير للمسلمين من التفكير فى ذلك ، فالله سبحانه وتعالى ينبه عباده المؤمنين إلى مغبة الوقوع فى هذا الخطأ ، ويوجههم الى أقوم طريق . هذه بعض أسرار البلاغة فى تلك الآية الكريمة من كتاب الله ، وهى شاهد حق على أن القرآن الكريم هو منبع البيان ومؤئل البلاغة وذروة سنام الإعجاز .

الفصل الثالث

الكـــناية

تعريفها :

الكناية فى اللغة : أن تتكلم بشئ وتريد به غيره [١] .فهى الكلام الذى أريد به غيره ،أو الكلام الذى يستدل به على غيره ، يقال : كنى عن الأمر بغيره يكنى كناية ــ : يعنى إذا تكلم بغيره ما يستدل عليه [٢].

وهى مصدر كنى عن كذا يكنى من باب رمى يرمى ، وكنا يكنو من باب دعا يدعو، وكناية مصدر للفعلين جميعا .

والمعنى فى هذه المادة ومشتقاتها يدور حول الستر والإخفاء ، وعدم الإظهار والمصارحة ، تقول : كنيت الشئ إذا سترته وأخفيته بغيره أنشد الجوهرى لأبى زياد :

وَإِنِّى لأَكْنُوْ عَنْ قَذُوَر بِغَيْرِهَا
وَأُعْرِبُ أَحْيَانًا بِهَا فَأُصَارِحُ

وأنشدوا لغير أبى زياد :

وَقَدْ أَرْسَلَتْ فِى السِّرِّ أَنْ قَدَ فَضَحْتَنِى
وَقَدْ بُحْتَ بِاسْمِى فى النَّسِيبِ وَمَا تَكْنِى

وهذان الشاهدان يدلان على أن فعل الكناية يأتى واويا ويائيا [٣].

أما الكناية فى اصطلاح البيانيين فهى : لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة المعنى الأصلى معه [٤] .

---

(١) الصحاح : (كنى) .
(٢) اللسان : (كنى) .
(٣) ففى الفعل لغتان : الأول كنا يكنو كدعا يدعو وشاهدها البيت الأول ، والثانية : كنى يكنى كرمى يرمى وشاهدها البيت الثانى .
(٤) بغية الإيضاح ١٧٣/٣ .

وقد اشتمل هذا التعريف على قيدين :

١ــ أريد به لازم معناه : لإخراج الحقيقة ، لأنها لفظ أريد به نفس معناه ، وليس المراد باللزوم بين المعنى الحقيقى والمعنى الكنائى اللزوم العقلى الذى هو عدم الانفكاك بين المتلازمين ، بل اللزوم بمعنى مطلق الارتباط ولو لعرف أو عادة .

٢ــ مع جواز المعنى إرادة المعنى الأصلى معه : لإخراج المجاز ، لأن المجاز لايجوز فيه إرادة المعنى الأصلى مع المعنى المجازى ، لأن قرينة المجاوز مانعه من إرادة المعنى الحقيقى [1] .

وإيضاح ذلك : أن المتكلم إذا أراد إفادة معنى من المعانى بطريق الكناية فلا يذكره بلفظه الصريح الذى وضع له فى أصل اللغة بل يعمد إلى ذكرلفظ يدل على معنى من شأن ذلك المعنى أن يكون متبوعا للمعنى الكنائى المراد .

فالخنساء عندما أرادت أن تصف أخاها صخرا بطول القامة والسيادة والشرف ، وكثرة الكرم ، لم تقل : إنه طويل القامة ، سيد شويف ، كثير الكرم، ولكنها قالت :

طَوِيلُ النِجَادِ ، رَفِيعَ الْعِمَا

د ، كثِيرُ الرَمَادِ إِذا مَا شَتَا

وامروه القيس عندما أراد أن يصف امرأة : بأنها مترفة منعمة محذومة لها من يكفيها أمرها ، لم يصرح بذلك ولكنه قال :

وَتُضْحِي فَتِيتُ الْمِسْكِ فَوْقَ فِرَاشِهَا

نَئُومُ الضُّحَى لَمْ تَنْتَطِقْ عَنْ تَفَضُّلِ

والمتكلم عندما يتحدث عن خجل شخص واجهه بالحق لايقول :

---

(١) شروح التلخيص ٤/٢٣٧ ، ٢٣٨ .

واجهته بالحق فخجل ، وإنما يقول : واجهته بالحق فاحمر وجهه ، فيكنى بحمرة الوجه عما أصابه من خجل ، ويتحدث عن إنسان قابله فأعرض عنه، فلا يقول قابلته فأعرض عنى ، بل يقول : قابلته فلوى عنقه ، فيكنى بَلىّ العنق عن الإعراض .

ففى كل هذه الأمثلة أطلق لفظ الملزوم ، وأريد به لازمه ، لأن طول النجاد فى مقام المدح يستلزم طول القامة ويدل عليها ، وكذلك رفعة العماد ــ وهى الأبنة الرفيعة ــ تستلزم الشرف والسيادة عند العرب ، وكثرة الرماد تستلزم كثرة الكرم وتدل عليه ، وكذلك كثرة نوم الضحى تستلزم الترف والرفاهية وتدل عليهما ، وحمرة الوجه عند المواجهة بالحق تستلزم الخجل وتدل عليه "وَلىّ العنق عند المقابلة يستلزم الإعراض ويدل عليه .

ولا يمتنع مع إرادة اللازم أن يكون اللزوم حاصلا غير مراد ، كحصول الحمرة على الحقيقة فى وجه من خجل ، ووجود لَىّ العنق ممن أعرض ، وكون حمالة السيف طويلة مع طول القامة ، وكون المرأة المترفة لا تفارق مرقدها إلا بعد الضحى ، لأن قرينة الكناية تعين المعنى المراد للمتكلم ، ولا تنفى إرادة المعنى الأصلى معه ، ليكون تابعا للمعنى المراد ، ولا يكون مقصودا بالإفادة ، كقرينة المدح فى قولهم : "طويل النجاد ، ونئوم الضحى" فإنها تعين المعنى المراد ، وهو طول القامة ،والترف ولا تمنع إرادة المعنى الأصلى ــ كما سبق بيانه ــ .

تنبيه :

ينبغى أن تعلم أن لازم المعنى وهو المقصود والمراد يقال له معنى كنائى ، وملزوم هذا المعنى يقال له حقيقى ، وقد تمتنع إرادة المعنى الحقيقى فى الكناية لعارض يمنع من إرادته ، كأن يكون المعنى الحقيقى غير متحقق

فى الواقع ، كما تقول كناية عن طول القامة : "فلان طويل النجاد [١] . إذ يصح أن تقول هذا الشخص لا سيف له فضلا عن أن تكون له نجاد .... أو لأن المعنى الحقيقى مستحيل ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [٢] كناية عن الاستيلاء والسيطرة . فالمعنى الحقيقى هنا تمتنع إرادته ، إذ يستحيل على الله تعالى أن ينسب إليه الاستواء بمعناه الحقيقى وهو : (الجلوس). كقوله تعالى : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [٣] كناية عن الجود ، لأن اليد بمعناها الحقيقى وهو الجارحة مستحيل ثبوتها لله ـ تعالى .

ولكن هذا وذاك لا يمنع من كون هذه الأساليب من الكناية "لأنه لولا خصوص المادة لجازت إرادة معانيها الحقيقية ، لأن الشأن فى قرينة الكناية أنها مجوزة لا مانعة ، فمتى تحقق هذا الشرط تحققت الكناية .

الكناية عند عبد القاهر والسكاكى :

ما ذكرناه فى تعريف الكناية من أنها : لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة المعنى الأصلى معه . هو تعريف الخطيب القزوينى ـــ أما عبد القاهر والسكاكى فيريان أن الكناية هى : لفظ أريد به ملزوم معناه مع جواز إرادة المعنى الحقيقى معه .

والفرق بين ما ذهب إليه الخطيب ، وما ذهب إليه عبد القاهر والسكاكى ، هو أن الانتقال فى الكناية عندهما من اللازم إلى الملزوم ، كالانتقال من طول النجاد الذى هو لازم لطول القامة إليه أى إلى طول القامة ـــ فى قولك : "فلان طويل النجاد" .

والانتقال فى المجاز من الملزوم إلى اللازم ، كالانتقال من الأسد الذى هو ملزوم الشجاع إلى الشجاع فى قولك : "رأيت أسدا يرمى" ومن الغيث

---

(١) النجاد : حمالة السيف التى تعلق على الكتف
(٢) الآية ٥ من سورة طه .
(٣) من الآية ٦٤ من سورة المائدة .

الذى هو ملزوم النبات إلى النبات فى قولك "رعينا الغيث" [١] وعند الخطيب الانتقال فى الكناية كالمجاز من المازوم إلى اللازم كالانتقال من طول النجاد الذى هو ملزوم لطول القامة إليه ــ أى : إلى طول القامة ــ .

والخلاف بينهما لفظى ، فالانتقال عند الجميع من طول النجاد إلى طول القامة . وطول النجاد لازم لطول القامة عند عبد القاهر والسكاكى . وملزوم عند الخطيب القزوينى .

وإن شئت قل : أنه لا خلاف بين الفريقين لأن الخطيب يقصد اللزوم فى الذهن ، وعبد القاهر أوالسكاكى يريد أن التلازم فى الوجود والحصول فى الخارج ، ومن المقرر المعلوم أن التلازم فى الوجود ملزوم فى الخارج ، ألا ترى أن طول القامة يوجدأولا ثم يتبعه فى الوجود طول النجاد ، وأنت إذا نظرت إلى نجاد طويلة علمت منها أن صاحبها طويل ، فطول القامة لازم لطول النجاد فى الذهن أى من حيث التصور والعلم ، أما من حيث الوجود والحصول فى الخارج فطول القامة ملزوم وطول النجاد لازم ، وهكذا كل لازم فى الوجود فى باب الكناية ملزوم فى الذهن .

هذا وقد قال البلاغين : أن اللازم فى الكناية لازم مساوٍ فيصح أن يسمى اللازم حينئذ ملزوما ، والملزوم لازما [٢] .

فالخلاف ــ أن كان ثمة خلاف ــ سهل يسير .

الفرق بين الكناية والمجاز :

يرى الخطيب أن الكناية تفترق عن المجاز من حيث الفائدة التى تؤديها القرينة فى كل منهما "فقرينة المجاز تمنع إرادة المعنى الحقيقى ، وقرينة الكناية لا تمنعها ، إلا إذا عرض عارض خارجى يمنع إرادته فى الكناية ،

---

(١)المطول من ٤٠٨ .
(٢)المطول ص ٤٠٨ .

فيكون المنع من العارض لا من القرينة .

أما السكاكى [١] فقد فرق بين الكناية والمجاز بهذا الفارق الذى ذكره الخطيب وهو القرينة ، وبفارق آخر ــ بناء على رأيه ــ فى تعريف الكناية فهو يقول : الكناية : هى ترك التصرح بذكر الشئ إلى ذكر ما يلزمه ، لينتقل من المذكور إلى المتروك ، كما تقول : فلان طويل النجاد ، لينتقل منه إلى ما هو ملزومه ، وهو طول القامة ، وكماتقول : فلانة تؤوم الضحى ، لينتقل إلى ما هو لازمه ، وهو كونها مخدومة ، غير محتاجة إلى السعى بنفسها فى إصلاح المهمات [٢] . فيكون المذكور فى رأيه هو لفظ اللازم ، والمراد به الملزوم ، على عكس ما ذكر الخطيب القزوينى ، وعلى هذا يكون الفرق بين المجاز والكناية عنده ، أن الانتقال فى الكناية من اللازم إلى الملزوم ، وفى المجاز الانتقال من الملزوم إلى اللازم ، لأن فى مثل قولك "رأيت أسدا" تنتقل من الملزوم ، وهو الحيوان المفترس ، إلى الصفة اللازمة له ، وهى الشجاعة .

ومن هنا يعلم أن الكناية ــ عند الخطيب ــ واسطة بين الحقيقة والمجاز ، فهى ليست بحقيقة لأن اللفظ لم يرد به معناه الحقيقى ، بل أريد به لازمه ، وليست بمجاز ، لأن المجاز لابد له من قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقى ، وقرينة الكناية تعين المعنى المراد للمتكلم ، ولا تنفى إرادة المعنى الأصلى معه .

أما الكناية عند عبد القاهر ومن تبع مذهبه كالسكاكى فهى من قبيل الحقيقة ، على التوسع فى معنى الحقيقة فهم يعرفونها بأنها : اللفظ المستعمل فيما وضع له ، سواء أكان ما وضع له مقصودا لذاته ، أم مقصودا لينتقل

---

(١) وهو مذهب الإمام عبد القاهر كما تقدم .
(٢) المطول ص ٤٠٢ .

منه إلى غيره .

والكناية من النوع الثانى أى : أنها لفظ مستعمل فيما وضع له لينتقل منه إلى غير الموضوع له ، بحيث يكون غير الموضوع له هو : متعلق الإثبات والنفى ، ومرجع الصدق والكذب .

أما المعنى الحقيقى للفظ الكناية فليس موردا لذلك ، بدليل الحكم بصدق الخبر إذا وصفت كريما لا رماد عنده بأنه كثير الرماد ، وكذا إذا وصفت إمرأة طويلة العنق بأنها : بعيدة مهوى القرط ، فى حين أنها غانية لا قرط عندها ، ومثل ذلك طول القامة إذا عبرت عنه بطول النجاد صفة لإنسان لانجاد عنده. لكن الذى ذهب إليه الخطيب فى كون الكناية واسطة هو الأوفق، لأنه الأقرب إلى التحديد اللغوى ، ولهذا سنعول عليه فى الشرح والتوجيه .

أقسام الكناية

إذا أنت تتبعت أساليب الكناية فى القرآن الكريم وفى الكلام الأدبى شعرا ونثرا وجدت المعنى الكنائى المراد لايعدو أن يكون واحدا من ثلاثة أمور .

الأول : أن يكون موصوفا ،والمراد بالموصوف ما قام به غيره وكان صالحا للاتصاف بذلك الغير ولائقا به ومناسبا له .

الثانى : ان يكون صفة ، والمراد بالصفة هنا المعنى القائم بالغير لا خصوص النعت النحوى : كالمجد والشرف والجود والبخل والشجاعة والجبن والذكاء والغباوة والطول والقصر والحسن والقبح ،وما شاكل ذلك .

الثالث : أن يكون نسبة بين شيئين ، والمراد بالنسبة هو : إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه .

وسنوضح لك فى الفصول الآتية ضوابط كل نوع وسِمته التى يتميز بها عن غيره ، ونسوق لك الكثير من شواهده لتتبين الفرق بين ثلاثتها من مثلها :

وينبغى أن تعلم أن هذا التقسيم للكناية إنما هو باعتبار المعنى المكنى عنه وهو المعنى الكنائى المراد بها ، لأن المعنى المراد ــ وهو المكنى عنه ــ إما أن يكون ذاتا مختصة بالصفة المذكورة فى اللغة فتكون كناية عن موصوف ، وإما أن يكون صفة لازمة لصفة أخرى ، هى المذكورة فى اللفظ، فتكون كناية عن صفة ،وإما أن يكون نسبة بالإثبات أو النفى حاصلة بين شيئين ، فتكون كناية عن نسبة .

الكناية عن الموصوف :

ضابطها : أن يصرح بالصفة ، وبالنسبة ، ويطوى الموصوف المطلوب بالكناية ولا يصرح به ، بل يذكر مكانه صفة أو أوصاف تختص به وتدل عليه . كما فى قولك : "أم الخبائث حرمت فى الكتاب والسنة" كناية عن الخمر ، فقد صرح فى هذه الكناية بالصفة وهى (أم الخبائث) وصرح بالنسبة ، وهى إسناد التحريم إليها ، ولم يصرح بالموصوف المطلوب نسبة التحريم إليه ، وهو (الخمر) ولكن ذكر مكانه وصف خاص به ، وهو كونه أم الخبائث ، لشهرة الخمر عند العقلاء بجلب المصائب ، وتولد الكوارث فى العقل والمال والبدن .

والكناية عن الموصوف تنقسم باعتبار لفظها المكنى به على قسمين :

الأول : أن يكون لفظها المكنى به دالا على معنى واحد ، ثم أريد به ذات اختص بها هذا المعنى : والمراد بالمعنى الواحد ما قابل المعانى المتعددة : ، لا ما قابل المثنى والجمع ، كقولك : "زرت أمس المضياف" كناية عن شخص معين وهو : محمد مثلا ، وكما قول عمرو بن بعد يكوب :

الضَّارِبِينَ بِكُلِّ أَبْيَضَ مِخْذَمٍ
وَالطَّاعِنِينَ مَجَامِعَ الْأَضْغَانِ (١)

قوله : (مجامع الأضغان) وصف واحد ، موصوفه القلوب ، فأطلق الشاعر هذه الصفة لاختصاصها بالقلوب وأراد موصوفها ، فإذا هى كناية عن موصوف هو القلوب .

ونحوه قول البحترى فى قصيدته التى يذكر فيها قتله الذئب :

فَأَتْبَعْتُهَا أُخْرَى فَأَضْلَلْتُ نَصْلَهَا
بِحَيْثُ يَكُونُ اللُّبُّ وَالرُّعْبُ وَالْحِقْدُ (٢)

بقوله : بحيث يكون اللب والرعب والحقد ثلاث كنايات لا كناية واحدة، لاستقلال كل واحد منها بإفادة المقصود ، لأن تقدير الكلام : بحيث يكون اللب ، وبحيث يكون الرعب والحقد ، والمكنى عنه واحد فيها كلها وهو القلب .

وهو قريب من قول عمرو السابق (والطاعنين مجامع الأضغان) ولكن قول عمرو فى غاية الجودة ، لأنهم إنما يطاعنون الأعداء من أجل أضغانهم ، فإذا وقع الطعن موضع الضغن فذلك غاية كل مطلوب .

ومن الكناية عن القلب قول الآخر :

قَوْمٌ تُرَى أَرْمَاحَهُمْ يَوْمَ الْوَغَى
مَشْغُوفَةً بِمَـــوَاطِنِ الْكِتْمَانِ

وقول أبى نواس فى الخمر :

---

(١) الأبيض : السيف ، والمخذم كمنبر القاطع من السيوف . والأضغان : جمع ضغن وهو الحقد. وكل من الضاربين والطاعنين منصوب على المدح - يصفهم بقدرتهم على النكاية والفتك بالأعداء .

(٢) أضللت : أخفيت وغيبت ، النصل : حديدة الرمح والسهم ، فأتبعتها : الضمير للضربة.

وَلَمَّا شَرِبْنَـــــاهَا وَدَبَّ دَبِيبُهَا
إِلَى مَوْطِنِ الأَسْرَارِ قُلْتُ لَهَا : قِفِي

وقول آخر يرثي رجلا مات بعلة فى قلبه :

وَدَبَّتْ لَهُ فِي مَوْطِنِ الْحِلْمِ عِلَّةٌ
لَهَا كالصَّلَالِ الرُّقْشِ شَرٌّ دَبِيبِ [1]

كل هذه كنايات عن موصوف وهو القلب للاعتقاد السائد عند العرب بأن القلب هو موطن كل هذه الصفات ، لأنه كما يقولون : موضع العقل والتفكير .

والثانى : هو ما كانت الكناية فيه ألفاظا دلت على معان متعددة ،كل واحد منها يصلح صفة للموصوف المكنى عنه ، ولكنه لا يختص به ، بل يوجد فيه وفى غيره ، ولا يتم الاختصاص إلا بالنظر عليها مجتمعة ، كقولهم : فى الكناية عن الإنسان "حَيٌّ مستوى القامة ، عريض الأظافر" فالحياة صفة فى الإنسان ، ولكنها لا تخصه ، وكذلك طول القامة ، وعرض الأظافر . ولكنها مجتمعة تحدد معناه ، وتدل عليه ،لأنها لا توجد مجتمعة فى غيره .

ومن ذلك قوله ــ تعالى ــ كناية عن السفينة : ﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴾[2]فقد كنى بألواح عن السفينة ،لأن مجموع الأمرين مجتمعين وصف مختص بالسفينة [3] .

وقوله تعالى : ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ [4] فقد

---

(١) الصلال : جمع صِل ــ بكسر الصاد ــ

(٢) الآية ١٣ من سورة القمر .
(٣) انظر : روح المعانى للألوسى٣٧/٨٣ .
(٤) الآية ١٨ من سورة الزخرف .

كنى بذلك عن المرأة ، لأن مجموع الأمرين وهما : التنشئة فى الزينة ، وعدم القدرة على الإبانة فى الجدال ، وصف خاص بالمرأة .

الكناية عن الصفة :

ضابطها : أن يصرح بالموصوف وبالنسبة إليه ، ولا يصرح بالصفة المطلوب لإفادتها ،ولكن يذكر مكانها صفة تستتبع الصفة المطلوب إفادتها وتستلزمها . كما فى قوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ (١) فإنه قد كنى بالعض على اليدين عن الندم ، وقد صرح بالموصوف وهو (الظالم) وصرح بالنسبة وهو إسناد العض ولم يصرح بالصفة المطلوب نسبتها وهى (الندم) ولكن ذكر مكانها صفة أخرى تستلزمها وتدل عليها وهى العض على اليدين.

وقوله تعالى ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ (٢) فإنه قد كنى بتقليب الكفين عن الحسرة وهى كناية عن صفة ، فتقليب الكف بالكف صفة تلازمها عادة صفة الندم ، فأطلق لفظ الملزوم وأريد لازمه ، ومثل هذه الكناية قولهم: "ضرب فلان كفا بكف" يريدون : ندم ، ومثل : "محمد كثير الإخوان" كناية عن حسن خلقه وطيب نفسه فالموصوف مذكور وهو محمد ، والنسبة مصرح بها وهى إسناد كثرة الإخوان عليه ، ولم يصرح بالصفة المطلوب إفادتها وهى حسن الخلق، ولكن ذكر مكانها صفة تستلزمها وتدل عليها وهى كثرة الإخوان .

ومثل قولك : "محمد طاهر الذيل ، نظيف اليد" كناية عن عفته ونزاهته، فالموصوف مذكور وهو محمد ، وبالنسبة مصرح بها وهى إسناد

---

(١) الآية ٢٧ من سورة الفرقان .
(٢) الآية ٤٢ من سورة الكهف .

طهارة الذيل ونظافة اليد إليه ،ولكنه لم يصرح بالصفة المطلوب إفادتها وهى العفة والنزاهة .

أقسام الكناية عن الصفة :

تنقسم الكناية المطلوب بها صفة إلى قسمين :

١ــ قريبة : وهى ما كان الانتقال فيها من المعنى الحقيقى المكنى به ، إلى المعنى الكنائى بغير واسطة كالانتقال من طول النجاد إلى طول القامة فى قولك : "محمد طويل النجاد" كناية عن طول قامته وكالانتقال من ضرب الكف بالكف على الندم ، فى قولك : "ضرب فلان كفا بكف" كناية عن الندم.

وهذه الكناية القريبة تنقسم إلى :

واضحة جلية : وهى ما لا تحتاج فى إدراكها إلى فكر ونظر ،بل يحصل الانتقال فيها بيسر وسهولة ، كالأمثلة المتقدمة ، وقول عمر بن أبى ربيعة :

بَعِيدَةُ مَهْوَى الْقُرْطِ إِمَّا لِنَوْفَلٍ
أَبُوهَا وَإِمَّا عَبْدُ شَمْسٍ وَهَاشِمُ

فقوله : "بعيدة مهوى القرط "كناية عن طول العنق ،وهى كناية قريبة واضحة ، لأن الانتقال من المعنى المكنى به إلى المعنى المكنى عنه حصل بيسر وسهولة من غير حاجة إلى تأمل أو فكر .

وهكذا كل كناية يفهم منها المراد من غير واسطة ، وفى أقصر زمن ، ودون حاجة إلى تأمل .

وخفية : وهى ما تحتاج فى إدراكها إلى شئ من التفكير أو كان اللزوم مبنيا على عرف لم يبلغ حد الشهرة العامة ... كقولهم كناية عن الأبلة : "عريض القفا" ،فإن تجاوز الحد فى عرض القفا من لوازم الأبله فيما يقال . وقولهم فى الكناية عن الغباوة : "ضخم الرأس" فإن تجاوز الحد فى ضخامتها

ملازم للغباوة فيما يقال أيضا .... ولذا تمدح طرفة بن العبد بصغر رأسه ، وكنى عن ذكائه فى قوله :

أَنَا الرَّجُلُ الضَّرْبُ الَّذِى تَعْرِفُونَهُ
خَشَاشٌ كَرَأْسِ الْحَيَّةِ الْمُتَوَقِّدِ (١)

والشاهد فى جعله ذلك دليل الذكاء ، فيكون مقابله وهو عرض القفا وعظم الرأس دليل الغباوة .

ومن ذلك قول الشاعر يصف رجلا بالغباوة على طريق الكناية :

عَرِيضُ الْقَفَا مِيزانُهُ فى شِمَالِه
قَدْ انْحَصَّ مِنْ حَسْبِ الْقَرَارِيطِ شَارِبُهْ (٢)

فعريض القفا كناية عن الغباوة . وميزانه فى شماله كناية عن البلاهة فهو مرتبك فى أمره حتى ليمسك الميزان بالشمال ، والشطر الثانى كناية عن بلادة الذهن فهو يتوقف منه فى حسب القراريط ، فيجتهد فى التفكير ، ويأخذ بأسنانه فى شفته العليا فيتآكل شاربه "ففى البيت ثلاث كنايات من صنف القريبة الخفية .

وهكذا كل كناية يكون اللزوم فيها غيرواضح فيتوقف الذهن فيها عن إدراك المراد بها والمطلوب منها ، ولا ينقدح المعنى فيه إلا بعد فكر ورؤية.

٢ــ **بعيدة** : وهى ما كان الانتقال فيها من المعنى المكنى به ،إلى المعنى المكنى عنه ، بواسطة واحدة ، أو عدة وسائط .

فمثال الأولى : قولك "أصبح فلان يَمْشِى على العكاز" كناية عن كبر السن ، وبين المعنى الحقيقى المكنى عنه ، والمعنى الكنائى المراد واسطة واحدة ، إذ أنه ينتقل من المشى على العكاز إلى وهن الجسم وضعفه ، ومن

---

(١) الضرب :الخفيف اللحم ، الخشاش : الصغير الرأس ، المتوقد : سريع الحركة .
(٢) الحص : انحسر شاربه لكثرة ما بعض على شفته عند الحسب والعد .

وهن الجسم وضعفه إلى كبر السن وهو المعنى الكنائى المراد .

وكقولهم عن الأبله : "عريض الوسادة" فإنه ينتقل من عرض الوسادة على عرض القفا ، ومن عرض القفا إلى المعنى الكنائى المراد ، وهو البله .

ومثله قول أبى تمام :

فَإِنَ أَنَا لَمْ يَحْمَدْكَ عَنِّى صَاغِرًا

عَدُوُّكَ فَاعْلَمْ أَنَّنِى غَيْرُ حَامِدِ

فقد كنى عن جودة شعره ، وحسن مديحه ' بحفظ الأعداء له مكرهين، وبين المعنى الحقيقى والكنائى واسطة واحدة إذ ينتقل من حفظ عدو ممدوحه قول الشاعر فيه إلى إعجابه بقوله : وينتقل من إعجابه بقوله على إجادة شعره فيه وحسن مديحه له .

ومثال الثانية وهى ما كان الانتقال فيها من المعنى المكنى به على المعنى المكنى عنه بأكثر من واسطة قولك "فلان كثير الرماد" كناية عن الكرم ، فإنه ينتقل من المعنى المكنى به وهو كثرة الرماد على المعنى المكنى عنه وهو الكرم بوسائط متعددة ، فإنه ينتقل من كثرة الرماد إلى كثرة ايقاد النار تحت القدور ، ومنه إلى كثرة الطبخ ، ومنه إلى كثرة الأكلة ، ومنه إلى كثرة الضيوف ، ومنه إلى المعنى الكنائى المراد وهو الكرم .

ومن الكنايات البعيدة عن صفة الكرم قول الشاعر :

وَمَا يَكُ فِىَّ مِنْ عَيْبٍ فَإِنَى

جَبَانُ الْكَلْبِ مَهْزُولُ الْفَصِيلِ (١)

فإنه كنى عن جوده وكثرة قراء للأضياف بجبن الكلب وهزال الفصيل،إذ ينتقل ما يوجب نباحه وهو اتصال مشاهدته وجوها إثر وجوه ، وبه إلى كون صاحبه مقصدا للدانى والقاصى ، ومن هذا إلى أنه يقرى

---

(١) الفصيل : ولد الناقة ، وهزاله : حرمانه من لبن أمه بنحرها أو بإيثار الضيفان به .

الأضياف ومن قرى الأضياف إلى وصف الجود

وكذلك ينتقل الذهن من هزال الفصيل إلى فقد أمه بنحرها [١] ، ومنه إلى قوة الداعى لنحرها ــ لكمال عناية العرب بالنوق لاسيما المتليات [٢] ، وأنه ينتقل الذهن إلى إعدادها للطبخ ، ومنه إلى أنه مضياف كريم ، ونظيره ــ مع زيادة لطف ــ قول إبراهيم ابن هرمة :

يَكَادُ إِذَا ما أَبْصَرَ الضَّيْفَ مُقْبِلاً

يُكَلِّمُهُ مِنْ حُبِّهِ وَهْوَ أَعْجَمُ [٣]

فإن ذلك كناية عن الكرم ،إذ أنه ينتقل من حب الكلب للضيف حتى إنه ليكاد يكلمه إلى كثرة رؤيته للضيف وإلفه إياه ، ومنها إلى كثرة مشاهدته إياه، ومنها على كثرة تردده على دار صاحبه ، وينتقل من هذا إلى أن صاحبه كثير الأضياف ، ومن هذا على الكرم وكثرة القرى . ومثله قول ابن هرمة أيضا :

لاَ أُمْتِعُ الْعَوذَ بِالْفِصَالِ ولا

أَبْتَاعُ إِلاَّ قَرِيبَةَ الأَجَلِ [٤]

ينتقل من عدم امتاع العوذ بالفصال إلى أنه لا يبقى لها فصالها لتأنس بها ويحصل لها الفرح الطبيعى بالنظر إليها ، ومن ذلك إلى نحوها ، ومنه إلى كثرة الآكلين ، ومنها إلى كثرة الصيوف ، ومنها إلى الكرم . ويحتمل أن يكون المعنى : أنه لا يبقى العوذ تتمتع بفصالها . والفرق بين التقديرين أن النحر فى الأول للفصال ، وفى الثانى للنوق .

---

(١) أو إلى أخذ اللبن منها وتقديمه للضيفان

(٢) هى التى تلاها ولدها أى تبعها

(٣) الضمير فى ــ يكاد ــ للكلب . والأعجم : الذى لا يتكلم ، وزيادة اللطف فيه ناشئة من المبالغة فى محاولة الكلب أن يكلمه .

(٤) العوذ : جمع عائذ وهى الناقة الحديثة النتاج ، والفصال : جمع فصيل وهو ولد الناقة.

وفى الشطر الثانى كناية أخرى ، فإنه ينتقل من قرب الأجل إلى نحرها، ومن نحرها إلى أنه كريم مضياف .

ومن لطيف الكناية عن الصفة قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا ﴾ (١) الآية .المراد : ولما اشتد ندمهم وحسرتهم على ما فعلوه من عبادة العجل ، فكنى بالسقوط فى الأيدى ــ وهو عض الأصابع ــ عن الندم ،لأن من شأن من اشتد ندمه وحسوته أن يعض يده غما ، فتصير يده ، مسقوطا فيها لأن فاه قد وقع فيها . وجاءت الدقة فى هذه الكناية ، من جعل الرءوس هى التى سقطت على الأصابع لتعضها ، ولم تجعل الأصابع هى التى ارتفعت إلى الأفواه ، للدلالة على أن شدة الإحساس بالندم ، كان من القوة بحيث خارت له قواهم ، فمالت الرؤس إلى أسفل .

وكذا قول المتنبى فى الكناية عن الكذب :

تَشْتَكِي مَا اشْتَكَيْتُ مِنْ أَلَمِ الشَّوْ
قِ إِلَيْهَا ، وَالشَّوْقُ حَيْثُ النُّحُولَ

كنى عن كذبها فى تشكيها بقوله : والشوق حيث النحول ، وقد أصابه هذا النحول دونها ، فينتقل الذهن من عدم نحولها إلى عدم التفكير فى أمره ، ومن هذا إلى كذبها فى دعواها الشوق إليه .

وقول المتنبى أيضا مخاطبا سيف الدولة :

إِلَى كَمْ تَرُدُّ الرُّسْلَ عَمَّا أَتَوْا لَهُ
كَأَنَّهُمَ فِـــيما وَهَبْتَ مَلاَمُ (٢)

يقول : أن رسل الروم كانوا يأتون سيف الدولة للصلح فيردهم المرة تلو المرة غير هياب ولا وجل من الروم وقيصرها ، وقد شبه رده برده اللوم

---

(١) من الآية ١٤٩ من سورة الأعراف .
(٢) المراد بالرسل : رسل ملك الروم فى طلب الصلح .

عنه بما بذل من هبات وأموال . فصدر البيت يتضمن وصف الشجاعة والقوة، وعجزه يتضمن وصف الكرم ، وذلك من طريق الكناية ، إذ ينتقل الذهن من رده رسل ملك الروم على عدم اعتداده بهم ، ومن ذلك إلى قوته وشجاعته ، كما ينتقل الذهن من رده لوم اللائمين فى كثرة العطاء ، إلى حرصه على العطاء تمسكه به ، ومن هذا إلى الكرم . فأول البيت كناية عن الشجاعة وآخره كناية عن الكرم والسماحة .

ولطف هاتين الكنايتين جاء من بُعد مأخذهما ، ومن ضمهما بالتشبيه فى إطار واحد ،كأن إحداهما تتبع الأخرى ، وأن كانتا مختلفتين فى الدلالة .

وكذا قول من يصف راعى إبل أو غنم بحسن الرعية :

ضَعِيفُ الْعَصَا بَادِى الْعُرُوقِ تَرَى لَهُ

عَلَيْهَا إِذَا مَا أَجْدَبَ النَّاسُ إِصْبَعَا (١)

وبيان الكناية فى البيت : أن الذهن ينتقل من ضعف العصا إلى رقته وشفقته ،ومن هذا إلى حسن رعيته ، وكذا من ظهور عروقه إلى هزاله بسبب كده نفسه فى سبيلها وسهره على صالحها ، ومن هذا إلى حسن رعيته. ففى البيت كنايتان ، والمكنى عنه بهما واحد وهو حسن الرعية .

ومثل هذا البيت فى الكناية عن حسن الرعية قول الآخر يصف راعيا بها ، ولكنه سلك طريق الضد لما سلكه الرعى الأول :

صُلْبُ الْعَصَا بِالضَّرْبِ قَدْ دَمَّاهَا

تَوَدُّ أَنَّ اللَّهَ قَـــــدْ أَفْنَاهَا

والكناية هى فى وصفه بأنه صلب العصا ، إذ ينتقل الذهن منها إلى قسوته ، ثم إلى حسن رعيته . وأكد قسوته عليها وأخذه إياها بالعنف والشدة

---

(١) بادى العروق : ظاهرها لقلة اللحم فى جسمه . فهو كناية عن نحافة جسمه . والمراد بالأصبع الأثر الحسن على سبيل المجاز المرسل لعلاقة السببية .

بأنها تتمنى أن الله قد أفناها ليريحها من هذا العناء .

وقد ضم كل منهما إلى الكناية ضربا من ضروب الجمال فى التعبير ، فضم إليها فى الأول : مجازا مرسلا فى قوله : ترى له عليها أصبعا ، لإفادة الأثر الحسن البادى على أجسام النوق من حسن رعايته ... وضم إليها فى الثانى تورية فى قوله : ــ بالضرب قد دماها ــ ويعنى بذلك : صيرها كالدمية ، لإفادة أثر رعايته أيضا ... وأكد التورية بذكر الضرب ، لمناسبته للمعنى القريب ، وهو إسالة الدم ، ترشيحا للتورية .

الكناية عن النسبة :

ضابطها : أن يصرح بالموصوف والصفة ، ولا يصرح بالنسبة بينهما، ولكن يذكر مكانها نسبة أخرى تستتبع وتستلزم النسبة المراد إثباتها أو نفيها .

وإيضاح ذلك : أن المتكلم قد يريد إثبات صفة من الصفات لإنسان أو نفيها عنه ، فلا يصرح بذلك ولكن يعمد إلى الكناية فيجعلها فى شئ يشتمل عليه ويتصل به ، وله به ارتباط وثيق ،ليكون إثباتها لما يتصل به دليلا على ثبوتها الحقيقى .

مثال ذلك قولهم فى المدح : "المجد بين ثوبيه ، والكرم بين برديه" "يريدون : نسبتا المجد والكرم له ، وقد عدلوا عن التصريح بذلك ، إلى جعل المجد موجودا فيما يحيط به من الثوبين ، والكرم موجودا فيما يحيط به من برديه ، ليفهم السامع إثباتهما لشخصه ،إذ ليس بين برديه سوى ذات الممدوح، فيكون هذا التعبير كناية عن إثبات المجد والكرم له .

ومن الكناية عن النسبة قول زياد الأعجم يمدح عبد الله ابن الحشرج :

إنَّ السَّمَاحَةَ والْمـــــرُوَّةَ والنَّدَى
فِى قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ابْنِ الحشرج

فقد أراد أن يثبت هذه الصفات لابن الحشرح ، فعدل عن التصريح بذلك ، إلى جعلها فى قبة مضروبة عليه ، كناية عن كونها فيه ، لأن اثبات الأمر فى مكان الشئ وحيزه يدل على إثباته لصاحب المكان ، فالنسبة المكنى بها ، هى إثبات وجود هذه الصفات فى القبة ، والمكنى عنها هى إثبات هذه الصفات للممدوح .

ومن ذلك قول الشاعر يمدح ابن العميد :

وَالْمَجْدُ يَدَّعُو أَنْ يَدُومَ لِجِيدِهِ
عِقْدُ مَسَاعِي ابْنِ الْعَمِيدِ نِظَامُهُ (١)

فقد شبه الشاعر المجد بانسان بديع الجمال فى ميل النفوس إليه ، واستعير المشبه به للمشبه وحذف ، ودلَّ عليه بإثبات لازم المشبه وهو الجيد للمشبه ، ولإثباته استعارة تخيلية ، وإثبات العقد للجيد ترشيح للاستعارة .

فكنى بدعاء المجد أن يدوم العقد ويبقى ، عن الدعاء بدوام بقاء ابن العميد ،لأن دوام العقد لا يكون إلا بدوام مساعيه ، ودعاء المجد ببقائه يستلزم تعلق المجد به ، وذلك يستلزم اختصاصه به وثبوته له .

وفى الشطر الثانى من البيت كناية أخرى . وهى أن الشاعر كنى بانتظام عقد المجد بمساعى ابن العميد عن تزيين ابن العميد للمجد ، وذلك يستلزم شدة اعتنائه به ، وشدة اعتنائه به تستلزم شدة محبته له ، وشدة محبته تستلزم شدة لصوقه به وثبوته له .

وبذلك يكون فى البيت كنايتان ، والمكنى عنه بهما واحد هو :

اختصاص المجد بابن العميد .

ومن ذلك قول أبى نواس يمدح الخصيب أمير مصر :

---

(١) الجيد : العنق ، والمساعى : جمع مسعاة وهى المكرمة ، نظام العقد ما به يكون منتظما وهو سلكه .

فَمَا جَازَهُ جَودُ وَلاَ حَلَّ دُونَهُ

وَلَكِنْ يَصِيرُ الْجُودُ حَيْثُ يَصِيرَ

ففى البيت كنايتان أرد بهما اختصاص الممدوح بالجود ، وقصره عليه، أحداهما فى قوله :ـ فما جازه جودَ ولا حلَّ دونه ـ وهى كناية عن تجمع كل أفراد الجود عند الممدوح وعدم توزعه وتقسيمه عنه ، وهذه كناية عن صفة .

والثانية فى قوله : ـ ولكن يصير الجود حيث يصير ـ وهى كناية عن أن حقيقة الجود ثابتة له ومختصة به ، لأن متابعتها له حيث وجد يدل على ملازمتها له وعدم مفارقتها مكانه ، وذلك يدل على ثبوتها له واختصاصها له ، وهذه كناية عن نسبة ، والكناية الثانية كأنها مترتبة على الأولى .

وهذا بناء على رأى السكاكى الذى ذهب إلى أن كلمة (جود) وردت فى الشطر الأول نكرة فى سياق النفى فتحم أفراد الجود كلها ، ووردت فى الشطر الثانى معرفة بأل الجنسية الدالة على العموم ففرق بين الكنايتين .

وهذه الأمثلة كناية عن النسبة فى الإثبات .

أما أمثلة النفى كقولهم للعربى : "العرب لا تخفر الذمم" يريدون إثبات ذلك له ، وهذا أبلغ من قولك : أنت لا تخفر ، لأنه إذا نفى عن العرب نقض العهد ، فقد نفى عنه ذلك لأنه واحد منهم .

كذلك قولهم للرجل يريدون تأكيد نفى البخل عنه : "مثلك لا يبخل" قال الزمخشري :"نفوا البخل عن مثله وهم يريدون نفيه عن ذاته ، قصدوا المبالغة فى ذلك فسلكوا به طريق الكناية ، لأنهم إذا نفوه عمن يسد مسده ، وعمن هو على أخص أوصافه فقد نفوه عنه" (١)

---

(١) انظر : الكشاف ٢١٢/٤ ، وبغية الإيضاح ١٨٤/٣ .

أى إذا نفى البخل عن نظيره المشارك له فى أخص الصفات ، فقد نفى عنه ، بناء على القاعدة المشهورة : ما ثبت لأحد المثلين يثبت للآخر .

وعليه قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[1] على أن الكاف ليست بزائدة ،فقد نفى وجود المثل لله بنفى وجود مثله على طريق الكناية ،لأن نفى مثل المثل يستلزم نفى المثل ، ضرورة أن المثلين متساويان فى النفى والإثبات . وهذا غاية لنفى التشبيه ، إذ لو كان له مثل لكان لمثله شئ وهو ذاته تعالى ، فلما قال : (ليس كمثله) دل على أنه ليس له مثل .

ومن الكناية عن النسبة فى النفى قول الشنفرى الأزدى فى وصف امرأة بالعفة .

يبيت بِمَنْجَاةٍ مِنَ اللَّوْمِ بَيْتُهَا
إِذَا مَا بُيُوتٌ بِالْمَلَامَةِ حُلَّتِ

وصفها بالصفة على أبلغ وجه وأكده ، ذلك أنه قد توصل إلى نفى اللوم عنها ، وابعادها عنه ، بأن نفاه عن بيتها .

وقد صرح بالموصوف ، وهو الضمير فى (بيتها) العائد على الممدوحة ، ثم صرح بالصفة ، وهى اللوم المنفى فى قوله "بمنجاة من اللوم" ولكنه لم يصرح بنسبة نفى اللوم عنها ، بل ذكر مكانها نسبة أخرى هى نفى اللوم عن بيت يشتمل عليها وذلك يستلزم نفى اللوم عنها .

وقد عبر الشنفرى بقوله : (يبيت) دون (يظل) لمزيد اختصاص الليل بالفواحش ، ولهذا قيل : الليل أخفى لليل .

أغراض الكناية :

يمكن إيجاز الأغراض التى يؤتى بالكناية لتحقيقها فيما يلى :

---

(١) من الآية ١١ من سورة الشورى .

١ــ تجلية المعنى المنفى وابرازه فى صورة محسة واضحة ، فالكناية تبرز المعقول فى صورة المحسوس ، وتؤديه بلفظ يجمع بين الدعوى ، كما فى قوله تعالى حكاية عن الندم : (وَيَوْمَ بعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا) وقوله : (ولما سقط فى أيديهم ورأو أنهم قد ضلوا) الآية . فقد صورت الآيتان الندم بمظهر مرئى مشاهد محسوس . وكذلك كل معنى كنائى تصوره الكناية بصورة مرئية . والمثل الواضح فى ذلك قوله تعالى فى قصة يوسف عليه السلام : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [1] فكنى عن رغبته فيها واقباله عليها ومدافعتها بقد القميص من قبل أى من أمام ، وكنى عن رغبته عنها وإقبالها عليه وفراره منها بقد القميص من دبر ، فإن ذلك مظهر برائته ، فكان كناية عن صدقه وكذبها .

٢ــ أنها كدعوى الشئ بالبينة والبرهان ، ولذلك قال العلماء : الكناية أبلغ من التصريح ، لأنها ذكر الشئ بواسطة لازمه ، ووجود اللازم يدل على وجود الملزوم ، وذكر الشئ مع دليله أوقع فى النفس وآكد لإثباته ، لأنها دعوى يؤيدها الدليل ، أما إذا لم تؤيد الدعوى بالدليل فإنها تضعف ،فإذا قلت : "محمد طويل النجاد" كناية عن طول القامة ، فكأنك تقول :محمد طويل القامة ،لأنه طويل النجاد .

٣ــ تزيين المعنى وتحسينه : وأكثر الكنايات د سبقت لهذا الداعى ، ويظهر ذلك جليا فى كنايتهم عن العفة والنزاهة بقولهم :فلان طاهر الذيل ، نظيف اليد ، وعن الطفولة الغضة بقولهم : "ناعم الأظافر" فتقول أعرفه منذ نعومة أظفاره ، أى منذ الطفولة البرئية ، ويتجلى ذلك عن قول الشاعر :

---

(١) الآيتان ٢٦، ٢٧ من سورة يوسف .

وقد قَرَّ بك قريبا :

والمجد يدعـــو أن يدوم لجيده

عقد مساعى ابن العميد نظـــامُه

فقد كنى عن اتصاف ابن العميد بالمجد بأسلوب سدته ولحمته الخيال فاكتسى المعنى بذلك وبالكناية بهاء وجمالا .

٤ــ تشويه المعنى وتقبيحه : بابرازه فى صورة بشعة ينفر منها الطبع، كما فى قوله تعالى كناية عن البخل وعن الإسراف : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ ﴾ فقد صورت الآية البخيل بصورة من شدت يده ، إلى عنقه بغُلٍّ ، وصورت المسرف المتلاف بصورة من بُسطت يده ، كل البسط فلا يستطيع ردها إليه ولا قبضها فهى لا تمسك على شئ ، وذلك للتنفير من الحالتين ، ولذلك كانت العاقبة المترتبة عليهما اللوم والحسرة .

وقد اجتمع التزيين والتقبيح فى شطرى بيت المتنبى الذى يمدح فيه سيف الدولة بأنه أعز بنى كلاب مساء وأذلهم صباحا وذلك فى قوله :

فَمَسَّاهُمُ وَبَسْـطُهُمَ حَرِيرُ

وَصَبَّحَهُمَ وَبُسْطُهُمُ تُرَابُ

وقد أكد إذلاله إياهم وصوره بصورة أبشع مما صوره بها أولاً ، حيث جعلهم لشدة هوانهم وإمعان إذلاله فيهم أنهم قد استوى الرجال منهم بالنساء ، وذلك فى قوله بعد البيت السابق :

وَمن فى نَفَسه مِنهُمَ قناة

كَمن فِى كَفِّهِ مِنْهُمُ خِضَابُ

فهل رأيت تقبيحا وتشويها للمعنى المكنى من أكثر مما صور به أبوالطيب هؤلاء القوم .

٥ــ استكاره التصريح بالشئ لهجنته فيستر بالكناية عنه ، أى : يفحش ذكره فى السمع ، فيكنى عنه بما لا ينبو عنه الطبع ، من ذلك الكناية عن الجماع بالسر فى قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾[1]، وبالملامسة فى قوله :﴿ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ [2] وبالمباشرة فى قوله تعالى : ﴿ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ ﴾[3] ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ [4] فكنى عن امرأة العزيز بقوله : (التى هو فى بيتها) كراهة أن يصرح بزليخا لثقله وهجنته ، وعدل عنه وعن العزيز بالموصول وصلته ليؤكد الغرض الذى سيق له الكلام وهو نزاهة يوسف ــ عليه السلام ــ ، أو لتأكيد الصفة وهو المراودة بأنه فى بيتها فتتمكن من المراودة فضل تمكن .

---

(١)من الآية ٢٣٥ من سورة البقرة .
(١) من الآية ٤٣ من سورة النساء .
(٢) من الآية ١٨٧ من سورة البقرة .
(٣) من الآية ٢٣ من سورة يوسف .

الفهرست

الموضوع	الصفحة
تقديم	٣
تمهيد	٥
الفصل الأول التشبيه	١٥
ــ أركان التشبيه	١٨
ــ مباحث الطرفين	٢٠
ــ مباحث وجه الشبه	٤٦
ــ مباحث أدوات التشبيه	١٠٤
ــ أغراض التشبيه	١١٣
الفصل الثاني : الحقيقة والمجاز	١٣٦
(أ) مباحث الاستعارة	١٣٧
ــ الاستعارة الأصلية والتبعية	١٧٣
ــ الاستعارة المكنية	١٨٠
ــ الاستعارة المطلقة والمجردة والمرشحة	١٨٤
ــ البلاغة بين التشبيه والاستعارة	٢٠٤
(ب) المجاز المرسل	٢٠٧
الفصل الثالث : الكناية	٢٣١
ــ أقسام الكناية	٢٣٧
ــ أغراض الكناية	٢٥١
ــ الفهرست	٢٥٦

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين ، حمداً يوافى نعمه ، ويكافئ مزيد فضله ، كما ينبغى لجلال وجهه ، وعظيم سلطانه ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين ، الذى أيده ربه بالمعجزات ، وأنزل عليه فى بديع الآيات : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ﴾ (الرحمن: ١ – ٤) فكانت رسالته بهذه المعانى الصافيات .. صلى الله عليه وآله وأصحابه الذين اتبعوه وآزروه واتبعوا النور الذى أنزل معه ، فكانوا أئمة إلى يوم الدين .. " وبعد " .

فهذه " **دراسات فى علم البيان** " أحد فروع علم " **البلاغة العربية** " نقدمها لطلاب العربية فى كليات جامعة الأزهر ، وإلى جميع الحداة الذين ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت: ٤٢)

وتقووم هذه الدراسة على تذوق النصوص القرآنية والأحاديث النبوية والمأثورات العربية ثم تستخرج منها المنهج البلاغى المستقيم ، ليكون هذا الدرس سبيلا مستقيما لفهم كتاب رب العالمين ، وسنة النبي الكريم ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ وإدراكا لمقاصد كلام العرب الخلص ومن شابههم إلى يوم الدين .

وأسأل الله أن يجعل هذا خالصا لوجهه الكريم ، ليكون فى ميزان حسناتنا ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (الشعراء: ٨٨ – ٨٩)

هذا ، والله من وراء القصد ، والهادى سواء السبيل

المؤلفون